obeikandl.com

قلوب منهكة – المسلم اليهودي

قلوب منهكة – المسلم اليهودي

قلوب منهكة – المسـلم اليـهودي
رواية
حاصلة على جائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠٥

تأليف : كمال رُحيِّم
الغلاف : هانيبال – هيبو

الطبعة الثانية / القاهرة ٢٠٠٩
رقم الإيداع: ٢٤٧٩٨/٢٠٠٨

ISBN: **978 – 977 – 6299 – 09 – 2**

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة

www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2009

obeikandl.com

الطبعة الثانية

الرواية الحائزة على

جائزة الدولة التشجيعية

عام ٢٠٠٥

قلوب منهكة

المسلم اليهودي

كمال رُحيمّ

obeikandl.com

obeikandl.com

إلى سوزان .. الزوجة والأم ..

ومـن قبل، إلى رفيق طفولتي وصباي ..

إلى الروح الطاهرة .. روح أخي الملازم محمد رُحيمّ ..

الـذي حرب التحرير ..

غيبتـه عنا حـرب أكتوبـر ..

obeikandi.com

obeikandl.com

obeikandi.com

(١)

لم نعرف بوفاة أبي إلا بعدها بشهر!

سمعنا طرقتين على شراعة الباب فالتويت بجسدي محاولا الإفلات من أم حسن، إلا أنها دفعتني بمرفقها دفعة خفيفة إلى داخل حجرها. لم أستجب لها، والتفت برأسي إلى الوراء وعيناي تتبسمان لهذا القادم. كنت أحسبه جدي، فإذا هي واحدة من معارف أمي ترتدي فستاناً وشالا أسودين، جاءت تعزينا في أبي ففوجئت بأنه لا أحد في البيت سمع بخبر موته.

جلست على الكنبة تقلب النظر فينا وتتعجب من أننا لا نعلم بشيء حتى الآن، وأمي تحدق فيها ووجهها يزوي لحظة بعد لحظة.

قالت: إنها لم تعلم بالأمر هي الأخرى إلا مصادفة، أبلغها به قريب لزوجها كان يزورهم أول أمس.

قال لها: إن أبي وبعض رفاقه من الفدائيين كانوا يستقلون قارباً في بحيرة المنزلة متجهين إلى بورسعيد. كان عددهم كبيراً، ضعف الحمولة تقريباً، ومعهم أكل وسلاح وعتاد .. انقلب بهم في عرض البحيرة، وراح أبي واثنين معه.

وأخذت تحكي لأمي ما قاله قريب زوجها عن جدي شيخ البلد، وصيوان

العـزاء، والخلق الآتين مـن كل مــكان على الأقدام أو فــوق الحــمير، والنــساء
الباكيات في البيوت، وأمي ذاهلة وعيناها منكستان.

لم ترفع عينيها وتتكلم إلا بعد برهة، قالت بصوت مخنوق:

- وإيه اللي وداه هناك، ومالنا احنا ومال الحرب، أعمل إيه أنا دلوقتي؟! أروح فين وآجي منين.

انحنـت عليهـا الضيفة تحتويهـا بـذراعيها وطفقـت أمـي فـي البكاء، وهبت أم حسن واقفة وأنا ما أزال بين يديها. مالـت علـى أمي، تربت على رأسها وتقول:

- الصبر يا حبيبتي الصبر.

- صـبر إيـه! الصـبر لمـا يكـون فيـه أمـل! دا أنـا بقـالي سـنة معرفش عنه حاجة وفضلت صابرة وساكتة، إنما دلـوقتي صـبر إيه بقى!! إخص عليك يا محمود تفوتني كده وتفوت ابنك اللـي لسه مشفتوش.

نظرت الضيفة نحوي، وهي تقول لأم حسن:

- بسم الله الرحمن الرحيم، هو المحروس ده ابن محمود.

فردت أمي:

- أيوه هو، هو ده جـلال. أروح بيـه فين دلـوقتي. كل حاجـة في الدنيا معاكساني، ظروف العيشة وظروف جوازي وظـروف أهلي، ألاقيها منين ولا منين.

وكـان صـوت الراديـو يـأتي عاليـاً مـن المطـبخ، حيـث جـدتي تقف أمام الحـوض تخبـط وتـرزع الأكـواب والملاعـق والأطبـاق وكل مـا يقـع عليـه نظرهـا، وتسـعل بـين الحـين والحـين سـعلات حادة تتلقاها أذني بضجر.

صاحت أم حسن:

- يا ست إيفون، يا أم إيزاك.

فأشاحت أمي بيدها.

- بلاش بلاش دلوقتي يا أم حسن.
- ما هي لازم تعرف يا كاميليا!
- سيبيها واسمعي الكلام، سيبيها أنا مش ناقصة مرار.

عادت أم حسن إلى جلستها وانحنت عليَّ، وهي تقول بصوت خافت: بسم الله الرحمن الرحيم، وأعطتني ثديها فتمنعت. أخذت تربت على ظهري حتى استجبت، وبدأت ألوك اللبن المنسكب في فمي متلذذاً ولا أبتلعه عامداً فيتسرب من بين شفتي وينسال حتى أطراف عنقي. وساد صمت كئيب لا يعكره سوى سعال جدتي الآتي من المطبخ، بعدما أغلقت الراديو أول ما دقت الساعة الثامنة وبدأت تلاوة قرآن العشاء.

* * *

يبدو أني أحسست بالأمر أو هالني وجه أمي المدفون في صدر المرأة التي تزورنا، وأنفاسها التي تخرج بصوت مسموع، فرفعت بصري نحو أم حسن مستفسراً. وجدت عينيها هما الأخرتان محمرتين، ودمعة عالقة برموشها على وشك السقوط على جبهتي. بدا وجهها على نحو لم آلفه من قبل، فلفظت حلمة ثديها على الفور وشببت خائفاً. أمسكت بي من السروال خوفاً من أن أسقط، إلا أني أفلت من يدها وارتميت على أمي. ولما شعرت بأنها تعيد المحاولة لإرجاعي، لم أجد حلا إلا التشبث بعنق أمي والصراخ بأعلى صوت أقدر عليه.

قالت لي أمي بعد أن كبرت: إن هذه كانت عادتي، فما أن يطرأ شيء على البيت .. شيء محزن .. أو حتى مفرح .. كنت أترك الدنيا كلها، الأكل، اللعب، الرضاعة، كل شيء، وألقي بنفسي على صدرها، فتحتويني وتدخل كف يدها أسفل ملابسي وتظل تملس على ظهري العاري حتى أستكين.

تريثت أم حسن لحظة ثم أدخلت ثديها في صدر الجلباب، وشدت طرحتها السوداء عليه. أمي وضيفتها كانتا مشغولتان

بالكلام عن أهل أبي. أنا وحدي الذي كنت منتبهاً لها. طفقت أتابعها وهي تعدل فردة حذائها المقلوب بطرف إصبع قدمها الكبير، ثم وهي تحكم عقدة الطرحة التي على رأسها، وعندما مالت بكتفيها لتسحب الفردة الثانية من تحت الكنبة عرفت أنها تتهيأ للقيام، إلا أن أمي تدخلت في آخر لحظة، ضغطت على ركبتها ضغطة خفيفة لتبقى قليلا وتكمل لي الرضعة، وعندها تقوست بظهري وبدأت في إعادة حساباتي مرة ثانية.

قالت أمي للضيفة وهي تضع يدها على كتف أم حسن: إنها جارتها وأختها التي تعرف كل أسرارها وأنها مهما فعلت لن تستطيع رد جميلها، فقد تطوعت لإرضاعي مع ابنها حسن بعد أن جف اللبن في صدرها.

ارتخت أهداب أم حسن - بلا وعي منها - وبقى فمها مزموماً برهة قصيرة، ثم اقتربت من أمي تربت على يدها معزية، وأمي تبادلها النظر وعيناها ممتنتان.

وانتصبت أنا واقفاً في حجر أمي ألاعبها وأشاغلها، أشدها من أذنها ومن ياقة الجلباب وأضربها بكفي الصغيرتين على عنقها ووجنتيها، ولم أغفل بالطبع عن تحركات أم حسن.

لم أبدأ في الزمجرة إلا لما رأيتها تزيح الطرحة إلى ما وراء ظهرها، وتفك الزرار المحكوم على ثديها. فهمت ما عقدت العزم عليه، فانثنيت بركبتي محاولا الإفلات من تحت ذراع أمي إلا أنها كانت الأسرع.

جذبتني بحركة خاطفة وأنا أعافر وأشهق من حدة البكاء، وهي تهدهدني وتؤرجحني ثم احتوتني بذراعيها وضمتني إليها، وأخذت تعلو وتهبط بصدرها وأنفاسها تختلط بأنفاسي.

كنت أشبه باللعبة بين يديها..

obeikandl.com

وأدركت أنه لا فائدة من المقاومة، فاستكنت بين أحضانها وتحسست ثديها معاوداً الرضاعة وعيناي على أمي، ولما غلبني النعاس أراحتني على الكنبة وانصرفت.

* * *

لا أعرف كم انقضى من الوقت بعد ذلك، ربما دقيقة أو ساعة .. لا أدري.. كل الذي أتذكره، أني قمت مخضوضاً على صوت جدتي.

كانت خنفاء وكلامها سريعاً، لا يمكن لأحد فهمه أبداً إلا إذا تأهب له جيداً ودقق السمع.

يبدو أن الخبر وصل إلى المطبخ، فأتت مسرعة. وقفت بقامتها القصيرة وشعرها المشوب بالحمرة، تمسح يدها في المريلة التي ترتديها على جلباب البيت ثم أشارت إلي قائلة:

- أمال مين اللي هيربي بسلامته!

لم ترد أمي، وأحست الضيفة بالحرج.

قامت نصف قومة كي تنصرف، إلا أن أمي أمسكتها من ذراعها وأعادتها إلى الكنبة.

أردفت جدتي وهي تشيح بيدها:

- البابا هو اللي هيربي. دا بيصلح ساعات ورزقه يوم بيوم، وأنا خلاص نظري راح وبطلت خياطة. وهيه ـ وأشارت إلى أمي ـ خالية شغل من ساعة لما البيه خلاها تسيب بنك صيدناوي.

وفكت المريلة، كورتها وألقتها بضجر على مقعد مجاور وجلست إلى جانبي. جاءت ركبتها بجوار رأسي تماماً، وكنت أنا ممدداً على ظهري فالتمست الحيطة. تزحزحت قليلا حتى ابتعدت عنها عدة بوصات، وقلبت عيني إلى الوراء لأتمكن من رؤيتها.

للوهلة الأولى بدا أنفها من الزاوية التي أنظر منها أكبر قليلا من المعتاد، لكن هذا لم يشغلني، الذي أثار انتباهي هو الرعشة التي أصابت زاوية فمها اليسرى، أعرفها، فدائماً تجيئها كلما تأهبت للدخول في مشاجرة، ووجدت نفسي بعدها منجذباً نحو ذراعيها. لا تعرفان السكات أبداً. ظلت عيناي تدوران معهما وهما يعلوان ويهبطان، وأصابعها التي تنثني وتنفرد إلى أن أشاحت بكفها نحوي فجأة. حسبت أنها تسدد لطمة إلى وجهي، فانتفضت خائفاً. أظن أني انقلبت ساعتها على وجهي، وكدت أسقط من على ظهر
الكنبة لولا أمي. هبت إليَّ وخطفتني خطفاً من أمامها، وهي تشير لها بحنق
كي تهدأ.

لم تبال جدتي بها، استدارت قليلا نحو المرأة التي تزورنا وهي تقول:

- قلت لها يا بنتي البني آدم ده مش لنا! أقبلي سوسو ابن خالتك ولا مكرم جارنا اللي في أول الشارع، ومفيش فايده!! راسها ناشفة زي أبوها. كان فيه إيه اللي اسمه محمود ده! والله ما كان يدخل في ذمتي بمليم.

ردت المرأة وبادرة غضب تفوح من كلامها:

- الله يرحمه بقى يانينة، دا شهيد ومقامه كبير عند ربنا.

- شهيد!!

أجابتها أمي بغضب:

- أيوه شهيد!! مش كان رايح يدافع عن بلده، يبقى شهيد.

- أنا لا بتكلم دلوقتي عن الحرب ولا الشهادة، كان فيه إيه ياعين أمك علشان تتجوزيه؟! دا لا كان مننا ولا من دينا!!

يبدو أن جدتي شعرت بأنها أوقعت الضيفة في حرج، فتداركت:

- أستغفر الله أستغفر الله. هو أنا قلت إيه! مش قصدي مش قصدي والله! أنا قصدي إن الجوازة الخايبة دي مكنتش لنا.

وساد الصمت إلى أن قالت الضيفة:

- معلش يا تانت، ما انتي حضرتك عارفه قد إيه كانت كاميليا بتحبه ومتعلقة بيه.

- بتحبه! وجالنا إيه من الحب، آهو ضيع البنت معاه.

- نصيب يا تانت، نصيب.

انحنت جدتي برأسها وهي تقلب كفها وتغمغم:

- نصيب، نصيب إيه! أقولها ضيع البنت، تقولي نصيب! أقولها مش عارفة إيه، تقولي شهيد!

زفرت أمي.

- ماما! وبعدين.

لم تلتفت جدتي إليها، شدت حُقَّ النشوق من أسفل شلتة الكنبة، دست نتفة منه في فتحتي أنفها وعادت برأسها قليلا إلى الوراء، عيناها مشدودتان ورعشة واحمرار خفيف يكسوان مقدمة الأنف، ثم ما لبثت أن دخلت في شوط من العطس أشبه بالعراك والضيفة تحدق فيها وتميل إلى الوراء حذرة من الرذاذ المتساقط. وبعد أن فرغت الجدة أخرجت منديلا أسوداً من عبها (وهات ياتسليك في أنفها)، ثم مالت على الضيفة تهمس برتمها السريع:

- أربع سنين يا بنتي واحنا نقار في نقار! ييجي يوم ويغيب شهر! ولما ييجي تبقى فرحانة وبتتنطط وتقول لي: الدنيا مش سايعاني النهارده يا نينة. مش عارفه إيه يا نينة ولا أبصر إيه يا نينة.

تأخذ جدتي أنفاسها ثم تكمل:

- أقوم أنا واخداه على جنب وأقول له: يا ابني شوف لك شقة تلمك إنت ومراتك بدال الأوضة اللي إنت واخدها فوق

السطوح؟ يهز راسه! يا ابني قلت للبابا والماما إن مراتك حامل؟ يهز راسه! يا ابني؟ يهز راسه! ولا أنا عارفه قال ولا مقلش! يا ابني خلي البابا والماما يزورونا؟ يهز راسه! طيب نزورهم احنا؟ يهز راسه! أقوله، يهز راسه! أقوله، يهز راسه!

انسلت أمي إلى غرفتها ..

كنت أسمع بكائها. بادلتها البكاء أنا الآخر، وجاهدت للنزول من فوق الكنبة أحبو خلفها.

وفي منتصف الليل أتى جدي، أبلغته جدتي بالخبر وهو على باب الشقة.

أطرق رأسه وقال:

- يا رحمن يا رحيم.

وفتح علينا باب الغرفة وعيناه مهمومتان.

* * *

obeikandl.com

(٢)

لـم يكـن بصـالة الشـقة التـي نسـكنها سـوى كنبتـين بلـدي متقـابلتين، ومكسـوتين بقمـاش (كيرتـون) مـن النـوع الـرخيص طالتـه حـروق السـجائر وتنـاثرت عليـه هنـا وهنـاك، خاصـة فـي الموضع المخصص لجلوس جدي.

وعلـى أول الطرقـة المؤديـة إلـى المطـبخ مقعـدين مـن الخيـزران، يحجبـان جانبـاً مـن ماكينـة خياطـة ماركـة (سـينجر) موصده منذ زمن. وكليم قديم من الصوف يشغل بالكاد المساحة التـي تفصـل بـين الكنبتـين، تتوسـطه دائـرة سـوداء تتفـرع منهـا خطوط بكل الألوان، وفي أحد أطرافه رقعتين لم تفلح جدتي في رتقهما بعد أن طعنت في السن، وتبدوان من أول نظره للكليم.

أما الجدار فلا لون له تقريباً ..

تقـول أمـي: إنهـا منـذ أن وعـت علـى الـدنيا لا تتـذكر أن يـداً أمسـكت بالفرشـاة وقامـت بدهانـه، وبـه ثقـوب كانـت مـن قبـل موضـعاً لبراويـز تحمـل صـور أفـراد العائلـة. خـالي إيـزاك الـذي رحـل ولا نعـرف عنـه شـيئاً، وخـالي شـمعون الـذي أخـذ صـورته ليعلقها في شقته الجديدة.

الصـورتان المتبقيتـان واحـدة لخـالتي بـيلا وهـي واقفـة بملابـس المدرسـة، وإلـى جوارهـا جـدتي جالسـة علـى مقعـد مـن الجلـد ذي مسـندين، والأخـرى لجـدي زكـي فـي بـرواز ذهبـي تـآكلت حروفـه،

ووجهه فيها مكفهر على غير عادته في الطبيعة، والطربوش مائل إلى اليسار ويبدو جانباً من ياقة الجاكتة الكحلي والكرافتة الرمادي، اللتان لا يرتدي غيرهما سواء كنا في الشتاء أو حتى في الصيف.

وعلى يمين الصالة غرفتين إحداهما لجدي والثانية لي أنا وأمي، وأمام كل واحدة منهما فروة غنم بلون بني. فلم يكن غيرنا في الشقة، خالي شمعون يسكن في أول الشارع هو وزوجته سارة، وخالتي بيلا غادرتنا السنة الماضية بعد أن تزوجت وتعيش الآن في بورفؤاد مع زوجها وابنتهما راشيل التي كانت حاملا فيها قبل الزواج، وبقية أهل أمي أكثرهم هاجر ولم تبق إلا عائلة تعيش بالقرب من محل (بريموس) بالعتبة، وأخت لجدتي تقطن بمفردها في شارع شيكولاني بشبرا.

* * *

جدي هو أول من يستيقظ في البيت ..

أشعر بحركته في الصالة وهو يمر متجهاً إلى الحمام ..

أنظر لأمي فأجدها نائمة، وعندها تبدأ محاولاتي للتدلي من السرير. غالباً ما تنجح، إلا أني كنت أسقط أحياناً على ركبتي أو تلتوي ساقي، فانطلق في صراخ حاد لا أخفف منه إلا لما أجد يدين تحملاني من الأرض وتهدهداني وقبلات متتالية على موضع الألم حتى أرضى. غالباً ما تكون يدا جدي زكي، فقد كان يسرع إليَّ من أي مكان بالشقة وقبل حتى أن تنتبه أمي.

بعد مناوشات مع أمي ومحاولات فاشلة منها لإعادتي إلى السرير، أجتاز باب الغرفة زاحفاً فأجده جالساً على الكنبة. يتبسم لي، فأزيد من سرعتي في الحبو حتى أصل إلى قدميه. كنت أندهش من حجمهما الكبير وأقعى على مؤخرتي قبالتهما مفكراً في الذي أفعله بهما. أبدأ أولا بلكمهما لكمات سريعة وجدي يرمقني من أعلى، وكلما بدا الرضا على وجهه أزيد أنا

من ضرباتي حتى ألهث، فتكف يداي وأظل ساكناً إلا صدري وحده الذي كان يعلو ويهبط. لحظة وتجذبني الشعيرات السوداء النابتة على أصابع قدمه فانحني محاولا اقتلاع واحدة منها، تستجيب الشعرة وتنساب بين أصابعي غير أنها سرعان ما تفلت.

أحاول مرة ثانية وثالثة وسابعة حتى ينتابني الملل، فأضطر لفعل الأشياء السهلة. أخربش بأظافري في باطن القدم، أو أضع أي شيء ألقاه أمامي بين فتحات الأصابع، عود كبريت، رباط حذاء، أو حتى بقايا حبة كراملة تكون في جيبي.

يرفعني جدي إليه ضاحكاً ويعدل من ملابسي، وعندما يجد سروالي مبلولا يبحث في الدولاب أو أسفل المقاعد وأحياناً في أدراج التسريحة عن واحد آخر نظيف وأمي لا تزال تغط في النوم.

* * *

بمجرد استيقاظ جدتي يتبدل مزاجي وأبدأ في التحفز ..

أراها خارجة من غرفتها منكوشة الشعر، وغالباً ما تكون ممسكة ببنسة بأطراف أصابعها. تقف لحظات بالقرب منا وتشبكها في شعرها، وأكف أنا عن الحركة. أركن ظهري على حافة الكنبة وعيناي عليها. تلقي التحية على جدي، وتقول له كلمة أو كلمتين وتمضي. لم تكن تبالي بوجودي وكنت أتحاشاها أنا الآخر، وإن تصادف واحتك ذيل جلبابها بي أثناء مرورها أمامي أعتبر هذا تحرشاً بي وأبدأ في الزمجرة. يلحقني جدي. يرفعني من الأرض ويضعني في حجره، أو يلقي بي في الهواء ويتلقفني، أو يسرع ويضع أمامي كل ما هو متوافر في البيت من كراكيب ليشغلني بها، أغطية زجاجات، أستيك ساعة، صفارة قديمة، طبق مكسور، بعض الفوارغ ...

أترك اللعب فجأة وأتوجه صوب الشرفة ..

فعندما تناديني كنت ألقي ما بيدي وأحبو نحوها، ولا أستجيب أبداً لأية
محاولة تبذل لسحبي بعيداً عنها.

ينادون عليَّ فلا التفت إليهم، يلقون أمامي بالمسخوط الذي أحبه كي أعدل عما في رأسي ولا فائدة. يشدونني من خصري وقدميَّ فأستمر زاحفاً على يدي. تضربني أمي على مؤخرتي فيعلو صراخي ولا أتنازل أبداً عن مطلبي، وعندما يملوا مني يتركونني، لكن عينا جدي بالذات لم تكن تغفل عني.

أول ما أجتاز باب الشرفة كنت أتوقف ثانية أو ثانيتين لأستريح، وتروح عيناي عادة إلى الجدار فإن وجدت ذبابة أو صرصاراً أو رؤوس الثوم المعلقة في الزوايا تهتز بفعل الهواء أتابع ما أرى. وعندما أتذكر المهمة التي أنا قادم لها أفيق إلى نفسي، إلا أني كنت أنظر خلفي أولا عسى أن يكون هناك من لا يزال يقتفي أثري. أعافر بعدها لأدخل جانباً من رأسي بين القضبان الحديدية للشرفة وتنتابني نشوة كأنها السحر. أرى الناس، الأولاد والبنات، دكان عم مرزوق الفطاطري، عطارة الحاج محمود زوج أم حسن، فرن أبو عجوة، بقالة الخواجة كافورس، وقهوة أبو عوف ...

ساعات كنت ألمح أم حسن سائرة في الطريق ..

أعرفها عن بعد فأناغي عليها وتنساب الريالة من فمي على (البافتة) المتدلية على صدري، وإذا رفعت عينيها مرة ورأتني تشير إليَّ فأضحك بصوت عالٍ وأضرب بلاط الشرفة بقدمي. والذي كان يخلب لبي أكثر من أي شيء آخر، هو محل عصير القصب المواجه لعمارتنا. كنت أعشق رؤيته خاصة عندما تأتي غبشة المغرب، وتضئ واجهته باللمبات (النيون) البيضاء والحمراء والخضراء. تظل تضئ وتنطفئ على نحو متتالٍ وأنا أتأملها مشدوها وجسدي كله تنهشه اللذة، ومن هذا الذي يقدر

وقتها على أخذي إلى الداخل؟! كنت أبكي وأحول البيت إلى مناحة، فيتركونني حتى استسلم للنعاس ويحملونني بحذر بعدها إلى الفراش.

طالما حكت لي أمي عن هذه الأيام ..

خاصة تلك الليلة التي أراد جدي وجدتي الاحتفال فيها بعيد زواجهما في البلكونة، اشترى جدي دستة جاتوه من حلواني بميدان الجيش وبسكوت محشو بالعجوه وغُريبة وبيتي فور وبقسماط بالسمسم وكيسين فول سوداني ولب.

وبناء على طلب جدتي أتى من بقاله كافورس بزجاجه بيرة (إستيلا) من الحجم الكبير، ووضعت أمي الشاي باللبن في الأكواب ورصوا كل شيء على المنضدة. غير أن جدتي لم تستسغ وجودي ومحاولاتي الدؤوبة للوقوف على حجر جدي للمشاركة في هذه الوليمة، فحلفت بكل غال عليها ألا يبدأ الاحتفال إلا بعد أن تأخذني أمي إلى السرير وتقوم بتنييمي ولو قسراً. ولما خفت صوتينا أنا وأمي استبشرت خيراً. هي ربع ساعة وفوجئا بعودتي إليهما زاحفاً، والبزازة تتأرجح أمامي. أمي هي التي نامت! ضحك جدي ضحكة عالية وخطفني من فوق الأرض ووضعني على ركبته.

كانت ليلة سوداء على جدتي ، أشد الطبق الذي أمامها مرة وأقذفها مرة ثانية ببقايا قطعة الجاتوه التي في يدي، أما كيسي الفول السوداني واللب فقد أطحتهما على الأرض بضربة واحدة من يدي.

وعندما بدأت جدتي في احتساء البيرة قطعت النفس تماماً، أرمقها بوجه مشدود وهي ترفع الزجاجة وتصب منها في (الشوب) الذي في يدها. يطش السائل فتتسع حدقتا عيني وأظل أترقب. تعلو الرغاوي بصوت كالخروشة حتى تسيل من حافة (الشوب) فأفقد صوابي، ولا تستطيع يدا جدي كبح جماحي.

أقفز بثلثي جسدي على المنضدة وأشد منها (الشوب) فتدور معركة بيننا. لم تنته الليلة على خير ولحقت الخسارة بالطرفين، قرصتني هي في ذراعي قرصة ازرق بسببها أسبوعاً، وكسرت أنا لها (الشوب) خمسين
قطعة.

أقسمت بعدها ألا تدخل البيرة في البيت حتى أكبر، استبدلتها بالنبيذ.

* * *

obeikandl.com

(٣)

جاء خالي شمعون لزيارتنا ..

فتحت أمي له الباب وطارت إلى غرفتها، دخل ومعه ضيف وجلسا متجاورين، وخرج جدي وجدتي وراء بعضهما من الغرفة الثانية.

كان جدي حليق الذقن على غير عادته في يوم الإجازة، المنشة في يده، ويرتدي الجاكت الكحلي على جلباب أبيض وعلى رأسه الطربوش، نفس اللبس الذي يذهب به إلى المعبد أيام السبت، وجدتي عليها الفستان القطيفة النبيتي الذي تدخره للمناسبات. جلسا على الكنبة المواجهة لخالي والضيف، أمي هي التي بقيت في غرفتها.

كنت في الصالة ساعتها وأمامي مجموعة لا بأس بها من الكراكيب ومزاجي رائقاً للعب، ألكم المسخوط عدة مرات في رأسه ثم أنحني عليه وأعضه عضة طويلة في بطنه لعله يبكي أو يصدر عنه أي شيء ولا فائدة، فأنحيه جانباً وأبدأ في النفخ في زجاجة فارغة أو دحرجتها أمامي جيئةً وذهاباً، أو الدق بقبضة يدي على ساعة قديمة من مخلفات جدي.

فجأة وأنا في حموة اللعب شدني منظر مثير ..

فردة شبشب جدتي ..

obeikandl.com

الفردة البرتقالي أم فيونكة حمراء من أعلى، الفردة التي كانت ترفعها في
وجهي وتهددني بها فأطير خائفاً، الملعونة أم كعب (مبري) التي كنت أعمل لها ألف حساب، خرجت كلها من قدمها اليمنى وتعلقت بالأصبع الكبير، وجدتي المشغولة بتفحص الضيف تؤرجحها إلى أعلى وأسفل بحركة رتيبة متتالية.

استفزني المشهد!

وبلا وعي مني أو تخطيط وجدت نفسي أحبو بحذر نحو جدتي، وأخطفها خطفاً من قدمها وأعود مسرعاً إلى موضعي الأول وعيناي تلمعان ببريق النصر. وأول ما أخذت نـَفَسي ألقيتها بكل عزمي ناحية باب الشرفة، ثم انهمكت في اللعب ثانية وكأن شيئاً لم يحدث. ضحك خالي شمعون على فعلتي وتبسم الضيف، أما جدي فلم يملك نفسه. انفتح في نوبة ضحك عالية ورأسه وكتفاه يهتزان. لم يتوقف إلا لما رفعت جدتي حاجبها الأيسر ونظرت له، ويبدو أنها ـ وبدون أن نشعر ـ وخزته بشيء حاد في مؤخرته، ربما إبرة أو دبوس، إذ رأيته يهب فجأة إلى الأمام، ثم يتقلقل على الكنبة مبتعداً عنها وهو يضع يده على موضع الإصابة.

واحتراماً للضيف وكي لا تعطيه جدتي انطباعاً سيئاً عني لم تشخط في، اكتفت بالإشارة إلى خالي بأن يحملني إلى الداخل أنا وكل متعلقاتي فأسرعت إلى جدي محتمياً. وضع يده على رأسي ولم يرفعني إلى جانبه، أو يضعني في حجره كعادته. عرفت بالغريزة أن الموقف ليس في صالحي، فمكثت بجوار قدمه يداي متدليتان في حجري وهادئاً لا أتحرك حتى لا أثير حفيظة جدتي أكثر من ذلك.

قال خالي شمعون لجدي وجدتي، وهو يشير إلى الضيف:

ـ الأستاذ لبيب قطاوي.

ردا بصوت واحد:

- أهلا وسهلا.

أردف خالي:

- حضرته بيشتغل صراف في محل شملا ووالده عنده فابريكة بسطرمة في الفجالة.

تأنى لحظة وأضاف:

- وكان كلمني على كاميليا، هو عارفها من أيام ما كانت بتشتغل في صيدناوي قبل لما ...

وأحجم عن الكلام.

تداركته جدتي، تبسمت للأستاذ لبيب وسألته: إن كان يقرب لجماعة القطاوية الذين يسكنون في العباسية الشرقية.

قال: إنه لا يعرفهم.

قالت: إنها لا تقصد عائلة قطاوي باشا وإنما جماعة القطاوية الذين يعملون في سباكة الفضة.

لم يجب. رفع شفته السفلى وسكت، تنحنحت وسكتت هي الأخرى.

* * *

كان الأستاذ لبيب خفيف الشعر، راح الثلث الأمامي من شعره تقريباً رغم أنه لا يزال شاباً، أما قامته فقصيرة بشكل لافت، تزيد قليلا عن قامة الولد الكبير، لذا لم تأخذ قدماه راحتهما على الأرض. مقدمة الحذاء هي فقط التي كانت تصل إلى الكليم ثم تعود وترتفع بمقدار بوصة أو بوصتين تقريباً، اضطر الأستاذ لبيب إلى التزحزح قليلا إلى الأمام حتى هبطت قدماه على الأرض واستراحت.

نظر تجاهي فوجدني أنظر إليه، فأشاح بوجهه مقلباً عينيه في محتويات الشقة. ساعة الحائط، رأس ماكينة الخياطة، وصُرصْار من الحجم الصغير يهبط على الستارة المعلقة على

obeikandl.com

أول الطرقة المفضية إلى المطبخ متجهاً نحوه. غير أن أكثر شيء شد بصره هو صورة جدي المعلقة على الجدار المواجه له، دقق النظر فيها ثم هبط بعينيه إلى جدي القابع أسفل منها ويرمقه من طرف خفي هو الآخر. بدا الأستاذ لبيب لبرهة وكأنه مشغولٌ بعقد مقارنة بين الأصل والصورة، أرخى رأسه بعدها ولم تعد تصدر عنه أية حركة حتى حسبت أنه نام.

وقامت جدتي ..

نقرت على باب غرفتنا وكلمت أمي كلمتين من فتحة الباب، ثم أسرعت إلى المطبخ. قبل أن تغلق أمي الباب لمحتني وأنا أتطلع إليها بدهشة، تبسمت فرددت عليها بضحكة لها صوت. كان وجهها غريباً بعض الشيء وليس الذي اعتدت عليه. البشرة أكثر تألقاً بفعل البودرة والمساحيق، وأذناها الصغيرتان تحملان حلقاً كبير الحجم على هيئة نجمة سداسية الشكل.

أتت جدتي بصينية عليها دورق وزجاجتي مياه غازية وأكواب فارغة، أخذ الأستاذ لبيب الزجاجة ذات اللون الأحمر ومد خالي يده للزجاجة الثانية. كنت أحب اللون الأحمر، فهببت على قدميَّ دفعة واحدة وخطوت خطوة ثم انكفأت على وجهي. كانت هذه هي المحاولة الأولى للوقوف وجاءت عفواً. لم أعبأ بالسقطة أو أفكر في بكاء. انطلقت حبواً كما الريح نحو الضيف لأعاركه على الزجاجة. شاطت النار في جدتي وأنا أزداد تصميماً. بقيت تحت أقدام الرجل أشده من جوربه ليعطيني إياها. ربت على ظهري وتركها لي، فعدت إلى موقعي الأول أمام الكراكيب وهي تتدحرج أمامي وقد فرغ نصف محتواها على الكليم، وأسرع خالي إلى المطبخ وأحضر زجاجة ثانية.

قال وهو لا يزال واقفاً يرفع غطاء الزجاجة بفتاحة في يده:

- الأستاذ لبيب معرفه قديمة، فين! من أيام مدرسة الخديوي إسماعيل لما كنا ساكنين في الناحية التانية من شارع الخليج.

obeikandi.com

هز الأستاذ لبيب رأسه متبسما وخلع نظارته الطبية، نفخ في زجاجها عدة
مرات والتفت إلى خالي يسأله عن ورقة (بافرة) فأتى له بدفتر كامل، شد ورقتين من الدفتر وانهمك في تنظيف زجاج النظارة.

وقالت جدتي:

- فكرتني بأيام زمان يا شمعون، كانت أيام حلوة، صحيح العمارة كانت قديمة ومحدوفة لجوه إنما سكانها كان ربعهم يهود والعيشة مرتاحة، مش البلاوي اللي معانا هنا في العمارة!

قال جدي محاولا تغيير وجهة الحديث:

- يا ستي هنا ولا هناك آهي كلها عيشة وكلنا ولاد آدم وحوا، أهلا وسهلا يا أستاذ لبيب.

وأسرع خالي:

- الأستاذ لبيب عايز يتقدم لخطبة كاميليا.

تحسس جدي طرفي شاربه، وهو يقول بصوت هادئ رزين:

- ويا ترى حضرته عارف ظروفها؟

- ظروفها!

قالها الأستاذ لبيب بصوت خافت وهو يميل برأسه ناحية جدي، وكانت أمي قد فتحت باب غرفتها فرفع الجميع رؤوسهم نحوها، سلمت بايمائة خفيفة وجلست بين جدي وجدتي.

قالت على الفور وبصوت متوتر:

- أنا عارفه لبيب وشفته قبل كده بدال المرة عشرة وموافقة عليه، بس الولد؟ المهم الولد؟

تطلع إليها الأستاذ لبيب مستفسراً عن هذا الولد، ولمعت عيناه وهو يرمقني بنظرة خاطفة. وبعد برهة صمت نظر إلى خالي والقلق بادياً على وجهه، إلا أن جدتي صرفت الانتباه إليها لما أدخلت يدها أسفل شلتة الكنبة وأخرجت حُقَّ النشوق. لكزها جدي بمرفقه كي ترجئ الأمر فلم تكترث به وهمت بفتح الحُقِّ،

لكنها أعادته إلى موضعه على الفور عندما لمحت الأستاذ لبيب يتابع ما تفعل.

هرشت رأسها وقالت:

- وماله الولد؟ دا يتيم ومحتاج الرحمة، وإذا الرب أذن وتمم بخير شوية عندي وشوية عندكم.

ثم مالت نحو الأستاذ لبيب وأردفت:

- ولا إيه يا أستاذ؟

فرد بدهشة.

- الولد، واد إيه!!

- الواد جلال ابن كاميليا، المفعوص دهه ـ وأشارت إليَّ ـ شوف وشه عامل زي الملايكة إزاي.

قال وعيناه وأنفه تشمخان إلى أعلى:

- آه ..

- مش كده برضه يا ابني؟

امتقع وجه الأستاذ لبيب وأدرك أنه إن لم يتصد لجدتي فلا محالة سوف يشرب مقلباً، غير أن وسائل دفاعه لم تسعفه برد فوري فآثر الصمت، انحنى برأسه قليلا وازداد انتباهاً.

واسترسلت جدتي:

- الكام شهر الأولنيين ضروري هيكون عندي، وبعدها أمه تاخده وأنا جاهزة في أي وقت لما تحب تجيبه.

وتبعها خالي:

- طبعاً طبعاً لازم يكون عندك في الأول يا نينة علشان حتى الرضاعة.

ثم ابتلع ريقه وأضاف وعيناه تتحاشيان الأستاذ لبيب:

- وهو يقدر يسيب أم حسن لحد ما يتفطم.

بقي جدي صامتاً يراقب ما يجري ويتنقل بعينيه بين المتكلمين، سكنت المنشة في يده فجأة وقال بصوت قاطع:

- اسمع يا ابن الحلال، الولد مسلم وأبوه متوفي وأمه مش قادرة تستغنى عنه، يناسبك الوضع ده؟

انطلق لسان الأستاذ لبيب عالياً وهو ينتفض واقفاً:

- إيه! بتقول إيه!

ثم التفت إلى خالي:

- أنا مكنتش فاكر الحكاية كده ياسي شمعون! ما قلتليش ليه من الأول؟ مخلفة عيل دي لوحدها حكاية وإن اتبلعت تتبلع بالعافية. إنما مسلم! عايزني أربي عيل مسلم في بيتي! آدي اللي ناقص يا سيدنا!!

قال خالي وبوادر حدة تفوح من كلامه:

- فيه إيه يا لبيب؟! عاملها حكاية كده ليه! ما أنت عارف إن كل اللي بيجي من بطن يهودية يبقى يهودي.

وساد الصمت، حتى أنا الآخر كففت عن اللعب متابعاً ما يجري، ويبدو أن الأستاذ لبيب شعر بأنه خرج عن حدود اللياقة بما قال، فعاد إلى الكنبة والكل يتطلع إليه منتظراً بقية كلامه.

قال بهدوء وعيناه في عيني جدي:

- إذا كنت يا عمي بتسألني عن الوضع ده يناسبني ولا لأه؟ أنا بقول لأه وألف لأه، وأنا بصراحه عايز كاميليا وبس، خلوا الولد عندكم، كل واحد أعلم بحاله وأدرى بظروفه.

وغمغم محدثاً نفسه: يا خبر أسود دي كانت الماما تروح فيها!

قالت جدتي:

- حيلك يا أستاذ لبيب! حيلك حيلك الحكاية عايزه شوية تفكير، وبقولك

إنه في الأول حيفضل الواد معايا وفين بقى لحد ما يتفطم.

نظر إليها بضيق.

obeikandi.com

- لا رضاعة ولا فطام خلوا الولد عندكم، دي مسألة مبدأ لا فيها كلام ولا فصال.

- طب يا ابني شاور نفسك ورد علينا بعدين؟

قال وهو يجفف عرقه:

- أشاور نفسي! آه أشاور .. قوي قوي أشاور نفسي ..

وعندما خرج قالت جدتي لأمي بغضب:

- يعني كان لازم تجيبي سيرة الزفت ده أول ما تطلعي من الأوضة.

فردت عليها بحنق:

- كفايه بقى يا نينة، كفاية كفاية.

وأسرعت باكية إلى غرفتها، وأنا وراءها على أربع وأبكي لبكائها.

مال بخت أمي بسببي، فلم يرجع الأستاذ لبيب طبعاً ولا أي من خطابها اليهود الذين أتوا بعده، فما أن يراني واحد منهم إلا وينقلب الأمر في غير صالح أمي.

* * *

obeikandl.com

(٤)

كبرنا معاً أنا وبعض أولاد العمارة، حسن أخي في الرضاع، وفهمي ابن الأستاذ حسني باشكاتب المحكمة، وعلي ومصطفى الأخوين التوأم، ونادية بنت مدام السبكي.

نجحوا جميعاً في إقناع أمهاتهم بالنزول إلى الشارع، وأتوا إلى أمي.

وقفوا على بعد خطوات من الباب يلحون عليها كي أنزل معهم وهي ترفض، فلم يكن أحد من الأولاد يجرؤ على الدخول إلى شقتنا. كلامهم معنا كان من على الباب فقط ومن مسافة، فشقتنا ليست كأي شقة في العمارة وإنما كان لها دائماً وضعها الخاص، وأول ما يقترب منها الأولاد ـ الصغار منهم بالذات ـ كانت تنتابهم الرهبة وكأنهم مقدمين على عالم سري محفوف بالغموض. لكنه وعلى أي حال غموض جذاب يشوقهم لمعرفتنا على حقيقتنا! ماذا نأكل؟ وماذا نشرب والذي نلبسه أو نفعله عندما نكون بمعزل عن الناس؟ وما الذي في بيتنا وليس في بيوتهم ..

كانوا لا يستطيعون كبح جماح فضولهم أبداً، وعيونهم رغماً عنهم كانت تتسلل دائماً من فتحة الباب وهم يكلموننا لعلهم يلمحون شيئاً من أشيائنا المستورة.

المهم أن مشكلة نزولي مع الأولاد حلت، فجدي لم يكن قد خرج وبعد
مشاورات وأخذ ورد بينه وبين أمي وافقت.

* * *

اختارت لنا الأمهات أحد أيام الجمعة حيث تهدأ الحركة في الخارج، على أن يراقبوننا من الشرفات وكانت سلسلة التعليمات التي ألقيت علينا طويلة. حفظها كل واحد منا على أصابع يده وسمعها لأمه، أولها أن نمسك بأيدي بعضنا البعض ونمشي في تشكيل أشبه بالطابور وراء الست شوق زوجة البواب، وآخرها أن نصعد على الفور وبلا أي تلكؤ أول ما ينادون علينا.

كانت الساعة العاشرة صباحاً هي ساعة الصفر ..

تجمعنا كلنا على بسطة السلم المواجهة لشقة أم حسن التي في الدور الثاني، وعندما شرعنا في التحرك أمسك مصطفى بجلباب الست شوق كما أوصته أمه، فنهره أخوه منبها إياه إلى أن تصرفه هذا سوف يقلل من قدرنا أمام الناس في الشارع، وأيدناه كلنا مستهجنين من أخاه فعلته الطفولية!

كنا جادين ساعتها وحسبنا أننا أصبحنا رجالا بالفعل، لكننا انكشفنا أمام أنفسنا أول ما خرجنا من باب العمارة. أصابتنا رجفة من الوسع والحركة والأصوات العالية، ووقفنا خائفين كالكلاب الصغيرة التي تضع ذيولها بين أرجلها عندما تواجه موقفاً صعباً.

لم نكن نعرف أي اتجاه نسلك، وأول ما كنا نرى أولاداً كباراً مارين أمامنا نرجع تلقائياً عدة خطوات إلى الوراء حتى يبتعدوا. لم نفعل ذلك مع الرجال والنساء، كنا ننظر إليهم على أنهم مثل آبائنا وأمهاتنا، الأولاد هم الذين خشيناهم بالغريزة ومن أول نظرة.

تقدمتنا الست شوق ونحن وراءها كما الدجاج شابكين أيادينا في أيادي البعض، وننظر إلى أنفسنا غير مصدقين. تلكأنا أمام الفترينات واشترينا سميط وغريبة وكعب الغزال من فرن أبو عجوة، وانطلقنا كالسهام إلى المشروبات الغازية. فمنا من شرب السينالكو أو الأورانجو أو الإسباتس، ومنا من اكتفى بالمصاصة التي في يده، وعندما تحرش بنا صبي الخواجة كافورس تصدت له الست شوق وأوقفته عند حده.

لم تزد الجولة عن مئتي متر ثم عدنا مكرهين، بعد أن تبادلت امرأة البواب الإشارات مع أمهاتنا اللائي في الشرفات، أخذنا نصيح بعدها ونقفز على السلم وندبدب بأقدامنا من الفرحة كأننا عائدين من غزوة.

طلبت من أمي ثانية الخروج مع الأولاد؟

قالت: انتظر لباكر فغداً إجازة جدك وسوف تخرج معه.

* * *

كان اليوم يوم سبت وجدي جالس في موقعه المعتاد على الكنبة يقرأ في كتاب غلافه أسود منقوش بزخارف بارزة، وسعال جدتي يأتي متقطعاً من داخل غرفتها.

لم ينتبه إلينا لما تسحبنا وجلسنا قبالته.

سألت أمي عما يقرأ؟

قالت بصوت خافت: الكتاب المقدس، ووضعت إصبع السبابة على فمها المزموم مشيرة لي أن أسكت.

عندما كنت أسير مع أمي أو جدي في الشارع أو وأنا واقف في الشرفة، كنت أسمع الأولاد يحلفون بالقرآن. ملت برأسي نحوها وسألتها بصوت كالهمس: إن كان هو الذي يقرأه؟

سكتت برهة وقالت: لا، وطلبت مني إغلاق فمي.

يبدو أن جدي كان يسمعنا.

أرخى النظارة قليلا إلى أسفل وبدت تقطيبة على جبهته، وكأن شيئاً غريباً يطفو على وجهه. ولم تكف عيناه عن بعث رسائل مشفرة إلى أمي، والتي كان واضحاً أنها تعي ما يقال لها ووجهها يرد ويتكلم بدلا عن فمها المغلق. ظلا عدة لحظات يتحدثان بلغة لا أفهمها، لغة تخصهما وحدهما. ثم أغلق جدي الكتاب المقدس، وهب واقفاً وأخذني ونزل. مشى بي خطوات قليلة وتوقف أمام محل لعصير القصب، فخرج إلينا صاحبه المعلم حبيب وأعز صديق لجدي في الشارع.

كان نحيفاً منتصب العود والشارب، وفيه كبرياء وعزة نفس أهل الصعيد، وعمامته شالها بياضه ناصع ولها ربطة مهيبة ليست لأي عمامة في الشارع. وعندما يكون هناك نقص في عمال المحل، كان الرجل يشمر جلبابه حتى أعلى الفخذين ويلف هذا الجزء المشمور مخرجاً إياه من فتحة السيالة ويدخل إلى جوف المحل للمساعدة. تبدو ساقاه عندئذ بلون أفتح قليلا من بشرة وجهه، ومعوجتان بشكل لافت. ولا أعرف ما هذا الذي يطرأ على عمامته، تفقد وقارها ويبدو المعلم حبيب كشخص آخر غير الذي أراه جالساً ساقاً على ساق أمام المحل أو خلف البنك يحصل أسعار المشروبات.

نادى على مقعدين لنا وشوبين من عصير القصب، ثم حدق في وقال:

- مش هو ده برضه ابن المحروسة؟

هز جدي رأسه بالإيجاب.

قطب المعلم حبيب حاجبيه مردفاً:

- لسه برضه مفيش أخبار عن بسلامته جوزها؟

أومأ جدي صامتاً، وهو يحيط ذقنه بأصابع يده.

فقال المعلم حبيب:

obeikandl.com

- جرى إيه يا أبو إيزاك! وهو أنا كل ما افتح معاك الموضوع ده يركبك الهم وتسكت.

رفع جدي رأسه وقال بصوت خافت، وهو يتحسس شعري بيده:

- لسه! الغايب حجته معاه.

- وأهله يا عم زكي، مش كنتوا تسألوهم؟ دي الحكاية كده يبقى فيها إنا!

ثم أشاح بكفه في الهواء، وقال بعد أن رجع بعينيه من لفتة سريعة على مدخل المحل:

- الأصول كده يا عم زكي ولازم تعرفوا راسكم من رجليكم! دا غايب بقاله كتير. دي سنين مش حكاية شهر ولا اتنين!

قال جدي وأصابعه تجري على صفحة عنقي:

- يصح برضه.. يصح..

وطأطأ رأسه بكآبة إلى الأرض ينظر إلى فردتي حذائه الكالحتين، وأغمضت أنا عينيَّ برهة لأريحهما من وهج الشمس وانتابتني رغبة مفاجئة في أن أرجع إلى البيت وأنام.

نادى المعلم حبيب على أحد صبيانه، وطلب منه إحضار كوب الشاي الذي تركه على البنك. رشف منه رشفة، وقال لجدي وهو يطرق بأصابعه على فتحة علبة السجائر البلمونت مستخرجاً واحدة:

- مش يا ترى برضه عارفين أهله مين؟

- عارفين! إلا عارفين! بلد كده في ضواحي الجيزة.

- يعني عارفينها؟

- أمال! عارفينها ونص.

- طيب وساكت ليه ياعم زكي؟ دلوقت الأمور اختلفت والغيبة طالت.

ثم مال على جدي مكملا بصوت أخفض قليلا:

- إلا انتم طلعتم شهادة ميلاد لجلال؟
رد جدي بدهشة:
- شهادة ميلاد! أمال إيه يا معلم! دي طالعة من ساعتها، وعندي عقد جواز كاميليا من أبو جلال على يد مأذون ومتسجل ومكتوب فيه أسماء الشهود.
التقط جدي أنفاسه وأردف:
- إنت عارف الحاج محمود العطار آهو هو الشاهد الأول، ولبيب الصرماتي اللي فاتح على الناصية هو الشاهد التاني.
رجع المعلم حبيب بظهره قليلا إلى الوراء، وقال وهو يسوي شاربه:
- أما أمرك غريب يا عم زكي! طيب وليه السكات لحد دلوقتي؟ ماتروح تسأل عليه عند أهله؟
أجاب جدي بفزع:
- أنا!!
- أيوه انت ولا ابنك شمعون، ولا انت عايز أم جلال هيه اللي تروح لوحدها.
وقلت أنا بلهفة وجذعي يهب إلى الأمام:
- هو انت تعرف بابا يا عم حبيب؟
ربت على رأسي.
- أمال! أعرفه ونص وياما شرب عصير قصب من عندي هو والست والدتك.
لمعت عيناي.
- وشكله إيه يا عم حبيب؟!
نقر بأصابعه على جبهته، بدا كأنما يتذكر شيئاً بعيداً.
- شكله؟ شكله؟ شكله إيه يا واد يا حبيب؟ آه.. شكله شكل راجل محترم، طول بعرض وحاجه كده تفرح.

obeikandl.com

واستأذن لحظة لتصريف بعض أشغاله، فانتهزها جدي فرصة وانصرف وأنا في يده. لم يكمل الجولة التي وعدتني بها أمي، عاد بي إلى الشقة دون أن يفتح أحدُ منا فمه بكلمة.

* * *

في الليل سألت أمي عن أبي؟

قالت: ذهب إلى الحرب ولم يعد.

قلت: متى يعود؟

وبعد أخذ ورد وإلحاح في السؤال، قالت لي بشيء من الحدة: مات يا جلال. مات. مات.

شددت ذراعي من يدها وأسرعت إلى السرير وطفقت أبكي، فأتت ورائي تخرج رأسي المدفونة أسفل المخدة وتضعها في حجرها. وبعد أن خفت نوبة البكاء والشهيق رفعت رأسي إليها، فوجدت دمعاً ينسال على خديها.

احتضنا بعضنا وأنا أقول لها بصوت مبحوح: إن جدي لا يعلم بموت أبي! وسوف يذهب للسؤال عنه عند أهله.

قالت وعيناها ما تزالا تدمعان: جدك رجل كبير ولا يعرف ما يقول.

وبدأت التفكير في أبي الميت، غير أني كنت صغيراً ولا أعرف من أين أبدأ، وليس من مجيب على التساؤلات التي تملأ رأسي، لا أمي ولا جدي، أما خالي وجدتي فلم تكن لي بهما صلة.

كل ما استطعته هو صنع صورة له في مخيلتي. لكني حتى في هذا الأمر كنت مشوشاً، فبعد أن استقر على أنه كان طويلا وعريضاً كما قال المعلم حبيب، أعود وأتخيله سميناً أو قصيراً. ومرة له وجه مثل وجه جدي، وأحياناً كثيرة أصنع تقاطيعه بنفسي وأغيرها من وقت لآخر. فأمي سامحها الله لم تقل لي عنه إلا القليل ولا وصفته لي عندما طلبت منها ذلك. وأم حسن

كانت في حرج منها، وكلما سألتها عنه إما أن تغير الحديث أو يكون جوابها بالحساب .. الذي عرفته فقط أيامها، أن أبي كان طالباً في كلية الحقوق وأنه التقى بأمي مصادفة عندما ذهب لشراء قطعة صوف لأبيه من محل صيدناوي، وتحابا وتزوجا بعدها بشهرين في غرفة على سطوح إحدى عمارات الشارع.

وشيئاً فشيئاً أخذت أصنع عالماً يخصني، وتكون لي فيه أسرار.. وقد أسمع
كلمة عن أبي فأشيد منها معماراً في الخيال أهيم فيه، ليس فقط في أوقات قبل النوم حيث تهدأ الحركة في البيت، بل وأنا في عز انشغالي باللعب أو
محاطاً بالناس.

لاحظت أمي ذلك فكانت تشغلني بالحكايات ..

تحكي لي مرة عن شمشون الجبار، ومرة عن شاؤول الذي هزم أهل كنعان وأذاقهم الويل، أما الحكايتان اللتان كانت لا تمل من روايتهما أبدًا هما حكاية سيدنا موسى الذي فلق البحر بعصاه، والناس الذين أحرقوهم بالنار.

سألتها: من هم؟

قالت: أهلنا المساكين.

* * *

obeikandi.com

(٥)

أغلق جدي الكتاب المقدس، أول ما رآنا أنا وأمي بملابس الخروج. انتصب واقفاً وبيده الطربوش، وظلت جدتي محنية على كتاب قايضت عليه بائع الروبابيكيا بأربعة زجاجات فارغة. كتاب من كتب الجيب المترجمة عن امرأة سفاحة في الريف الإيطالي، أزهقت عشرين روحاً دون أن يطرف لها جفن. طلب منها جدي أن تعيد التفكير وتأتي معنا فمازال في الوقت متسع، قالت له: لا، دون أن ترفع عينيها من على الكتاب. وعلى مقربة منها كانت توجد صينية مملوءة على آخرها بالبصل، وبجوارها سكين لها نصل حاد وطويل.

سعل جدي سعلة خفيفة، وقال:

- يللا يللا يا إيفون، دا انتي هتنبسطي خالص من الفيلم.

التفتت إليه.

- فيلم إيه ده؟ فيه ضرب وخناقات يعني؟ حاجة كده من بتاعة فريد شوقي ومحمود المليجي؟

obeikandl.com

- ضرب إيه وخناقات إيه! دا فيلم هادي وحلو وكله مشاعر.
- يبقى مينفعنيش.

وشمرت أكمامها ثم أمسكت بالسكين، وأغلقنا نحن الباب عليها.

خرجنا من شارع عباس حيث نسكن بحي الظاهر، واخترقنا شارع الخليج المصري فالمذبح الانجليزي، وأنا أمسك بيد جدي مرة وبيد أمي مرة ثانية حتى وصلنا إلى شارع الجيش.

توقف بنا جدي أمام دراجة بصندوق أمامي مرسوم على أحد جانبيه صورة بالحجم الكبير لميكي ماوس وهو يغمز بعينه، وعلى الجانب الآخر صورة ثانية له ولكن بحجم أصغر وهو يغافل قطة كبيرة مغمضة العينين ويربط ساقيها الخلفيتين بحبل في يده.

كان صاحب الدراجة رجلا كبيراً في السن ولا يكف عن التلفت حوله، وأول ما يرى أطفالا مارين أمامه أو حتى على مسافة منه كان يصيح بأعلى صوته:

- الجيلاتي الساقع .. الساقع ..

أتأمله فيلحظني، ويعاود النداء بصوت أعلى مثيراً نشوتي:

- أيوه الساقع .. الساقع ..

اشترى لي جدي بسكوتة جيلاتي بستة مليمات.

لم أقنع بها، رددتها إلى الرجل وأنا أقول له محبطاً.

- دي صغيرة يا عم!

تبسم لي وأعطاني واحدة أخرى أكبر حجماً، وأَبَى أن يأخذ من جدي فرق الثمن.

ورغم ذلك قلت:

- وكمان لحسة ..

قلتها كما كان يقولها الأولاد الكبار لبائع الجيلاتي الذي يمر في شارعنا، ضحك جدي وانحنى عليَّ يقبلني ويقول:

- أيوه كده! ابني بصحيح، أهو كده الشغل يا جلجل.
توقفنا ثانية أمام مـقلة لب وأخـذنا قرطاسين مملوءين باللب والسوداني،
وبدأ جدي في التهيؤ لعبور الشارع. تشبثت بيده جيداً، فقد كان الترام بجلجلته المدوية آتياً من بعيد، وأنا أعمل له ألف حساب وأتطلع إليه دائماً بمهابة وخوف، منذ أن رأيته مرة يدهس دراجة تركها صاحبها سهواً على حافة القضيب ويدحرجها أمامه كالكرة.

* * *

كنا أمام باب السينما (سينما مصر) الساعة العاشرة بالضبط، والناس تتأهب للدخول. وفي المدخل لوحة خشبية كبيرة عليها ملصق تحتل أغلبه صورة لبطلة الفيلم ليلى مراد، وفي الفراغ المتبقي صورة لنجيب الريحاني وعلى رأسه طربوش وأخرى لأنور وجدي يرتدي بدلة طيار. أما على اليسار فتوجد لوحة أصغر قليلا عليها صورة لأولاد العم سام يرتدون القبعات والبنطلونات الجينز وفي أيديهم مسدسات يتقاتلون بها على امرأة نصف عارية، وفي خلفية الصورة واحدً منهم ملقى على الأرض وتسيل منه الدماء.

لم يدفع جدي سوى ثمن تذكرتين.

تمكن من إقناع العمال الذين على الباب بأني صغير ولا أفهم في الأفلام، وأننا عادة لا نشاهد إلا فيلم واحد ونترك بعدها مقاعدنا لإدارة السينما تتصرف فيها كما تشاء. لم يكن جمهور الحفلة الصباحية كبيراً والمقاعد نصفها خال تقريباً، فتسامحوا مع جدي وقال واحد منهم ضاحكاً : إنه يعرفنا وأن جدي يقول هذا الكلام دائماً ولا يشتري أكثر من تذكرتين مهما كان العدد الذي معه.

جلسنا أخيراً في الصالة نشاهد الجريدة الناطقة.

كانت كلها عن الثورة ورجال الثورة وإنجازات الثورة، وكلما ظهر الرئيس جمال عبد الناصر على الشاشة كانت الناس تصفق ولا يخلو الأمر من واحد يصفر عالياً ويصيح قائلا: " شد حيلك يا ريس "، فيرد عليه آخر: " أيوه كده يا أبو خالد .. آدي الهمة ". وافتتنت أنا الآخر بالرئيس ووجدت نفسي أصفق له مع الناس وألكز أمي بمرفقي كي تفعل مثلنا، وهي ترمقني بدهشة ثم تميل على أذن جدي. وعندما بدأ فيلم (غَزل البنات)، سكنت الحركة تماماً في السينما وتعلقت كل الأبصار بليلى مراد، وكان جدي متأثراً بأداء نجيب الريحاني.

مال على أمي وقال لها: إنه مسكين، مات فجأة. أهلكته جرعة علاج زائدة أعطوها له لما أصابه مرض التيفود، وحصد غيره العز والمال. وانفتح بعدها في الكلام عن ليلى مراد، قال: إنها من عائلة كلها فنانين، أخوها منير وأبوها زكي مراد يا سلام على صوته.

وتنهد ..

- يا سلام كمان لو سمعتي أغنية (حيرانة ليه) اللي لحنها لها الأستاذ داود حسني.

قالت: إنها لم تسمع من قبل بهذه الأغنية ولا بداود حسني.

هز رأسه ساخراً:

- لما أروح أبقى أقولك مين هو داود حسني!

تململ الجالسون خلفنا من الشوشرة التي يحدثها جدي، قال له واحد منهم:

- سمع هس.

وأضاف آخر بتأفف:

- صوتك شويه يا عم الحاج، احنا جايين نتفرج مش نتحاكى مع بعضنا، وبعدين يا عمنا لو سمحت اقلع الطربوش اللي على

راسك ده، دا أنا شويه آجي يمين وشويه آجي شمال علشان أشوف لما عنيه احولت.

التفت جدي ربع التفاتة إلى الوراء ثم خلع الطربوش ووضعه على حجره، ولم تصدر عنه أية همسة حتى انتهى الفيلم.

وعندما أضيئت أنوار الصالة للاستراحة قبل عرض الفيلم الأجنبي، تحجج بالصداع وخرجنا وأمي تعاتبه.

* * *

يوم السبت الماضي كانت معنا جدتي وشاهدنا كلنا فيلم (غرام وانتقام) لأنور وجدي وأسمهان، وأول ما بدأ الفيلم الأجنبي عملها جدي أيضاً.

قال: إن النظارة لا تسعفه في قراءة الترجمة.

وخرجنا وجدتي تعاركه طول الطريق، لأنه ضيع عليها مشاهدة فيلم من أفلام الأكشن التي تحبها.

أما السبت الذي قبله فخرجت أنا وهو وحدنا.

ركبنا الأتوبيس من شارع الجيش حتى شارع سبيل الخازندار حيث معبدنا. معبد (القرائين). زحام قليل على الباب ويهود كبار ينزلون من العربات الأمريكاني الكبيرة الفورد والكاديلاك والشيفورليه، يرتدون البلاطي الموهير والفساتين والبدلات الكحلي والرمادي وربطات العنق الفرنسية، وفي أيديهم أطفال صغار شعورهم مصففة وبأطقم ثياب تؤهلهم لاحتلال أغلفة مجلات الأزياء والأناقة. يمرقون من باب المعبد شامخي الرؤوس ولا ينظرون إلى أحد. والباقون غلابة مثلنا ممن يشترون ملابسهم من محلات الموسكي وشارع كلوت بك أو ربما من الحواري التي تباع فيها الملابس المستعملة،

وامرأتين أو ثلاثة من العجائز مازلن يحتفظن بنجمة داود على صدورهن.

أول ما بدأت الصلاة سلمني جدي إلى رجل من معارفه يعمل في نظافة المعبد، وضعني الرجل بين جمع من الأولاد يجلسون صامتين وأمامهم كاهن يتلو عليهم سفر الخروج. وعندما فرغ بدءوا كلهم في ترتيل مزامير داود من الذاكرة وبصوت له إيقاع. شعرت بالغربة أول الأمر إلا أني شيئاً فشيئاً بدأت أجاريهم، أحرك شفتيَّ وأهز رأسي كما يفعلون.

قال لي جدي ونحن في طريق العودة:

- انبسطت يا جلجل؟

أجبته بلا مبالاة:

- آه انبسطت، بس لو كنا رحنا السينما كان أحسن.

ربت على كتفي.

- السبت الجاي كلنا رايحين، حتى ماما لو مرضيتش تيجي معانا هنكتفها أنا وأنت بحبل كبير وهيلا بيلا وناخدها معانا.

انفجرت في الضحك وأنا أقول:

- ولو نامت في السينما زي المرة اللي فاتت نسيبها على الكرسي ونروح احنا على البيت.

- ضروري ضروري علشان تحرم.

باغتني بعدها:

- وحفظت حاجه من مزامير داود؟

- مين داود دا يا جدي؟

- داود!! سبحان الله يا جلال هو فيه حد ميعرفشي سيدنا داود، دا ملك من ملوكنا.

- ملك؟!

- مش ملك زي ملوك اليومين دول! حاجة أكبر بكتير، زي ما يكون كده نبي.

obeikandl.com

أردف بعدها:

- وزكريا كمان نبي، ويعقوب وإسحاق وموسى، كل دول أنبيا وغيرهم كتير.

ثم تأملني وأضاف بلهجة عتاب خفيفة:

- مش لازم تعرف الحاجات دي يا جلال!

سألته:

- وسيدنا محمد هو راخر نبي زيهم؟

انحنى بقامته نحوي، وقال بصوت أقرب إلى الهمس:

- بتقول مين! سيدنا محمد!

- أصل أنا بسمع الأولاد في الشارع بيقولوا سيدنا محمد! سيدنا محمد! وبيعملوا له ألف حساب وبيحلفوا بيه كمان.

شمخ برأسه قليلا إلى أعلى، ثم التفت إلـيَّ وهو يهرش أسفل شاربه.

- ولا تزعل يا أستاذ جلجل، ومحمد كمان نبي.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(٦)

كبرت قليلا، فأصبحت المختص بشراء الفول المدمس بدلا من امرأة البواب.

تناديني أمي بصوت عذب منغم:

- جلال، واد يا جلال، يا جلجل.

تظل تنادي عليَّ حتى أفتح عيني فأرى أشعة الشمس قد تسربت من بين فتحات شيش النافذة المغلق، وتمددت على الجدار المواجه لي.

وأتذكر الفول فأقفز في الحال من على الفراش، ثانية واحدة في الحمام ثم تضع لي أمي الشبشب في قدمي، وتشمر لي بنطال البيجامة ثلاث شمرات على الأقل. وساعات كانت تثنيه عدة ثنيات من عند موضع الأستك، أو ترفعه كله من الوسط حتى يصل إلى أول صدري. فجدي كانت له سياسة خاصة فيما يتعلق بملابسي، يشتريها دائماً بمقاسات أكبر لتكفيني من ثلاث إلى أربع سنوات، ولا يهم أن أبدو فيها كالعبيط.

تسلمني أمي السلطانية والقرش صاغ، وتنبه عليَّ أن أمشي على الرصيف، وألا أكلم أحداً، وبعد أن يفرغ عم محمد من وضع الفول أطلب منه مغرفة إضافية. في الأول كانت تشدني من أذني وهي تحفظني هذه التعليمات، توقفت بعد ذلك عن هذه العادة بعدما أثبت لها جدارتي بهذه المهمة.

obeikandl.com

الحق أن الأمر كان في بدايته مشكلة.
ففي أول يوم نزلت فيه حاملا السلطانية، فوجئت بزحام حول دكان الفول. حلقة أشبه بحدوة الحصان مؤلفة من صبيان وبنات، وناس بجلابيب أفرنجي وبيجامات، ونسوة وبوابين وسمكرية وأناس على كل لون. الكل يحيط بالطاولة الرخامية للمحل، والحال ما بين زغد وشتائم خفيفة وضرب بالكوع.
لم أجرؤ بالطبع على الاقتراب، وقفت كالتائه برهة طويلة بل وفكرت أن أعود. لا أعرف من أين أتتني الحمية مرة واحدة ودخلت في المعمعة أنا الآخر. أخذت أعافر بجسدي متخذاً من السلطانية ساتراً أحمي به رأسي، ومن لطف الله أن كانت المنطقة التي تسللت منها بعيدة عن الصراعات وضربات الأكتاف، فاستغللت نحافتي وقصر قامتي وفتحت لي ثغرة بين الأفخاذ والركب نفذت منها حتى وصلت إلى عم محمد. وكللت مهمتي بالنجاح عندما شببت على أمشاط قدمي ووضعت ذقني على حافة الطاولة الرخامية، لأجد نفسي وجهاً لوجه أمام قدرتي فول مهيبتين.
صحت بوجهي المدهوش وصوتي الرفيع:
- بقرش فول يا عم.
تأملني ثانية واحدة، وقال بصوت نافد الصبر:
- حط السلطانية على البنك وجنبها القرش.
ولما فعلت أردف بصوت متعجل:
- فول سادة ولا بزيت؟ والزيت طيب ولا حار؟ ولا الفول بالسمن؟
لم يكن هذا الأمر ضمن التعليمات التي تلقيتها فأدركت أني في ورطة، وكعادتي في مثل هذه المواقف قطعت النَفسَ والكلام، إكتفيت بالنظر ببلاهة في وجه عم محمد إلى أن التقطت عيناي شاربه فاستقرت عليه. كان والحق شارب

مسخرة ومركز جذب لطفل مثلي، محروقاً حرقاً طازجاً ومنكوشاً شعرة هنا وشعرة هناك، ومساحة لا يستهان بها ممسوحة تماماً وليس بها شعرة واحدة. والشارب كله ليس بنفس اللون الأسود، الأطراف خصوصاً تميل إلى اللون الذهبي القاتم. ربما أتت المشاكل التي يعاني منها هذا الشارب، من صهد نار الموقد ولسعات زيت الطعمية التي لا ترحم.

صاح في والرذاذ يتساقط من فمه:

- إنت ابن مين يا ولة؟!

لم يسألني أحدُ هذا السؤال من قبل فازداد ارتباكي، خاصة أنه لم تكن بذهني إجابة حاضرة له ولا أعرف حتى بقيه اسم أبي. إزدرت ريقي ولم تحد عيناي عن الشارب الذي إتخذته هدفاً لي، وهو يرميني بنظرات من نار ويستحثني بهزات من رأسه كي أنطق. وبصراحة خفت منه وأحسست بقطرة بول في سروالي، وما يدريني فقد يرميني بمغرفة الفول التي في يده، وإن لم يفعلها هو فأكيد سوف أتعرض للإهانة من الناس الذين شاطت فيهم النار من هذه العطلة.

شخط بشخونة:

- طب يللا يا ولة من هنا، يللا يللا وسع لغيرك.

كان لا بد أن أتصرف، فقلت بتلعثم:

- ابن الخواجه زكي الأرزع.

حملق في مليا.

- كده! تبقى إنت بقى ابن الست كاميليا، هو أنت جلال؟!

هززت رأسي بالإيجاب، فقال متبسماً:

- خلاص يبقى الفول سادة.

وبعد أن أفرغ الفول في السلطانية قلت بثقة:

- وكمان مغرفة؟

ضحك بصوت عال، وأزادني مغرفتين.

صرت بعدها أصغر وأعز زبون لديه، يلقاني ببشاشة وقبل أن أطلب المغرفة الإضافية كان يقول:

- وآدي مغرفة كمان ياسي جلجل، وسلم لي على عم زكي.

* * *

ظللت أروح وأجيء كل يوم بسلطانية الفول على نحو آلي، أمشي على الرصيف ولا أنحرف بوصة عن المسار الذي حددته لي أمي، إلى أن اكتشفت أن الأمر لا يتطلب كل هذه الحيطة، وشيئاً فشيئاً زالت رهبتي من الشارع وألفت ناسه. عم حسني الباشكاتب الذي يبدو دائماً وكأنه في عجلة من أمره، يخرج مسرعاً من باب العمارة فتنادي عليه زوجته من الشرفة، يتطلع إليها متأففاً وهو ينظر في ساعته.

تسأله : أين ترك لها مصروف البيت؟ أو تلقي له المنديل أو المنشة وعلبة السجائر.

تملأ الضحكة وجهه، ويقول وعيناه تتطلعان إلى زوجته:

- أي والله! العجلة من الشيطان.

ويلتفت فيجدني إلى جواره ممسكاً بالسلطانية، يشدني من أذني مداعباً.

- أيوه كده يا جلجل، شد حيلك.

لا ينتظر مني إجابة، يكمل سيره على نفس الوتيرة المسرعة، وامرأته واقفة تتبعه بنظراتها من أعلى حتى يواريه الشارع.

وصبي الحاج محمود العطار الذي يسحب مقعداً من مقلة اللب المجاورة، يجلس عليه حتى يأتوه بالمفتاح. وعم طلبه الكناس ببدلته الحكومية المهترئة ممسكاً بمقشه تعلو عصاها مستوى كتفه، يكنس دقيقة ويتلكأ عشرة.

وعند أول ناصية كنت أدخل إلى الشارع المجاور وسلطانية الفول الفارغة

في يدي، أو واضعاً إياها على رأسي كأنما هي قبعة. أتأمل واجهات المحلات، البقالة والخردوات وكشك السجائر أو حتى فرن الخبز، وعندما أصل إلى
محل الزهور ذي الفاترينة التي يسح منها الماء كالدموع أقف منبهراً.

وبدأت أنتبه إلى ما ينبعث من راديو قهوة أبو عوف، وأطرب لسماع الأغاني التي تذاع في أول الصباح.

أم كلثوم وهي تغني: " محلاك يا مصري وإنت على الدفة "، أو عندما تشرأب بعنقها وتقول: " مصر التي في خاطري وفي فمي .. أحبها من كل روحي ودمي ".

ومحمد قنديل الذي يغازل بصوته، ويقول: " جميل وأسمر "، أو يتودد ويقول " تلات سلامات .. يا واحشني تلات تيام .. بإيدي سلام وعيني سلام وقلبي سلام ".

والموسيقى، موسيقى أغنية " الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر فوق كيد المعتدي ".

ومحمد عبد الوهاب الذي يبكي فلسطين ويقول: " أخي جاوز الظالمون المدى .. فحق الجهاد وحق الفدا .. أخي .. أنتركهم يغصبون العروبة مجد الأبوة والسؤددا.. وليسوا بغير صليل السيوف يجيبون صوتاً لنا أو صدى "، لم أفهم وقتها شيئاً مما كان يقوله، غير أن قلبي كان يعرف هذه الأغنية من دون باقي الأغاني.

والذي سحرني أيامها ولا يزال باقياً في أذني إلى الآن، هو صوت الشيخ الدمنهوري. لم أكن أعرف أن ما يتلوه هو القرآن، انجذبت إليه دون أن أفهم ما يقول. خلبني. وتملكني إحساس بأن صاحب هذا الصوت رجل طيب، ويحبني مثلما أحبه، وبت أتلكأ أمام القهوة حتى يفرغ من القراءة، بل وبدأت أصنع له صورة

obeikandi.com

في مخيلتي. لحية بيضاء .. ووجه مستدير .. وعمامة أكبر من عمامة المعلم حبيب .. وعصا يتوكأ عليها وهو سائر ..

كنت لا أزال مشوشاً والدنيا كلها مبهمة عليَّ، فسألت أمي عما يقوله الشيخ الدمنهوري. لم تجب، وعندما زاد إلحاحي قالت بلا مبالاة:

- دمنهوري! ومين الدمنهوري ده؟!

- بسمعه في الراديو بتاع قهوة أبو عوف.

- وإيه اللي يخليك تتلطع جنب القهاوي، علشان كده بتغيب بالساعة كل ما ابعتك تجيب الفول.

- وأنا أعمل إيه ما هي القهوة في سكتي.

دفعتني بإصبع السبابة في ظهري.

- طيب يللا يا فالح علشان تفطر.

وقبل أن أغيب عن نظرها أردفت بحزم:

- وإياك تتلطع هنا ولا هنا تاني، أنا هقف لك في البلكونة من هنا ورايح.

وجدتي الجالسة على الكنبة، ترمقنا بوجه متجهم وتنخرب بعود كبريت في ضروسها التي ضربها السوس.

* * *

obeikandl.com

(٧)

كنا في طريق العودة من عند بائع الفول، أنا وحسن أخي في الرضاع. أخب في البيجامة الواسعة، والسلطانية على كف يدي أتمايل بها يميناً ويساراً دون أن تسقط منها حبة فول واحدة.

وأصيح مزهواً بنفسي:

- وسع وسع .. وسع لجلجل الخطير .. أيوه الخطير ..

ينظر حسن إليَّ متعجباً، فأتحداه أن يفعل مثلي. يهم المسكين بالمحاولة فترتعش السلطانية في يده، ويبدأ ماء الفول في الانسكاب على حوافها. يتوقف ويتابعني بغيظ .. معذور.. فثلاثة أشهر كاملة وأنا أشتري الفول وأتدرب على هذه المسألة، وهو ما يزال مستجداً لم ينزل الشارع إلا من يومين.

تذكرت حديثي مع أمي عن الشيخ الدمنهوري، فكففت عن اللعب وسألته:

قال باستغراب: ألا تعرفه؟

قلت: لا.

- دا كلام ربنا يا عبيط، دا القرآن! هو فيه حد مسلم ميعرفش القرآن!

- مسلم!!

- أيوه مسلم!

وجدني أحدق فيه، فأردف مدهوشاً:

obeikandl.com

- وهو انت يا خايب متعرفش انك مسلم؟ دا انت مسلم ونص، أمك وأهلها يا حفيظ يارب هما اللي يهود!

- يهود!!

- أيوه يهود! ويا رحمن يا رحيم عليهم يوم القيامة، على النار حدف.

استندت بظهري إلى جدار العمارة، وهو لا يزال يقول:

- وانت كمان لازم تصلي وتصوم وتحفض القرآن وإلا هتخش النار.

ولما رآني مشدوهاً مما يقول.

- أيوه هتخش النار، ومش كده وبس دا قبل ما يرموك في النار الملايكة هتنزل ضرب فيك بمرزبة حديد.

- أنا!!

- أمال إنت فاكر إيه، وكل مرزبة فيهم قد عمود النور ومولعة نار.

سألته عن أهلي؟

- أهلك! أهلك مين يا حبيبي!! دول أول ناس هتخش النار.

همست بصوت خائف:

- والماما!

- طبعاً.

- وجدي؟ جدي هو كمان هيدخل النار؟!

فأجاب بحسم:

- جدك! آه من جدك ده! دي الملايكة قاعدة مستنياه مخصوص، حاطين أيديهم على خدهم وبيقولوا إمتى بس يموت، وأول ما ييجي يوم القيامة هيجروا وراه ويمسكوه من رقبته وينزلوا فيه ضرب، ولما يتعبوا من الضرب وأيديهم توجعهم هيشيلوه من أيديه ورجليه وهيلا بيلا ويحدفوه في الولعة.

صحت فيه بغضب:

- إنت كداب وستين كداب، أبوك وأمك هما اللي هيخشوا النار.

- يعني منتش مصدقني؟!

- أيوه مشد مصدق يا كداب يا وسخ.

- يا عبيط هما اللي هيخشوا النار مش إنت، إنت مسلم وهتدخل الجنة زيك زينا.

قلت بصوت خافت:

- وعرفت منين؟

- عرفت! وهو أنا وحدي اللي عارف!! كل الناس عارفة، طب إسأل كده أي واحد ماشي في الشارع وهو يقولك.

ارتقيت الدرج بخطوات واهنة، وتركته يناكف مع امرأة البواب.

لحق بي على البسطة الثانية، يشدني من القميص ويقول لاهثاً:

- يللا نحط سلاطين الفول على جنب ونتسابق على السلم زي إمبارح.

لم أجب.

- هنشوف مين اللي يوصل السطح الأول.

وضعت قدمي على الدرجة التالية دون أن التفت إليه.

- يللا يللا بلاش غلاسة.

ووقف يتابعني باستغراب وأنا أصعد مبتعداً، حتى نقرت بأصابعي على شراعة الباب.

* * *

كانت جدتي تسترخي بكل جسدها على الكنبة وفي يدها مرآة صغيرة تقربها وتبعدها عن وجهها، وفي اليد الأخرى ملقاط تنتش به الشعيرات السوداء النابتة فوق شفتها العليا.

obeikandl.com

عندما كانت الجدة بنت صغيرة كان الأمر مجرد زغب خفيف، المشكلة أنه بمرور الزمن اشتد عود هذا الزغب وصار له قوام كقوام الشعر تماماً وتناثر بكثرة في هذا المكان المهم. لفت الجدة على المستوصفات، وعملت كل الوصفات البلدية ولا فائدة. لم ينجح أحدُ في السيطرة على هذا الزغب أو وقف نموه، والذي أزاد الأمر تعقيداً أنها لو غفلت عنه أسبوعاً واحداً يصبح مشروع شارب، فجن جنونها وأصبحت تلاحقه دائماً بالملقاط حتى لا تفضحها نسوة العمارة.

نحت جدتي الملقاط جانباً، واستدارت بوجهها نحوي.

- اتأخرت ليه يا سخام؟! أهو جدك نزل من غير فطار.

أجبتها بصوت جاف:

- وأنا هعمل إيه يعني، شوفوا حد غيري يجيب الفول، وبعدين جدي قايل من امبارح إنه نازل من بدري ومش هيفطر معانا.

أمسكتني أمي من ياقة البيجامة.

- عرفنا يا فالح، بس الكلام يكون مع جدتك بأدب.

لم أرد وأعطيتها السلطانية بلا اعتناء، فمالت منها وانسكب بعض ما فيها على صدر جلبابها.

صرخت في وجهي:

- مالك يا ولد! فيك إيه؟

قلت وأنا أشيح بيدي في وجهها:

- خلاص خلاص عرفت اللي بيقوله الشيخ الدمنهوري.

- عرفت إيه يا ناصح؟!

- بيقرا قرآن.

- ما يقرا اللي يقراه واحنا مالنا.

ووضعت يدها على رأسي، وهي تكمل بنبرة أقل حدة:

obeikandl.com

- وهـــو انت ماتعرفش يا حبيبي إننـا يهود وكتابنـا التوراه، احنا يا جلال
حاجة وهما حاجة تانية.
- يهود!
- أيوه يهود!!
- كلنا يهود؟
وبدأت جدتي في تشمير أكمامها وهي ترمقني بعينيها، أما أمي فأومأت رأسها بالإيجاب.
فقلت:
- كلنا كلنا؟
- أيوه أنا وجدك وخالك وخالتك، كلنا كلنا.
- وأنا كمان؟
لم تجب.
باغتها سؤالي فلم تعرف ما الذي تقوله.
اكتفت بالتحديق في وجهي، وبدا طيف ابتسامة يلوح على شفتيها. ابتسامة حائرة مرتبكة تخفي شيئاً وراءها، شيئاً ليس هيناً أو حتى صغيراً فملامح وجهها كلها كانت تقطع بأنها في أزمة، وأن رأسها فارغة تماماً من أية إجابة.
كنت صغيراً وقتها فلم أفهم سبب حيرتها، أو أرحمها.
انزلق مني لساني:
- أصل العيال بتقول إني مسلم وهدخل الجنة، وانتوا كلكم رايحين النار، كلكم كلكم جدتي وخالي وخالتي ...
وأخذت أعد أسمائهم على أصابع يدي، دون أن أنتبه إلى جدتي وهي تنزل من فوق الكنبة التي ورائي وتخطو بحذر شديد حتى أطبقت على عنقي. شُل تفكيري من المفاجأة وانكفأت بيدي على شلتة الكنبة المقابلة، ولم تدع هي لي بالطبع أية فرصة للإفلات، فبحركة خاطفة من حركات فريد شوقي

obeikandl.com

لــــفت كــوعي إلــى مـــا وراء ظهــري. أمـــا أذنـــي اليمنـــى - وبأكملها - فصارت في
قبضة يدها الأخرى، تلفها يميناً ويساراً وتشدني منها إلى أسفل حتى ركعت
على الكليم وعوائي يتردد في جنبات الشقة.

لـم توقـف جـدتي هجومهـا، إلا لمـا استسلمت وتمددت علـى ظهــري وكتفــاي يلامســان الأرض كمــا يحــدث فــي حلبــات المصــارعة. وعنـدها وضـعت ركبتهـا فـوق بطنـي، وبـدأت فـي الشتائم.

- عيـال مـين يـا وسـخ يـا ابـن الوسخ! نـار لمـا تلسعهم همـا وأهاليهم! ومالهم اليهود يـا حبيب أمك دول أسياد النـاس يـا ابـن الجزمة، وهو انت تطول!

وأمي تلف من هنـا ومـن الناحيـة الثانيـة، وتنـاور بكـل طاقتهـا لتفك أسري..

ستر الله هو الذي أنقذني.

سـمعنا طرقــاً علــى البــاب فرفعــت جــدتي ركبتهــا قلــيلا واستدارت نحو البـاب، وأصـابعها - وبـلا وعـي منهـا - ترتخـي شيئاً فشيئاً على شحمة أذني فانتهزت الفرصة وأفلت بجلدي.

همـت أمـي بفـتح البـاب فصـاحت فيهـا جـدتي بـألا تفعـل، وإلا أفلت ابن الكلب - تقصدني - وهرب إلى الشارع. كنت على بعد يـاردتين منهـا أتلفـت حـولي كـالفأر الفالـت لتـوه مـن المصـيدة، وأذني الحمراء كالدم تون من الألم، فصحت فيها بكل عزمي:

- أنا مش يهودي ومش هدخل النار زيك يا أم منقار.

كنـت أعـرف أن هـذا هـو اسـمها الكـودي الـذي تتداولـه نسـوة العمارة سراً، ومن غيظي انطلق على لساني رغماً عني، فقامت عليَّ بفردة الشبشب وأنا أجري أمامها.

- جاك خابط في نافوخك إنت واللي جابك، وكمان بتقل أدبك! أنا أم منقار يا ابن البرطوشة! هي دي آخرة الرباية والمصاريف.

وأمي في ذيلنا.

- مش كده يا ماما، هتعملي عقلك بعقله!

ويرتفع صوتها:

- قلنا لك يا ماما أنا والبابا قبل كده ميت مره ملكيش دعوة بالموضوع
ده!

- مليش دعوة إزاي! قليل الأدب وعايز يتربى مش سامعة بيقول إيه، وكمان لازم يعرف إنه حتة من أمه اللي ولدته وشايلة همه. يبقى زيه زيها. إن كانت يهودية يبقى يهودي، وإن كانت عفريب أزرق يبقى هو كمان عفريت أزرق.

كنا نجري وراء بعضنا من مكان إلى آخر، ولم تنته المعركة إلا لما احتميت بالبلكونة. خافت جدتي من الفضيحة لو رآها الناس في الشارع على هذا النحو، فوقفت على باب البلكونة وقذفتني بفردة شبشبها في وجهي.

* * *

حسم جدي الأمر عندما أتى في المساء.

انتحى بأمي وجدتي في غرفته وأغلقوا الباب عليهم، وأنا ممدد على الفراش عيناي متورمتان وخرابيش جدتي لا تزال على وجهي وعنقي. كانت أصواتهم تعلو أحياناً وأسمع جدي يحذر جدتي بصوت قاطع من مغبة ما فعلت، وأن ذلك سوف يفسد كل شيء عندما أذهب مع أمي لرؤية أهل أبي.

خرج جدي بعدها وهما وراءه، قال بوجه جاد:

obeikandi.com

- يا جلال يا ابني إنت مسلم، شهادة الميلاد بتاعتك مكتوب فيها كده، الشهادة عندي يا ابني على سبيل الأمانة ولما تكبر هسلمهالك.

ابتلع ريقه وأردف:

- يا ابني موسى ومحمد إخوة، واحنا هنربيك ونعلمك ونكبرك وإنت حر بعدها، عايز تدخل في دينا أهلا وسهلا وألف مرحب بيك، عايز تفضل مسلم إنت حر واحنا برضه أهلك.

وطلب مني أن أنهض وأقبل يد جدتي ففعلت، ربتت هي الأخرى على
رأسي وقبلتني.

* * *

obeikandl.com

(٨)

خرجنا أنا وجدي ذات مساء للعزاء ..

رأيته جالساً على الكنبة بملابس الخروج، وبيده فرشاة ينظف بها حواف الطربوش.

سألته أن آتي معه، فقال: إنه ذاهب للعزاء واقترح عليَّ اللعب مع الأولاد على بسطة السلم.

أعدت الطلب فصمم على الرفض، ولما ازداد إلحاحي قال بصوت مرتفع:

ـ وبعدين يا جلال قلت لك لأه يعني لأه، المطرح ده يا ابني مش للصغار، استنى هنا مع الماما ولا روح إلعب مع العيال.

بدأت في استخدام أول أسلحتي. أشحت بيدي في الهواء غاضباً، وأسرعت إلى الغرفة وأنا أصيح بصوت تسري فيه رعشة الانفعال:

ـ أنا مبحبكش يا وحش، خلاص خلاص ومن أول دلوقت مش هتكلم معاك تاني.

وأغلقت الباب بشدة وتمددت على السرير وشددت الكوفرتة حتى رأسي، ولم أغفل بالطبع عن تدبير ممر صغير بين ثناياها لمتابعة ما يجري حولي.

هما دقيقتان فقط وسمعت صرير الباب، وجدي يطل منه.

obeikandl.com

ـ هو الأستاذ جلجل زعلان ليه؟ وهو جده يقدر يخرج من غيره.

أدعيت النوم وكأني لا أسمع فتبسم، أغاظني تبسمه، أحببت أن أؤكد له أن الأمر ليس كما يظن وأنا نائم بالفعل، فبدأت في الشخير بصوت عال. أصبحت ابتسامة جدي ضحكة، وجلس على حافة السرير. أدخل يده من أسفل الكوفرتة يدغدغني في باطن قدمي وأنا أتملص منه، فينتقل إلى بطني ثم تحت إبطي إلى أن هببت ضاحكاً ووجهه يتأملني.

أسرعت كالبرق إلى الشماعة وخطفت قميصي المتدلي عليها فألبسني إياه، وانثنى على ركبته ووضعه في الشورت وشد الحمالات عليه. ولم يسلم الأمر من قرصة في جنبي على سبيل المداعبة أو شدة سريعة لحلمة أذني، وأنا أتلوى وأبادله ذلك بقبضات في بطنه وصدره وعضة في كتفه إن تمكنت.

* * *

خرجنا وراء بعضنا وأمي توصيني ألا أترك يد جدي أبداً فالدنيا ليل، أما جدتي فكانت تلاحقنا بنظراتها متأففة من هذا الدلع الماسخ.

عبرنا شارع الخليج المصري، ومن شارع إلى آخر حتى وصلنا إلى سرادق مهيب بأول شارع النزهة من ناحية ميدان الجيش. كان السرادق للعزاء في والدة تاجر كبير من تجار المانيفاتورة بشارع الأزهر، يضع جدي فاترينته أمام محله.

كان الرجل على الباب يتلقى الناس، شد على يد جدي بمحبة والتفت إليَّ مستغرباً. علت صفرة خفيفة على وجه جدي، وطأطأ برأسه وهو يتأسف ويقول بصوت خفيض:

ـ متآخذنيش يا سي الحاج، أنا عارف إنه عزا ومفيش مطرح للصغار، لكن أعمل إيه الواد شبط فيه، أنا محقوق لك يا سي الحاج.

ونظر إليَّ لائماً:

- يعني كان لازم تشبط فيه يا جلال وتوقعني في حرج مع عمك الحاج.

لم تبد على الرجل أية ردة فعل لكلام جدي. انشغل بي. ربت على كتفي

ومال برأسه يسألني عن اسمي، تشجع جدي وأجاب بدلاً عني:

- آهو هو ده جلال ابن بنتي اللي حكيت لحضرتك عنه.

تأملني لحظة ثم أدخل يده في عبه فتدلى كم الجلباب الواسع إلى مرفقه، وبان ذراعه بضا ممتلئاً يكسوه شعر مائل إلى الصفرة وبإصبعه خاتم كبير بفص أزرق. أخرج ورقه بخمسين قرشاً ومد يده بها إليَّ، رجعت خطوة للوراء من الخجل وأنا أنظر لجدي الذي بدا عليه الرضا والجـِد في آن واحد، وقال لي بصوت آمر وهو يهز رأسه وكف يده:

- خدها يا جلال وبوس إيد عمك الحاج، دا احنا عايشين في حماه.

أشار الرجل إلى مقعدين بعيداً عن الأرائك الموضوعة في صدارة السرادق فجلسنا عليهما، وهمس جدي في أذني مكرراً ما قاله في الطريق عشرات المرات، بأن أظل ساكتاً ولا أفتح فمي بكلمة واحدة. وكنت أتابعه وهو ينتفض من فوق مقعده، كلما مر أمامنا تاجر من تجار الأزهر الذين يعرفهم. كان جدي ينحني له برأسه قليلا، ويظل يعلو ويهبط بيديه من أعلى جبهته حتى صدره إلى أن يمضي من أمامه. كانوا هم الآخرون يردون عليه بمودة، ومنهم من كان يربت على كتفه أو ينتبه إلى وجودي معه فيرمقني بنظرة ودودة.

* * *

كان الشيخ عبد الباسط عبد الصمد هو المقرئ، وأول ما تنحنح وقال " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله

الرحمن الرحيم "، تأهب الناس للسماع وكان بعضهم يشير للآخرين وللخدم حاملي صواني القهوة والماء البارد بأن يلتزموا الصمت، حتى الداخلين من باب السرادق كانوا يمشون على أطراف أصابعهم ويسرعون بالجلوس على أقرب مقعد، وأمسك جدي هو الآخر بمرفقي محذراً أن يصدر عني أي نَفسَ.

آية .. فالثانية .. وحل سكوت عميق، ليس في السرادق وحده بل وخفتت
أيضاً الأصوات الآتية من الدكاكين والمقاهي والبيوت التي في أول الشارع وعند الميدان. وكان بالقرب منا رجل يهب واقفاً مرة واحدة عند كل قفلة من القفلات المتقنة التي يجيدها الشيخ، ويدعو له بصوت مسموع أن يطيل الله في عمره، والناس الذين حولنا يؤمنون على ما يقول. جدي نفسه كان متأثراً بالقراءة ويهز رأسه مستمتعاً، وإذا التقت أعيننا كان يحتويني بنظراته وعلى وجهه مسحة حنو حزينة.

أخذنا كلنا الانفعال ونشوة كأنها السحر، ووجدت نفسي أنسل شيئاً فشيئاً عمن حولي وقلبي يحتشد برهبة لم أعرفها من قبل، وكأن شيئاً لا يرى يأخذني معه إلى عالم آخر غير العالم الذي أنا فيه. شيء ينسال في شراييني، يغمرني من أولي لآخري، من يميني ويساري .. يرخيني .. يهدهدني .. يخدرني .. يذيبني .. يخفف من جسدي .. يضعفني ويقويني .. يسعدني ويشقيني .. وكأن دمعة تتكون عند حافة جفني وحرارة تجتاح مقلتي، وانطلقت في بكاء عميق، بكاء له ترجيع وشهقات، وبصوت عال أثار انتباه المعزين.

قام جدي مفزوعاً وهو يتلفت حوله، كان خائفاً من أن يكون صاحب العزاء قد رآنا، ولما اطمأن على انشغاله مع وفد من

المعزين الكبار، خطفني من فوق المقعد وحملني مهرولا إلى الخارج.

كان بالميدان محل لعصير القصب ..

أخذني إليه وطس وجهي بكوب ماء وطلب لي شوب عصير، فاكتفيت منه برشفة واحدة. لم يشأ جدي إرجاع الشوب كاملا على هذا النحو فأكمل هو الباقي، وحملني على صدره عائداً إلى البيت.

كنت أسمع دقات قلبه .. كانت عالية وأسرع من المعتاد .. انشغلت بها عما ألم بي حتى أني كنت أعدها على أصابع يدي كما كانت تعلمني أمي،

ولم يكف هو عن الطبطبة على ظهري.

غير أن نوبة البكاء عاودتني ثانية ونحن بالقرب من المذبح الانجليزي، ولكن بنهنهة هذه المرة مع شرقة في الزور. ارتكن جدي بظهره على السور وأخذ يقرأ على رأسي من الكتاب المقدس وتعاويذ كثيرة كان يحفظها، وعندما هدأت قلت له بصوت مبحوح:

ـ أنا بحبك قوي يا جدي، عايزك تبقى مسلم علشان متدخلش النار.

قبلني في وجنتي وسكت، فقلت:

ـ خلاص أنا هبقى يهودي زيي زيك.

أحسست بخده يلامس خدي ويداه تطوقاني بضغطة خفيفة، ويبدو أني نمت فلم أشعر به وهو يصعد بي السلم ويدخل إلى الشقة.

رأيت ليلتها حلماً مرعباً:

كأن أمي تسير بقميص نوم شفاف وقصير في شارع خال من الجانبين، والدنيا كلها هس هس .. لا نَفسَ أو شيء يهمس أو يتحرك على طول البصر، لا سيارة ولا بشر أو حتى شيء

فيه الروح .. الناس كانوا هناك .. في أعلى .. صامتين ويحدقون من فتحات الشبابيك في جسدها الذي بدا أكثره عاريا، وأنا أعدو خلفها بكل عزمي، ورغم أني كنت أنهج وأزيد من عدوي إلا أن المسافة التي بيننا كانت تزيد ولا تنقص .. هدني التعب وكأني أهوي على الأرض، وهي تكاد تغيب عن عيني، وفجأة سمعت صلصلة عالية ومتواصلة آتية من مكان قريب، قبل أن أتبين مصدر الصوت، كان تراماً من عربة واحدة قد خرج عليها من شارع جانبي .. دهسها وولى بعيداً .. انخلع قلبي حتى أني كنت أسمع دقاته وأنا نائم، وأحسست أن العجلات الحديدية للترام تطأ عظامي أنا وليس عظامها، وقمت من النوم مفزوعاً والصلصلة ما تزال ترن في أذني.

كانت ترقد إلى جانبي ..

لمستها بأصابعي وقلبي مازال يدق .. الذراع .. الكتف .. العنق والوجه ..

وشيئاً فشيئاً أدركت أنه مجرد حلم وأمي لم يأكلها الترام، قمت إلى مفتاح الكهرباء وأضأت الغرفة، لم تنتبه إلى حركتي واستمرت على سباتها .. وجهها ساكن وشعرها الطويل ينسدل على الوسادة، وبدت رموشها أكثر طولا وهي مغمضة العينين، ولفت نظري أن قميص النوم الذي ترتديه هو نفسه الذي رأيته في الحلم.

عدت إلى الفراش والتصقت بها مستمتعاً بالدفء الذي يشع من أكتافها العارية، فاستدارت إلى واحتوتني بذراعيها وعيناها لا تزال مغمضتين.

* * *

(٩)

استمرت جدتي في شرب النبيذ، رغم الوعود التي قطعتها على نفسها بالإقلاع عنه.

تقول لها أمي بعتاب غاضب: كفى فضائح فنسوة العمارة يتشممن رائحة فمك ويتغامزن عليكِ.

تمتعض جدتي وتسبهن بأمهاتهن وتقول: إنهن لسن أحسن حالا منها فأزواجهن يحششون طول الليل على المقاهي، وهن أنفسهن لا يتورعن عن أكل الأفيون لو واتتهن الفرصة.

- طب حتى داري القزازة من وش الستات لما ييجوا!

- إنتي قصدك لما دخلت علينا اسمها إيه دي على سهوة؟

وهرشت مقدمة رأسها مردفة:

- أيوه أيوه افتكرت، قصدك على السخامة مرات الباشكاتب جاها ضربة في صرصور ودنها.

- أيوه ياست ماما هو دا اللي أنا قصدي عليه.

تضيف أمي وحاجباها يرتفعان قليلا:

- وكمان اللطشة وتقل اللسان لما كانت أم حسن عندنا من يومين، ولا
ساعة لما جم يسألوا عن صحة البابا.

- لطشه مين يا قليلة الأدب، لطشه لما تلطش نافوخك إنتي وابنك في ساعة واحدة.

obeikandl.com

ولولا أن أمي عرفت حدودها وأسرعت إلى غرفتها، لكانت جدتي قذفتها بمقص الخياطة الراقد في حجرها.

* * *

لم يحسم الأمر إلا جدي.

كان راجعاً من الشغل في يوم من أيام صيف بشنس، حيث الحرارة والزمتة تفريان البدن. بوادر الأنفلونزا على وجهه ومهدود من المناهدة مع الزبائن طول النهار. أسرعت وأخذت منه الحقيبة الجلدية والطربوش، ودخل هو إلى غرفته، أما نحن فمكثنا في انتظاره والعشاء أمامنا. صياحه هو الذي أتانا. عرفنا فيما بعد أنه وجد نبيذاً مسكوباً على الفراش، فيبدو أن جدتي تسلطنت وهي جالسة في غرفتها بعد الغداء وأخذت تتبادل الأنخاب مع نفسها، تعب كأساً في جوفها وتلقي بالآخر على ملائة السرير.

خرج جدي علينا بالفانلة أم حمالات على بنطال البيجامة وكيس المخدة في يده، ألقاه في وجه جدتي وهو يصرخ فيها:

- حتى دا كمان غرقان زفت!!

ولم تسكت جدتي بالطبع.

كانت ترد عليه الكلمة بواحدة مثلها وأحياناً بثلاثة فازداد هياجه، وكمشت أنا متوتراً خائفاً أتابعه وهو يلف في الشقة باحثاً عن زجاجات النبيذ. جسده نحيل ليس فيه دهن أو حتى فتفوتة عضل، عروق في عروق ووجهه من الحنق أصفر كحبة الليمون. أما صوته فكان أكثر الأشياء غرابة في الموضوع، لم أتخيل أبداً أن عروق رقبته قادرة على الانتفاخ إلى هذا الحد وحنجرته تستطيع إخراج كل هذا الصوت العالي.

كان يجثو على ركبتيه أمام الكنبة ويدخل بجسده كله أسفل سرير

جدتي، وفتش غرفتنا ودولاب المطبخ والصندرة وباقي مخابئ جدتي. أتى بعشر زجاجات كانت مخزنة في كرتونة انتظاراً لمرور عم يونس بائع الروبابيكيا، وعثر في سبت الغسيل على زجاجة ملفوفة في بنطاله ما يزال بها رشفتين أو ثلاثة.

أكيد هذه الملعونة هي سبب المشكلة.

دشها جدي بضربة واحدة على بلاط الحمام، وفتح الباب منادياً عم إدريس كي يتصرف في كرتونة الفوارغ. أما جدتي فانزوت في طرف الكنبة، وأخرجت منديلا من عبها تمسح به دموعها.

لم أر جدي غاضباً على هذا النحو، لا قبل هذه المرة ولا بعدها، لكن والحمد لله تابت جدتي من يومها عن شرب النبيذ.

* * *

بقى جدي وجدتي متخاصمين شهراً كاملا، لم يتصالحا إلا بعدها بأشهر حيث كنا جالسين في الشرفة وأمامنا اللب والترمس والفول السوداني. لازلت أذكر البيجامة الرمادي ذات الخطوط داكنة الزرقة التي كنت أرتديها في هذه الليلة، وجدي يدخل علينا ويداه تخفيان لفافتين وراء ظهره.

أسرعت إليه فقال: هذه اللفة لا تخصك، ووضعها أمام جدتي. فتحتها وأخرجت منها زجاجة بيرة من الحجم الكبير وشوبين طويلين ماركة (زوتوس)، تبسمت له ومن يومها انتقلت رسمياً إلى شرب البيرة.

حوت اللفة الثانية حصاناً عليه فارس يشهر سيفه عالياً، كانت الأيام وقتها أيام مولد ويبدو أن جدي أحس بي وأنا أتطلع إلى الأولاد والبنات، وهم يسيرون بصحبة آبائهم حاملين العرائس والأحصنة الحلاوة.

ظللت برهة أصيح وأقفز على بلاط الشرفة وأمي تتابعني بفرحة، ولم تجد جدتي بأساً في ذلك إلا أنها طلبت من أمي أن أسرع بأكل الحصان حتى لا
يأتي بالنمل إلى الشقة.

لم تقف مفاجآت جدي عند هذا الحد، سأل أمي إن كانت أخبرتني عن سفرنا باكر.

تطلعت إليها مشدوهاً، فقالت: إننا سوف نذهب سوياً لرؤية أهل أبيك.

قلت لها: كلنا كلنا.

قالت: لا، أنا وأنت فقط.

كان وجهها غريباً وهي تكلمني، ورغوة رقيقة تخيم على بياض عينيها. حانت في بالي لحظتها كل الصور التي صنعتها في خيالي لأبي، وتاهت أمي هي الأخرى بنظراتها حتى أنها لم تنتبه إلى جدتي وهي تقول لها:

- إوعي ترجعي وإيدك فاضية، الولد مصاريفه كتيرة.

ولا لجدي الذي طلب من جدتي ألا تثقل عليها، فهي الأدرى بمصلحة ابنها.

* * *

obeikandl.com

(١٠)

وصلنا بشق الأنفس إلى ميدان الكيت كات ..

لم تشأ أمي ركوب سيارات الأجرة التي ينادون عليها بالنفر، قالت: سيارات الحكومة أرخص وأأمن. أشار عليها أولاد الحلال بباص عجوز يتصدر موقف الأرياف، أفهموها أنه السريع والمباشر من بين الباصات المتوجهة إلى المنصورية، وعادة ما يقضي المسافة في نصف ساعة.

كانت سلالم الباص عالية ومتآكلة، ولولا أن أمي كانت تقبض على يدي بشدة لانزلقت من عليها. الحمد لله. صعدنا. وأول من شاهدناه هو السائق.

كان جالساً على مقعده ورأسه مدلاة على عجلة القيادة ويحيطها بذراعيه، لم تكن المسألة مجرد نوم من النوم العادي البسيط كالذي ينتاب عم إدريس بواب عمارتنا أحياناً وهو جالس على دكته، وإنما نوم غير عادي وبشخير. بل وفوق ذلك كان المسكين يهمهم بصوت مكتوم بين دورات الشخير وكوعيه يرتجفان بحركة تشنجية، لا شك في أنه كان يعاني من كابوس أو يتشاجر مع أحد في الحلم.

وقفت أحدق فيه فشدتني أمي من ذراعي، وأجلستني إلى جوراها على الأريكة التي خلفه.

أمي كانت مشدودة وكأنها خائفة وتعمل ألف حساب لهذا المشوار، أما أنا ففي واد آخر. مشغول بالسائق وبالناس ذي الجلابيب والطواقي الذين يصعدون تباعاً إلى الباص، والمشنات والقفف والسلال التي فضل أصحابها إدخالها من النوافذ وليس من الباب، وبكل جديد أراه. ولما بدأت في طرح الأسئلة عليها، مالت نحوي واستحلفتني بالله أن أقفل فمي.

* * *

وصعد المحصل.

ألقى نظرة عابرة على الركاب، ثم نزع المنديل الذي يحيط بياقة سترته الميري منفضاً إياه في وجوهنا. والتفت إلى السائق، زغده زغدين في كتفه فاستيقظ واستدار نحونا. كانت جبهته حمراء قليلا، والخطوط التي على المقود منطبعة عليها. تثاءب عدة مرات وانحنى على قلة بجواره، طس وجهه بحفنة ماء منها، وأخذ يدندن بأغنية شعبية (لشكوكو) كانت منتشرة في ذلك الوقت. كنت أتابعه فلاحظ ذلك، تبسم لي وأدار محرك السيارة.

الحق أنه كان سائق رائق البال، ومتمعن في أصول السياقة بطرق الأرياف. أمسك بالمقود منطلقاً بسرعة تزيد - بهمسة - عن سرعة الدراجة الهوائية، وكان يقف لكل من يشير له والوقفة بعشر دقائق. بل كان يقف أحياناً من تلقاء نفسه، مرة أمام نصبة شاي فأتى له صاحبها بكوب ساخن وأخذ الفارغ، ومرة بلا سبب.

وبعد أن عبر المزلقان ركن بنا أمام عشة بجوار مطار إمبابة ونادى بأعلى صوته، فخرج إليه رجل له هيئة المجرمين، بنطاله مشمور وفي الأعلى فانلة داخلية بحمالات وشعر يده كثيفاً كما القرود. نزل إليه السائق وعاتبه على الدجاجتين اللتين اشتراهما منه بالأمس ونفقتا قبل أن يطلع النهار. وكلمة في

كلمة بدأت المشاحنة، وكاد أن ينشب بينهما عراك وتماسك بالأيدي لولا أن السائق عاد إلى مقعده وبحركة فجائية تمخض وألقى ببصقة على الرجل من النافذة، وانطلق بنا كالريح والآخر يعدو خلف الباص ملاحقاً السائق بالشتائم وسباب الدين.

كنا بفعل السرعة المباغتة نترجرج في الباص ونصطدم بالمقاعد أو ببعضنا، أخذتني أمي على حجرها وصرخت في السائق مراراً أن يتمهل. لم يعرها أي اهتمام، لكنه بعد أن قطع شوطاً طويلا وأدرك أنه في الأمان عاد إلى سرعته العادية.

الغريب أن أحداً من الركاب لم يكن منزعجاً أو حتى قلقاً، والأمور بالنسبة لهم تمضي في سيرها الطبيعي. ولم نر أي نشاط للمحصل إلا بعد أن تحركنا بزمن، أخذ تعسيلة بجوار شباك مفتوح لم ينتبه فيها إلى ما جرى مع السائق، ولم يقم منها إلا بعد أن غادرنا الكيت كات والعمران المحيط به ودخلنا في طريق غير ممهد تحوطه الزراعة من الجانبين. سحب قلم كوبيا صغير من خلف أذنه ودق بمؤخرته مرتين على لوح التذاكر الذي بيده، لتبدأ المناكفات مع ثلاثة من الركاب أنفقوا كل فلوسهم في البندر وليس في جيوبهم ولا حتى القرشين صاغ ثمن التذكرة.

وبعد مدة ـ ساعة ونصف تقريباً ـ بدت في الأفق ترعة كبيرة تحيط بها أشجار كافور عالية، تلوح من ورائها عشش صغيرة مقامة على أطراف الحقول. تثاءب المحصل وضرب على صدره مخرجاً صوتاً كالتأوه والزفير العميق، ثم نقر على اللوح الزجاجي الذي يفصل السائق عن الركاب، وصاح بصوت عال:

ـ المنصورية المنصورية، يللا يا حاج، وإنتي يا ست، اللي نايم هناك!

ولما لم يجد ردة الفعل التي توقعها أو بادرة تفيد بأن واحداً من الركاب يتجهز للنزول، بان الضيق على وجهه وأعاد التنبيه

- هذه المرة - بخبطات قوية من كف يده على لوح الزجاج ثم سار في ممر السيارة يتلفت يميناً وشمالا. نظر بحنق نحو رجلين كانا في وضع فريد، رأس الأول مرتخية تماماً على كتف جاره، وفي المقابل وضع الجار رأسه على الرأس التي تتوسد كتفه، والاثنان في نوم عميق، وربما يحلمان. ضرب واحداً منهما بلوح التذاكر على رأسه، فلم تطرف عيناه. انتبه الرجل بعد عدة ضربات مماثلة واستدار محتجاً. أشار له المحصل على النافذة والبيوت التي اقتربت ففهم وأيقظ جاره ومكثا يتلفتان على حاجياتهما أسفل المقاعد، وأحدهما يمسح الريالة التي تدلت من فمه وهو نائم وطالت قبة الجلباب.

أكمل بعدها جولته، لقى امرأتين تميلان برأسهما إلى الأمام، إحداهما تحسب شيئاً على أصابع يدها، والأخرى تترقب النتيجة بشغف.

قال لهما بصوت آمر:

- يللا يا زكية. يللا يللا. هو إنتي هتطلعي عيني كل مرة!!

تبسمتا وقالتا له في صوت واحد:

- ربنا يسترك يا خويا.

وانحنيتا معاً تحملان قفصاً من الجريد له طابقان، الطابق الأول فارغ وبابه موصد بأصبع من الجريد. والثاني به حمامتان التصقتا ببعضهما وسكنتا على كومة صغيرة من القش، واضح أنهما لم تتمكنا من بيع الحمامتين في سوق الكيت كات مع أخواتهما.

وعلى المقعد الموازي لنا كانت تقبع امرأة وسط هوجة من العيال، الصغير فيهم كان مصمماً على وضع إصبعه في عينها، والآخر كان جالساً أسفل المقعد يشدها من ساقها وهي تركله في بطنه كي يسكت، وثلاثة أو ربما أربعة على المقعد المجاور لها دخلوا مع بعضهم في مشاجرة.

لم يعرهم المحصل بالا والتفت نحونا بنظرة ذات مغزى، فهزت أمي رأسها وقامت على الفور وأنا في يدها. لا جدال في أنه جدير بالوظيفة التي يشغلها، يعرف وجهة كل زبون من زبائنه واللحظة الملائمة لحثه على النزول.

* * *

وأخيراً وصلنا ..

كان الموقف متاخماً لوابور طحين جدرانه مدهونة بطلاء أبيض فقد نضارته بفعل الزمن، وبالرغم من ذلك بدا مهيباً بمدخنته التي يتصاعد منها الدخان، وهيكله الكبير قياساً على بيوت الفلاحين. وأمامه ساحة تمتلئ بالحمير ما بين الذي أفرغ حمولته فقيده صاحبه من إحدى قدميه في جذع شجرة، والذي أفلت من قيده وصاحبه يجري خلفه، والذي قوس ظهره قليلا وباعد ما بين رجليه الخلفيتين استعداداً للتبول والناس تبتعد عنه اتقاءً للرذاذ.

وكانت النسوة تمضي أمامنا بتثاقل حاملات قفف مملوءة إلى حافتها بالقمح أو الذرة، وعلى يمين البوابة الحديدية للوابور يجلس رجل بنظارة وسروال طويل أمام ميزان قباني متوسط الحجم، ويحرك الرمانة الحديد ليضعها على المؤشر كلما وضعت امرأة قفتها في حجر الميزان أو أنزل رجل جوال الحب من فوق دابته. وإلى جواره رجل آخر طاعن في السن، أمامه طاولة صغيرة بأرجل خشبية رفيعة على سطحها محبرة من الزجاج كالحة المنظر، وبيده ريشة من الخشب مفلطحة يغمسها في المحبرة، ويسجل بها الرقم الذي يقوله الرجل القاعد على الميزان على قصاصة يستخرجها من رزمة ورق أمامه ويسلمها بلا اكتراث وبعين نصف نائمة لمن عليه الدور. وعلى مقربة نفر من الحمالين يرتدون جوالات فارغة من الخيش القديم مفتوحة من عند الكتفين، وأذرعهم وسيقانهم كلها عارية،

obeikandl.com

وعلى رؤوسهم أغطية كالبرانيس مصنوعة من قماش سميك. كانوا يتناوبون حمل جوالات مكتنزة بالدقيق مرصوص بعضها فوق بعض بجوار حائط الوابور، ويتجهون بها صوب عربة كارو تقف على جانب الطريق.

لم تطل وقفتنا.

أقبل علينا رجل عجوز يطوق عنقه بمسبحة ذات حبات كبيرة تتدلى

حتى أول بطنه، وعلى رأسه شال مترب والجلباب يتجاوز ركبتيه ببوصات قليلة. أشاح بعصا من الجريد نحو أمي، فرجعت خطوتين إلى الوراء وتشبثت أنا بثيابها، وعندما تكلم تهدل فمه وبدا خالياً من الأسنان فازددت خوفاً منه.

سألنا عن وجهتنا.

قالت أمي: إننا نقصد بيت الحاج عبد الحميد المنشاوي.

هرش رأسه وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة وأعاد السؤال ثانية وهو يرمش بعينيه، وكان قد تجمع حولنا بعض الصبية يهللون ويصيحون في وجهه. منهم من كان ينغزه في بطنه أو يشده من الحزام الذي يلف به خصره، وبدأ في مبادلتهم الصياح هو الآخر والدفاع عن نفسه بعصاه.

لم تسلم أمي من الأذى، نالت عصا على منكبيها وزغدين في جنبها، فأخذت تسب أبي والدنيا واليوم الذي أتينا فيه إلى هنا وشددت قبضتها على يدي، وهي تشرأب بعنقها باحثة عن أحد يسعفنا ويدلنا على الطريق.

يبدو أن اللمة والصياح حول هذا الدرويش كانت أمراً مألوفاً فلم ينتبه إلينا أحد، واضطررنا إلى الإذعان له بعد أن حقق نصراً سريعاً على الأولاد والتفت إلينا. كررنا عليه اسم جدي ثانية وسرنا معه في رهط صغير، هو في المقدمة وأنا وأمي وراءه ومعنا ما تبقى من الأولاد.

وبطبيعة الحال كان الدرويش مصدر جذب للصغار، فمع كل خطوة كنا نتزايد بانضمام أولاد جدد، وتبعتنا معزة لا أعرف من أين أتت! ولحق بنا صبيٌّ يمتطي جحشاً صغيراً، يبدو أنه كان في طريقه إلى الغيط ولما رآنا آثر الدخول في زمرتنا.

وصلنا أخيراً إلى بيت من طابق واحد، ورغم ذلك كان يبدو كبيراً وسقفه عالياً. والبوابة عريضة ولها ضلفتان خشبيتان مواربتان قليلا، وأعلى كل واحدة منهما فتحة بيضاوية مليئة بالقضبان الحديدية التي أكل الصدأ أطرافها. كان واضحاً أن البيت لم تمسه يد الإصلاح من وقت طويل، فآثار الأمطار وفعل الزمن كان بادياً على واجهته، وأحجاره البيضاء الكبيرة بان بعضها بعد أن زال من عليها الطلاء. وعلى جانبيه شجرتي توت ما زالتا في طور النمو، بجوار إحداهما (طلمبة) أمامها حوض أسمنتي تتسرب المياه من أحد جوانبه في مسارات رفيعة.

وقفنا أمام البيت في زفة تزيد على أربعين نفساً فضلا عن الدابتين، وأخذ الدرويش في النداء على جدي بصوت عال والأولاد يهللون.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(١١)

ما أن لاح جدي على عتبة الباب حتى أصابتني رعشة كهربائية، أما الأولاد فطاروا كلهم ومعهم الدرويش.

كان طويلا عريضاً يلتف بعباءة من الصوف الخفيف لها كمين واسعين، وعلى رأسه عمامة لها شراشيب تتدلى وراء أذنه. وقف على مسافة منا مستنداً براحة يده اليمنى على عصا سوداء ذات عقفة، وإلى جواره خادمه (إمام) بقميص على اللحم وقدماه حافيتان، والاثنان يرمقاننا بنظرات تحمل ألف معنى.

سألنا من نكون؟

وانحنى قليلا برأسه، متشاغلا بفرك نتفة من الطين الجاف علقت بصدر العباءة.

استرعى نظري ظهر كفه المسترخي على مقبض العصا، كان مكتنزاً ومليئاً بالنمش ويرتعش بذبذبة ثابتة على المقبض فتهتز العصا هي الأخرى معه، وتثور ذرات غبار خفيفة حول قاعدتها. ولمحت عينيه وهي تتسلل إلينا .. خاصة نحوي .. ورغم أن التجاعيد قد كست عليهما تماماً وبدت الحدقتان ضيقتان وبياضهما تشوبه صفرة، إلا أنهما كانتا متوهجتين

والشعاع الآتي منهما نفاذاً ويقول إنه يعرفنا.

لم ينتظر منا إجابة ..

obeikandl.com

استدار ومشى بتثاقل نحو جوف البيت، ووقفنا أنا وأمي حائرين في الذي نفعله. لا أنسى هذه اللحظة أبداً، ولا إمام الذي انحنى وقبلني على رأسي ودفعني برفق كي أمضي في أثر جدي.

اجتزنا البوابة، وسرنا في دهليز عريض به دكك خشبية متقابلة. كلها بنفس المقاس تقريباً، ما عدا التي في أقصى اليسار فهي الوحيدة الأكبر حجماً والتي عليها فروتا غنم سوداوان تفصل بينهما وسادتان من القطن تعلوان بعضهما.

وفي آخر الدهليز حجرات على اليمين واليسار أبوابها ونوافذها مغلقة، ووراءها حوش غير مسقوف في زاويته ثلاثة كوانين، اثنان منهما حلوقهما فارغة والثالث عليه قدر كبير من النحاس ليس بأسفله نار. وفي الزاوية الأخرى فرن يتصاعد من فوهته دخان خفيف، وعلى قبته طاجن كبير من الفخار وطست قديم حوافه متآكلة وتبرز منه بعض الفوارغ والكراكيب. وأمام الفرن كومة من كيزان الذرة الخضراء، يبدو أنها كانت في طريقها للشي لولا قدومنا. وعلى مسافة من أدوات الطهي هذه توجد شونة طويلة لها باب يفتح على شارع خلفي، وباب آخر يفتح على البيت من الداخل يجلس على عتبته رجل عجوز كماه مشموران ورأسه مدلاة على صدره. كان في غفوة وغير منتبه إلى أي شيء حوله. وبالشونة جاموسة باركة على الأرض تلوك شيئاً بفمها، وعلى مقربة منها عجلا صغيراً انجذبت إليه.

أجلسنا إمام على الدكة المقابلة للدكة الكبيرة والتي بات واضحاً أنها مخصصة لجدي، جاءت جلستي في زاوية أتابع منها ما يحدث في الشونة، ومضت برهة طويلة بلا كلام تحسس جدي في أعقابها أطراف لحيته الكثة وهو يعاود النظر إليَّ:

- خير؟

obeikandl.com

قالها لأمي بصوت مضغوم، وتلاها بسعلة عالية أثارت رعبي.

لم تنطق أمي بكلمة ..

مدت يدها بحركة لا واعية إلى الحقيبة الموضوعة في حجرها، وهي تضغط على معصمي باليد الأخرى وعيناها قلقتان وتتحاشان أي شيء يلوح في مدارها. ظلت برهة ليست بالقصيرة تعبث في الحقيبة، إلى أن أخرجت لفة ورق معقودة بأستك شراب قديم لجدي زكي. لفة تحوي شهادة ميلادي ووثيقة زواجها بأبي، وكمبيالة كان قد وقعها على نفسه لجدي، وعقد إيجار الغرفة التي كانا يسكناها معاً. ومن نصاحة جدي زكي أنه أقنع صاحب العمارة بأن يذكر اسم أمي وأبي معاً في خانة المستأجر، وأن يسجل ملحوظة مكتوب فيها بين قوسين " المتزوجان على سنة الله ورسوله على يد مأذون ناحية ... التابعة لمحكمة ... ".

سلمته اللفة وانشغلت أنا بما يدور في الشونة.

يبدو أن العجل الراقد بجوار أمه كان مولوداً لتوه، تابعته وهو يرفع رأسه متشمماً ريحها، ثم وهو يحاول الوقوف مرات كثيرة للوصول إلى ضرعها. في كل مرة كان يسقط على قوائمه النحيلة ويبذل جهداً في تخليصها من بعضها عندما تتشابك، ولما تعب توقف عن الحركة وأغمض عينيه لينام.

* * *

وضع جدي الأوراق في حجره، وأخرج نظارة طبية من جيب الصديري ووضعها على عينيه فبدا أكثر مهابة. مكث يدقق النظر في كل ورقة ويقرأ محتواها أحياناً بصوت مسموع، غير أنه لم يقدر على كبح جماح عينيه. كانت تفلت منه مختلسة النظر إليَّ، وعندما تلتقي نظراتنا كان يتنحنح ويشيح بوجهه إلى أعلى، ويبدو وكأنه يفكر في أمر آخر ولا يقصد ما توهمته، أما

أمي فكان وجهها ممتقعاً والفأر الواقع في المصيدة أفضل منها حالا.

مضت برهة نظر جدي بعدها إلى أمي متوقعاً مزيداً من التفسير، وانفرج
أحد الأبواب المغلقة. خرجت منه امرأة نحيلة تلف رأسها بطرحة سوداء وعيناها حزينتان .. جدتي .. أشار لها جدي بأن تجلس. هبت أمي واقفة لها فلم تعبأ بها جدتي وجلست إلى جواري.

حكت أمي حكايتها مع أبي منذ أن جاء يشتري قطعة الصوف من بنك صيدناوي، حتى آخر يوم شاهدته فيه وكانت حاملا في. قال لها يومها: إنه ذاهب إلى البلدة وفي المرة القادمة سوف يأخذها معه، غير أنه لم يعد. وجدي يتابع أمي وعيناه لا تحيدان عن وجهها، أما جدتي فكانت أذناها مع أمي وعيناها عليَّ.

انتبهت لتكة مصراع أحد الشبابيك والضلفتان تنفرجان عدة بوصات، ويلوح من خلفهما وجه امرأة تمعن النظر فينا. عرفها جدي رغم أن الشباك لم يكن في امتداد بصره. نادى عليها بصوته الجهوري فأتت متشحة بالسواد وتمسك بيدها بنتاً صغيرة تطأطئ رأسها من الخجل. أشار لها جدي بأن تجلس إلى جانبه، فجلست هي والبنت بالطرف الآخر من الدكة، وقال هو لأمي: إنها زوجة أبي وبنتها. وساد صمت ثقيل لم يقطعه إلا طفلان صغيران تسللا من فتحة باب موارب، وأخذا يحبوان أمامنا جيئة وذهاباً بطول الدهليز وهما لا يكفان عن الضحك.

وبعد برهة بدأنا نشعر بلغط وهمهمة وحركات خفيفة خلف الشبابيك الأخرى، وعندما صفق جدي بيديه همدت الحركة تماماً، ولكن ما لبث أن عادت الهمهمة ثانية ولم يفلح جدي في إسكاتها، فأشار إلى جدتي أن تدعو الباقين للحضور.

أتت زوجة عمي إبراهيم ومعها جمع من الأولاد، وأختان لأبي من حجرة ثانية، وأخـــت ثالثة تقيم هي وأولادها في البيت لحين عودة زوجها التاجر من
سفره بالصعيد.

ووقفـت خـــادمة عــجوز اســـمها (أم الكـوز) فــي آخـر الدهليز، أشار لها جدي
بيده كي تذهب بعيداً، رجعت خطوتين وتمهلت دقيقة ثم تقدمت خطوة وبعد دقيقة ثانية رجعت إلى مكانها الأول. اغتاظ منها جدي ونهرها غير أنها لم تتزحزح، لم تختف من أمامه إلا لما انحنى باحثاً عن شيء يقذفها به. ومع ذلك لمحتها تعود متسللة وتقعى بحذاء باب يداريها عن جدي، وترمقنا من فتحته المواربة.

أشار جدي إلى أمي، وقال للجمع الذي ملأ الدكك:

- آهي هيه دي الست اللي المرحوم كان متجوزها في مصر.

ونظر نحوي.

- وده ابنه.

وحملق في وجه أمي مستفسراً عن اسمي، فقالت:

- جلال ..

وصمت الجميع.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٢)

قضينا ثلاثة أيام في بيت جدي وكأننا في منفى ..

أفردوا لنا مندرة كانت مخصصة من قبل للخزين وحفظ الكراكيب، أعادوا سد الفتحات التي تتسلل منها الفئران وكنسوها ونظفوها وفرشوها، وإن كان كل هذا لم يجد نفعاً مع الروائح التي تملؤها وخاصة رائحة المش واللبن الرائب. وقالوا لنا قبل أن يغلقوا علينا الباب: عندكم شباكين الأول على الشارع افتحوه ولكن مواربـاً، أما الذي يطل على البيت من الداخل فاتركوه مغلقاً.

يدخل علينا الأكل في ميعاد كل وجبة على صينية تحملها أم الكوز التي خصصوها لطلباتنا، في أول الأمر كانت تنظر إلينا بغضب كأن مشكلتنا معها هي، وإذا سألناها عن شيء لا ترد، تضع الصينية من سكات وتعود لتأخذها من سكات أيضاً.

أخذت تتلكأ بعدها ..

تجلس على السرير بلا استئذان ثم ترفع قدميها وتتربع عليه معنا، تنزل قليلا برأسها وتخرج خرقة من عبها، وتظل تتمخض وتعطس والرذاذ لا يرحمنا، وأمي متأففة منها لكنها لا تستطيع الكلام. وعندما تفرغ تسألنا: إن كان الطعام يكفينا أو نريد غسل ملابسنا. وتربت على كتفي، وتقول: إن وجهي هو الخالق الناطق وجه أبي فتتبسم أمي. وعندها تبدأ المرأة في

obeikandl.com

الكلام، تأخذ وتعطي مع أمي، كلمة من هنا وكلمة من هناك. تظن أنها سوف تسحبها في الكلام لتعرف سبب زيارتنا وما يجهله أصحاب البيت عنها وعن أهلها، وأمي بالطبع لا تشفي لها غليلا وتأخذها في حكايات بعيدة عما تريده. وتجيء سيرة جدي فتسألها أمي عن طباعه وما يقوله هو وجدتي عنها وعن ولدها، والمرأة تنظر إليها وإذا فتحت فمها فالكلام بالحساب. كان الأمر أشبه بمباراة بينهما، وأنا جالس يدي على خدي والملل ينحر قلبي.

تعلقت مرة بجلبابها، وطلبت منها وهي خارجة أن تأخذني معها لألعب مع الأولاد.

ترددت وقالت: سوف أسأل جدتك أولا، زجرتني أمي على ذلك وشدتني من كم البيجامة حتى كاد أن يخرج في يدها.

لم يقل لنا أحدُ لا تخرجا، أمي فهمت ذلك من نفسها، وبقينا يومين لا نخرج إلا للأمور التي ليس لها حل كالذهاب إلى الحمام.

الحمام .. الحمام ..

لم أعرف قدر وقيمة الحمام إلا وأنا في البلدة، فهو بالفعل بيت للراحة وطوق نجاة لمن كان في ورطة مثل ورطتنا، فقد تعدل نظامنا في الأكل عما تعودنا عليه في مصر. وجبتي الإفطار والغداء أصبحتا خفيفتان، ولا تستوجبان التردد عليه كثيراً. الوجبة الرئيسية هي وجبة العشاء حيث تدخل علينا صينية نحاسية عليها (أنجر) ثريد يكفي عشرة تتربع عليه إوزة بأكملها أو قطع لحم كبيرة يفح منها البخار ونصف بطيخة مرشوق في قلبها سكين، غير أطباق الخضار والسلاطة وصينية صغيرة عليها طاجن أرز معمر خرج من الفرن لتوه، أو شيء كالعجين مطهو باللبن والزبيب.

لم نـــألف هـــذا الطعام الممتع من قبل، وكـانت أمي تعرف أنه ثقيل على
المعدة، ومع ذلك كنا ننزل عليه بالملاعق أنا وهي كأنه آخر زاد لنا في الحياة
الدنيا. لا نكتفي بعد ذلك بشرب قلة ماء وإنما قلتين، ساعتين وكنا - بالطبع - نبدأ في الخروج للحمام. ليس مرة أو مرتين أو حتى ثلاثة بل أكثر. وعندما يطفئون الكلوب الذي في الخارج وتخف الحركة، نتمدد على السرير ليس للنوم وإنما من النار التي في بطوننا. فكلانا - وخاصة أنا - كان يشعر بعدم الراحة وأن لديه الكثير الذي يجب إخراجه. قد تخرج أمي مرة أو مرتين في جوف الليل وتستحي بعدها، أما أنا فذهاب وإياب بلا توقف.

وعندما تمل مني، كانت تقول بلهجة تهديدية:

- خلاص خلاص! دي آخر مرة تخرج فيها يا قليل الأدب!! الدنيا بره كحل وأم رجل مسلوخة هيه كمان عندها إسهال زيك وأنا شايفاها وهيه بتدخل الحمام، تحب تدخل معاها!! تحب؟

كنت أموت في جلدي ساعتها، وتبدأ هي في اتخاذ احتياطات الأمن. تتأكد من أن النافذتين مغلقتان - شيش وزجاج - وقادرتان على صد أي تسلل، وتشد ترباس الباب الداخلي حتى آخره، وتأتي بالمقاعد وبكل المنقولات الموجودة بالغرفة وتضعها خلفه، ثم تقف برهة تهز رأسها وتقرأ سراً من الكتاب المقدس وأنا أتابعها وحدقتا عيني تتسعان.

* * *

بدأت جدتي في الدخول علينا.

تسأل أمي من على الباب: إن كانت مرتاحة.

تومئ بالإيجاب فترنو نحوي ثم تتركنا، أطلت علينا مرة فأسرعت إليها ولثمت يدها بإيعاز مسبق من أمي، فدخلت

وجلست على حافة السرير بجوارنا أنا وأمي ووضعت يدها على كتفي. مست طرحتها الحرير وجهي، كانت ملساء ولها وقع كالدغدغة فأخذت أعبث بأطرافها وأمرر كفي عليها، وهي ترمقني وشييء يلوح على شفتيها .. كأنه ابتسامة .. وجاء ذكر أبي على لسانها هي وأمي فانهمر دمعهما معاً.

في اليوم الثالث أمضني الانتظار، فحاولت بمبادرة ذاتية مني أن اخترق هذا الحصار وأخرج. واربت الباب متسللا منه بحذر، خطوت خطوتين وبصري معلق ببحراية الشونة التي كستها الشمس.

كان العجل ممدداً فيها، وعيناه تنظران بدهشة إلى هذه الدنيا التي أتى إليها. هي خطوة ثالثة التي خطوتها بعد ذلك وما أشعر إلا بمقشة ليف تنزل على رأسي وولدان أكبر مني بقليل يجثمان عليَّ من الجانب الآخر ويكوماني على الأرض. وولد ثالث. لا. كانت بنت قصيرة الشعر وترتدي بنطال بيجامة فبدت كالولد. انشقت عنها الأرض وأخذت تدبدب بقدميها وتصوب بعصا صغيرة في يدها نحو رأسي، وتصيح بأعلى صوتها طالبة مني رفع يدي إلى أعلى وأن أسلم نفسي.

أوقعوا بي الأبالسة.

وحتى الشتمة الوحيدة التي قلتها ردوا عليها بسبع شتمات، وجاء الكل على الجلبة. لم تفتح أمي فمها بكلمة، انتشلتني من بين أيديهم بسرعة كما يرفعون الجرحى من أرض المعركة، وأغلقت الباب خوفاً من أن يتسللوا منه ويعاودوا الكرة مرة أخرى. جدتي هي التي تكفلت بالدفاع عنا، أتت بعصا ونزلت بها على ظهر الولد الكبير، وأدارت معركة مع أمهم ـ ابنتها ـ لمدة ساعة.

سمعناها تقول: إنني ابن ابنها ولي في البيت مثلهم وأكثر.

obeikandi.com

وفـي المسـاء علـم جـدي بـالخبر فـأجبر عمتـي علـى الـدخول لأمي وتطييب خاطرها، وأتت تعليماته إلينا بأن نخرج ونتنـاول الطعام مع العائلة.

* * *

أتى الصباح وخرجنا للإفطار.

كـــان جـــدي يـــجلس علـى دكـتـه وأمـــــامه صـينية، وعلـى الأرض بطول الدهليـز ثـلاث صـواني. واحدة لجــدتي ونـــحن مــعها. والثـانية لزوجــة عمي

إبراهيم وأولادها، فقد كـان عمـي سهراناً بالأمــس فـي الغيــط ولا يـزال نائمـاً فـي فرشـته. وصـينية لعمـاتي الاثنتـين، ومعهمـا الثالثة وأولادها الذين اعتدوا عليَّ.

وفـي وجبـة العشـاء وبـأوامر مـن جـدي، انتقلـت إلـى جـواره لآكـل علـى صـينيته. أكلـت معـه قطعـة مـن المخاصـي ومـن ذيـل العجـل وهـي أشـياء مخصصـة لـه ولا توضـع إلا فـي طبقـه، أمـا اللحم المسلوق فللجميع.

وأتـى عمـي إبـراهيم عنـدما بـدأنا فـي شـرب الشـاي. لـم يكتـرث بوجودنا، أو أنا وأمـي نظرنـا ناحيتـه. ولمـا طلبـت منـه جـدتي أن يسلم علـى أمـي تظـاهر بأنـه لا يسـمع وانهمـك فـي الحـديث مـع جدي، ورغم هذا لم يكف عن النظر إلينا من تحت لتحت.

لم أره كثيراً بعدها..

فهو إما مشغول في الغيط، أو يتعارك مع زوجته.

كانت أمي لا تحبـه ولا تخـرج مـن غرفتهـا إذا سـمعت صـوته، وفي المرات التي لقيته فيها كان كل منا يتجاهل الآخر. يمـر مـن أمـامي وكأنـه لا يرانـي، وأنـا أول مـا ألمحـه أقـف صـامتاً حتـى يمضي في سلام. كنا هكذا طوال الوقت. ومع ذلك كنت مشـدوداً إليـه وأظـل فـي كـل مـرة أحـدق فـي ظهـره حتـى يختفـي عنـي، واندهش من منكبيه العريضين وطوله الفارع، وأتمنـى أن يكـون

obeikandi.com

لي هذا الهيكل عندما أكبر، فلم يكن أهل أمي طوالا هكذا، حتى جدي زكي ذاته لم يكن بهذا الطول.

كان عمي طلسماً أمام عيني، وإلى الآن لا أعرف إن كان يحبني أو يكرهني ..

أذكر أنه ربت على رأسي مرة، كنت جالساً وقتها على عتبة البوابة الخارجية ألعب بمسبحة الجد، وأول ما رفعت رأسي له تركني ومضى. وأمس كان يوزع قروشاً على أولاده، نادى عليَّ ليعطيني واحداً منها، مددت يدي إليه بحذر ونظر إليَّ هو الآخر باستغراب، رفع حاجبيه وحدق في طويلا وهو يعطيني القرش.

* * *

obeikandl.com

(١٣)

أول ما يفرغ جدي من صلاة العصر تبدأ طقوس جلسته المفضلة.

يحمل إمام حصيرة ومسندين من القطن على كتفه، ويهرول أمامنا إلى الجدار الغربي للبيت.

يكون الظل ساعتها قد غطى أعواد الزرع التي في مواجهتنا وزحف إلى منتصف الجدار، وعن بعد كانت أشجار الكافور تتكاثف حول الترعة التي في مدخل البلدة، وغلالات الدخان الأسود المتصاعدة من وابور الطحين بدأت في الخفوت، والحمير الرابضة أمامها لا تزيد عن أربعة أو خمسة على أكثر تقدير وتتأهب للعودة محملة بأجولة الدقيق.

يترك جدي جسده طيعاً في يد إمام، حيث يمسك به من إبطه ومنكبه وينزل به حتى يجلسه في منتصف الحصيرة واضعاً مسنداً خلف ظهره والآخر ليتكئ عليه بمرفقه، ويبدأ هو برش الماء في الوسعاية التي تفصلنا عن أعواد الزرع.

يرمقني جدي لحظة، وما أن أبادله النظر حتى ينشغل بفرد ساقيه ثم يخرج المسبحة من سيالته ويخلع العمامة ويضعها إلى جانبه.

obeikandl.com

كنت في الأول أستغرب وجهه عندما أرى رأسه العارية حليقة بالموسى وليس فيها شعرة واحدة، ينتابني شعور بأنه فقد شيئاً من وقاره، وأنظر
برهبة إلى هذه العمامة السحرية التي تقلب وجهه من حال إلى حال، وكم تمنيت أيامها أن أغافله وأضعها على رأسي ولو لمرة واحدة.

لا يطمئن الجد أبداً ودلو الماء في يد إمام ..

يظل يلاحقه بعينيه، وبحركة لا واعية كان يتحسس العمامة كلما اقترب منه إمام جاذباً إياها نحوه. وإذا طالها الماء والذي غالباً ما يكون مغموساً بالطين، تنقلب سحنة جدي ويقذفه بأقرب شيء ليده، فردة مداس، كوب فارغ، غطاء قلة، أو بالقلة نفسها وهو يصيح بأعلى صوته:

- مش تفتح يا أعمى العين!

وساعات كان يجذب عصاه ويقوم ربع قومة، فيلقي إمام بدلو الماء ويطير من أمامه. كنت أخاف أنا الآخر وأمد قدمي باحثاً عن الصندل، وعلى مرمى حجر منا كان يربض كلب عجوز مغمض العينين ونائماً طول الوقت. يصحو على الجلبة متلفتاً حوله وعندما يتبين الأمر، يهب على ساقيه الأماميتين ويبدأ في النباح تجاه إمام مجاملة لجدي، لا يسكت إلا لما يشير له جدي بيده قائلا بصوت ناعم وفيه شيء من النغم:

- خلاص خلاص يا خرشوف.

كان هذا هو اسمه وتربى في كنف جدي ولا يسمع إلا كلامه، وبحكم العشرة فهم كل منهما طباع الآخر ونشأت بينهما لغة أشبه بلغة الشفرة.

سرعان ما كانت تنفض المشاجرة، ويعود إمام ثانية بخطوات حذرة وعيناه على عصا جدي. يقعى على طرف الحصيرة وأمامه صينية نحاسية بأكوابها وبراد وبرطمان سكر

وباكو شاي ماركة (الشيخ الشريب)، ووابور ماركة (بريموس) لم أر له مثيلا من قبل. يقولون إنه الشيء الباقي من جهاز جدتي، ولما اكتشف جدي وجوده بين الكراكيب التي في غرفة الخزين أصر على إصلاحه واستبقاه لنفسه.

ينحني إمام على الوابور ويغلق محبس الغاز ثم يدفع كباس الهواء

- بسرعة وعدة مرات - إلى الداخل، حتى ينطلق صرصور صغير من الجاز من ثقب بالفوهة، فيشعل هو عود الثقاب ويقربه منه وشيئاً فشيئاً تشتد النار.

لم تكن هذه المسألة تمضي بسهولة على إمام، فالمسكين كان عرقه يسيل ويجد مشقة في إشعال هذا الوابور العجوز والذي كان يكبُر عمي إبراهيم في السن بأربع سنوات. غير أنه لم يكن يصرح بذلك خوفاً من العصا الممدودة على حجر جدي، خاصة وأن الجد كان يتابعه ويتهمه دائماً بأنه هو المخطئ وليس الوابور.

يلتقط إمام أنفاسه أخيراً بعدما يطمئن إلى أن الوابور يفح فحيحاً قوياً متواصلا، والبخار يتسرب في أزيز خافت من فوهة براد الشاي الذي يعلوه.

* * *

لم يكن المكان الذي نجلس فيه في مسار الريح أو تأتيه نسمة هواء، وكان جدي من وقت لآخر يمدد ساقيه ويخرج منديله يمسح به رأسه ويجفف حبات العرق التي تعلق بجفنيه أو تسيل خلف أذنه. وعندما كان يميل فجأة إلى الأمام ويمسك بأصبعيه قبة الجلباب من الخلف ويظل يهزها ووجهه متأففاً، أعرف أن قطرة عرق تتدحرج على ظهره. ومع هذا لم يغير جلسته، يقول: إنها بعيدة عن غبار الطريق وعتبة الباب حيث الداخل والخارج.

غير أنه كانت تهب علينا فجأة لفحة هواء شديدة تهتز لها أوراق شجرة التوت التي بحذائنا هزات سريعة، وتصدر عنها خشخشة خافتة. يفقد جدي ساعتها زمام السيطرة على جلبابه، يتطاير منه إلى أعلى، وكنت أراه عارياً حتى أول الفخذين وأندهش من ركبته اليمنى التي تبدو متورمة قليلا قياساً على الركبة اليسرى. ويجتاحني لحظتها إحساس بأنه طيب ويفرح - مثلي - إذا الهواء تدفق بين ثنايا ملابسه ونفخ جلبابه، وأظل أتابعه وهو مرتخي برأسه إلى الوراء وظل ابتسامة على وجهه، غير أنه أول ما يلحظ
نظراتي يقطب جبينه ويغطي ساقيه واضعاً ذيل الجلباب أسفل كعبيه.

في مرة وبإيعاز من أمي، سألته زيارة قبر أبي:

هز رأسه دون أن يلتفت إليَّ، ثم أسند ذقنه على راحة يده وشرد بعيداً.

وأدركنا إمام قائلا بصوت خافت:

- وحد الله يابا الحاج.

وأنا اختلس النظر له متابعاً الرعشة الخفيفة التي حلت فجأة على جفنه الأيسر، ولما استمر في إطراقه أصابني بعض الارتباك واحترت في الذي أفعله. وجدت نفسي أتزحزح بمؤخرتي بضع بوصات بعيداً عنه، مكثت أتأمل إوزة عرجاء تمضي بتثاقل أمامنا وجمع من إوز صغير لا يكسوه ريش يتعثر في خطواته للحاق بها.

* * *

لم تنفك عقدة الجلسة، إلا لما تهلل وجه جدي لرجلين من أصحابه قدما علينا. كانا في مثل عمره، جلس أحدهما إلى جواري وتربع الآخر قبالة جدي بعد أن طوى مداسه ووضعه أسفل منه.

الرجل الذي جلس إلى جانبي كان أسمر اللون وبلا أسنان تقريباً، وأول ما توسد الأرض أخرج من سيالته حُقَّ دخان ماركة (أبو غزالة) ودفتراً صغيراً ملئ بأوراق البافرة. سحب ورقة منها وشذبها بأسنانه، وبدأ في حشوها بالتبغ. والآخر كان سميناً ووجهه مستديراً كرغيف الخبز، ظل يحملق في صاحبه حتى فرغ من مهمته، ثم أخرج علبة سجائر ماركة (هوليود) وأشعل الاثنان سيجارتيهما معاً وجدي يبعد عنه وعني الدخان براحة يده قدر ما يستطيع.

وبدأ الرجلان في الحديث، خاصة الرجل الأسمر الذي بجواري. لم يكف عن الكلام أو الإشارة بيده، ولم أسلم بالطبع من كوعه الذي إن لم يخبطني في رأسي فهو لا محالة يصطدم بكتفي.

كنت أتابع الحديث بشغف ومستمتعاً باللهجة الريفية التي كانا يتحدثان بها، إلا أن الرجل الأسمر كان يقول أحياناً كلاماً لا أفهمه ويتبع
ذلك بغمزة من عينه اليسرى وهو يقول لجدي:

- فاكر يا عمنا لما ... فاكر ولا أفكرك ...

يرخي جدي رأسه إلى الوراء، ويجيبه متبسماً:

- إلا فاكر، فاكر وفاكر يا أبو رزق ..

ويدخل الرجل السمين في الحديث:

- ولا ساعة ...

فيقول جدي مستمتعاً:

- وهيه دي تتنسي ..

وعندما استبدت النشوة بالرجل الأسمر، أخذ ينغز جدي - مازحاً - في بطنه بخيزرانة صغيرة كانت في حجره.

تغير وجه الجد، وهمس له دون أن ينظر إليَّ:

- الولد ..

عندها انتبه الرجل إلى وجودي، تحسس رأسي بيده وقال:
- إنت ابن مين يا شاطر؟
ولما لم أجب، أردف:
- إنت ابن إبراهيم؟
والتفت إلى جدي ضاحكاً.
- ولا يكونش ابنك يا أبو محمود وأنا مدراش، قول الصراحة، قول قول ..
لكزه الرجل الآخر في جنبه وأسر في أذنه بكلمتين، تمتم على أثرهما:
- آه .. ابن الست اليهودية. يوه. يوه. يوه. هو ده ابن الولية إياها؟
أخذتني رجفة وصمت الجميع، وعن قرب كنت أشعر بحركة خفيفة بين أحواض الزرع. ظللت أتابعها، وكانت غبشة المغرب تلوح في الأفق وقرص
الشمس على وشك المغيب.
أعطاني جدي قرشاً وطلب مني أن أذهب وألعب مع الأولاد، كانوا في
الناحية الأخرى من البيت. أقتربت منهم فتوقفوا عن اللعب متابعين قدومي بنظرات إزدراء صامتة، فانحرفت بعيداً عنهم متجهاً إلى غرفتنا.
قلت لأمي عما حدث من الأولاد، فردت عليَّ مخففة:
- أصحابك هما راشيل بنت خالتك وديفيد ابن الأستاذ سمعان وماريكا وكوكي ولاد تانت حنة، والأولاد اللي هنا دول شوية متخلفين وملهمش لزوم في الدنيا.
- وحسن؟!
- حسن، حسن مين؟
- حسن جارنا إنتي نسيتيه!!

هزت رأسها قائلة بصوت يكاد يسمع:
- وحسن ..

* * *

obeikandl.com

(١٤)

من طلعة الشمس وأنا أرتدي القميص والبنطال القصير والحذاء أبو أبزيم، وأمي تلتف بشال غامق على الفستان وترتدي شراباً وحذاءً أسودين.

كنا جالسين على حرف السرير في انتظار أية إشارة تأتي من الدهليز، وأول ما سمعنا جدي يسعل بجوار شباكنا سعلات قصيرة وحادة فهمنا أنه ينادي علينا.

خرجنا فوجدناه على عتبة البوابة الخارجية مرتكزاً على عصاه يتابع إمام وهو يضع البردعة القطيفة على ظهر البغلة المخصصة لمشاويره الخاصة، وخرشوف على مقربة منه يسير هنا وهناك بنشاط على غير عادته.

وسمعنا صريراً خافتاً ينبعث من مقبض نافذة زوجة أبي، وإذا به ينفرج قليلا وتطل منه بثياب النوم. الشر كان بادياً على وجهها فتحاشت أمي النظر إليها، أخذت موقعاً بعيداً عنها مستندة بيدها على حلق أحد الأبواب وأمسكت بمعصمي باليد الأخرى. استدار جدي نحونا فأغلقت زوجة أبي ضلفة شباكها الموارب في لمح البصر وتأهبنا أنا وأمي، فرمقنا بنظره خاطفة دون أن يتكلم. وشددت أنا معصمي من قبضة أمي واقتربت منه، وهي تنهرني بصوت مكتوم. لاحظنا الجد ونظر إليَّ وابتسامة خفيفة تلوح على شفتيه، ولما دفعتني أمي تجاهه

obeikandl.com

حملني إلى صدره وغمرت أنفاسه كل وجهي. كان حاجباه كثيفين والشعر الأبيض فيهما يغلب على الأسود، وأطلت أنا النظر في الندبة التي أسفل عنقه، وتبدو أكثر وضوحاً كلما انزلقت قبة الجلباب إلى أسفل، تحسستها بأصابعي وهو يتأملني بعينيه.

كانت هذه هي المرة الأولى التي اقترب فيها منه على هذا النحو، وعندما أمسكت بزر عمامته لم يغضب. أمي هي التي ماتت في جلدها، عضت على شفتها السفلى محذرة وأسرعت لتأخذني، لكنه أشاح لها بيده ضاحكاً وأناخ رأسه لي أكثر وأكثر ..

نظر بعدها صوب غرفة نومه وتنحنح مرتين، كان واضحاً أنها إشارة لجدتي، إذ سرعان ما أتى صوتها من الداخل بأنها قادمة على الفور.

قال لأمي:

- مش كنتي تلبسي حاجة فلاحي يا أم جلال؟

أحنت رأسها ولم تجب، وكانت جدتي قد أتت، أومأت له بأن يغض الطرف عن هذا الأمر فسكت.

لمحت جدتي زوجة أبي وهي تطل علينا من فتحة بابها، فقالت لها بدهشة:

- إنتي لسه بجلابية النوم يا بنتي؟!

فردت بصوت متكاسل:

- معلش ياخالة أصل راسي وجعاني.

فبدا الغضب على وجه جدتي.

- يا بنتي دا إنتي من دقيقة واحدة كنتي كويسة، إيه يابت كهن النسوان ده! يللا يللا البسي علشان تيجي معانا.

فخرجت علينا تقول بصوت متوتر:

- آجي فين يا خالة! آجي فين! دا حتى الشرع بيحرم على الكفرة مراوح ترب المسلمين، وعايزاني آجي!!

تدلت أمي برأسها نحو الأرض، وصاحت جدتي في زوجة أبي:

- جرى إيه يا وسخة، هو ده اللي اتفقنا عليه، طب أمشي انجري على مطرحك وليه كلام معاكي بعدين يا بنت المرزوقي!

ولما تنحنح جدي بصوت تحذيري سكت الجميع، واتجه هو إلى دابته.

لم يكن امتطاء جدي لظهر البغلة أمراً سهلا.

فشل إمام مرتين في إنجاز هذه المهمة، وجدي يلقي اللوم عليه لأنه لم يجهز نفراً أو نفرين معه. وأزاد خرشوف الجو توتراً بنباحه المتواصل، وأتت كلابُ أخرى تنبح على نباحه فزام في وجهها على اعتبار أنها مسألة داخلية تخصه هو ولا تخصهم.

أنقذنا أحد المارة، أمسك بجدي من أسفل ظهره وإمام من كتفه ودفعاه معاً، غير أن البغلة تحركت إلى الإمام ولولا ستر الله لسقط الجد من عليها. جرى إمام هنا وهناك وزعيق جدي من خلفه يترامى لمسافات بعيدة، وخرشوف - الذي فهم المشكلة - يعدو في أثره. أتيا أخيراً برجل كفحل الجاموس وصبي من حارة مجاورة، أمسك الصبي بطوق في رقبة البغلة والتف الثلاثة حول جدي، وما هي إلا دفعة فأخرى حتى استوى في جلسته، ولما فرد الجد الشمسية تحركت البغلة من تلقاء نفسها.

سرنا في رهط صغير، جدي على بغلته وإمام يده على رقبتها، وأنا وأمي وجدتي على الأقدام وراءهما. وعندما لمح جدي خرشوف يسير بيننا أمره بالعودة فلوى وجهه وهو يزوم

بامتعاض، ثم رجع وتمدد أمام باب البيت وعيناه ترمقنا حتى ابتعدنا.

* * *

المقابر في الطرف الآخر من البلدة، ولم يكن من سبيل أمامنا إلا المضي في بعض الشوارع والحارات.

الجد في المقدمة يلقي السلام بصوت جهوري، والرجال المتحلقين بعتبات
الجوامع وعلى النواصي وأمام الدكاكين يردون السلام ويفسحون له الطريق، لكن بالهم لم يكن معه، كان مشغولا بالقادمين خلفه، فعيونهم كانت تتلقانا عن بعد ويبدأون في الوشوشة، وأول ما نمر بمحاذاتهم يصمتون ثم يعودون إلى الكلام بعد أن نمضي.

ومن خصاص وفرج الشبابيك كانت تلوح وتختفي وجوه وخيالات لنسوة وبنات كبار، بعضهن كان يتلفت وراءه وينادي على أخريات كي يسرعن ويروننا، فتزداد الوجوه التي تطل علينا وتعلو أصواتهن ثم تخمد مرة واحدة. العجائز هن اللائي كن يرمقننا في صمت ودون أن تصدر عنهن أية حركة، وعندما نبهت أمي إلى امرأتين تشيران علينا وهما جالستان فوق سطح أحد البيوت، لكزتني في بطني كي أسكت.

***

شاع خبر مسيرتنا في كل الأرجاء، ولم يعد هناك لا كبير ولا صغير إلا ويتابعنا، حتى الكلاب التي كانت تستلقي في الطرقات، كانت ترفع رؤوسها نحونا هي الأخرى. منها من كان يهب على قوائمه الأمامية وينبح في وجوهنا إلى أن نبتعد عنه، ومنها من كان يكتفي بالنظر إلينا نظرة عابرة ويعود إلى غفوته.

obeikandi.com

والغريب أن جدي اختفى من أمامنا ولم نعد نراه، شغلني هذا الأمر وكنت بعد كل انحنائة لشارع أو حارة أمد بصري باحثاً عنه ولا فائدة. لم أجد حلا إلا أن اقترح على أمي أن أسرع أمامهما لأتقصى خبره، فلكمتني في ظهري قائلة:

- آهو ده اللي ناقص!

وشددت قبضتها على معصمي، وأنا أحاول الفكاك منها بلا جدوى.

تدخلت جدتي قائلة:

- بالراحة يا بنتي متخافيش عليه.

وأردفت موجهة الحديث إليَّ:

- أصل يا ابني جدك بيستحي يمشي مع الستات، سلو بلدنا كده.

غير أني لم أقتنع، وظللت أبحث عنه بعينيَّ لعلي ألتقطه عن بعد، ولا أعرف لماذا خطر نجيب الريحاني على بالي لحظتها وخفت أن يموت جدي فجأة مثلما مات.

* * *

بعد أن سرنا في شارعين وأربع حارات لاحت لنا المقابر عن بعد فاكتسانا كلنا الوجوم، وأنا بالذات دهمني شعور غريب لم آلفه من قبل، وبدوت وكأني مساق إلى دنيا غير الدنيا التي أحياها وأراها كل يوم.

دنيا أخافها منذ كنت صغيراً، وأعرف أن الأهل والأحبة إذا دخلوها لا يرجعون. وبدأت شواهد القبور تزداد وضوحاً وتكبر أمام عينيّ كلما أمعنا في السير، وأنا أتطلع إليها بشغف تشوبه الرهبة. وطفرت دمعة من عين أمي، مسحتها بكفها وانحنت برأسها فبدا عنقها وكأنما ازداد نحولا، وفترت همة يديها فأصبحت تروح وتجيء على نحو أبطأ، وجدتي وجهها ساكن والاثنتان لا تتكلمان..

كنت لا أزال صغيراً ومزاجي سريع التبدل فخرجت مما أنا فيه لما رأيت جمعاً من الأولاد في مثل سني يصطفون في طابور على حافة الطريق، ثم بدأوا في رفع جلابيبهم في وقت واحد وأخذوا في التبول كأنهم داخلين في سباق. سرني ما يفعلون وطلبت من أمي الانضمام إليهم فأخذت صفعة على قفاي، وسألتها عن المعيز والخراف والحمير وكل ما أصادفه في الطريق، خاصة تلك المرأة التي كانت تسير بحذائنا وأول ما تجد أقراص الجلة الطرية نفاذة الرائحة التي تتغوطها الجواميس، تقوم بالتقاطها بفرحة ووضعها في طست على رأسها. وأمي تلكمني وتشدني من أذني، وجدتي تتابعنا في صمت وقد بدا عليها الإعياء وأمي تبطئ من خطواتها مراعاة لها.

وعندما أشرفنا على قبر أبي، وجدنا الجد جالساً على مقعد من الجريد.

كان مطرقاً ووجهه يموج بحزن عميق، حتى إنه لم يشعر بوصولنا، وإمام في يده عصا ويقف بالمرصاد لأي كلب أو قطة تفكر في الاقتراب منه. وكان الذباب يملأ المكان .. ذباب غريب وحجمه أكبر بكثير من الذباب الذي نراه في البيوت. لم يسلم منه الجد، كان يحوم حول وجهه وهو يهشه بكف يده بطريقة آلية وعيناه شبه مغمضتين.

وعلى حرف الغيط المجاور كان حمار يقضم الحشائش النابتة، ولما اقترب منه حمار آخر وفي عينيه نظرات تحدي، زفر الأول من خيشومه ونقر نقرتين بساقه في الأرض متأهباً للعراك وما هي إلا لحظات حتى أخذا يتبادلان الركلات. تأفف الجد منهما فمال على حجر وقذفهما به، وأسرع إمام نحوهما بعصا فجريا وراء بعضهما يدهسان أحواض الزرع.

تربعت أمي وجدتي قبالة المقبرة، وفوجئنا بقدوم أحد المقرئين رغم أن اليوم ليس يوم زيارة كما قالوا. أشار له جدي فجلس على مسافة منه يتلو القرآن مبدداً السكون الذي حولنا ..

كان وقع الكلمات طرياً على قلبي وانساب في نفسي مع الإيقاع الذي كنت أسمعه من الشيخ الدمنهوري، وأنا ذاهب لشراء الفول كل صباح، ووجدت نفسي شارداً وأقبض على حفنة من الرمل المفروش أمام المقبرة ثم أتركه ينساب من بين أصابعي. أعيد الأمر مرة بعد مرة وشيء يجثو على قلبي، وكأن الدنيا ليس بها نسمة هواء واحدة. وانتبه الجد لصوت المقرئ، سند ذقنه على عصاه وترك عينيه تجوسان في القبور الممتدة أمامه، وعلى بعد خطوات منه كانت البغلة ممددة على جنبها بلا حراك وعينيها مفتوحتان. وكانت أمي تتلو أدعية بصوت خفيض، لم تتوقف إلا لما همست
لها جدتي بأنه لا كلام أثناء قراءة القرآن.

كان في أعلى المقبرة لوحة رخامية مكتوب عليها " إن المتقين في جنات
ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .. صدق الله العظيم "، وأسفل منها عبارة تقول " هذا قبر محمود عبد الحميد المنشاوي .. استشهد أثناء العدوان الثلاثي يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ .. ". تأملتها أمي ووجهها يكسوه تعبير حزين وأزالت بطرف شالها الغبار الذي يغطيها، وجرفت جدتي بيدها طابوراً من
الهوام كان متجهاً صوب فوهة المقبرة.

ولما انتصب الجد واقفاً، كان هذا أمراً بالعودة.

سألته جدتي البقاء قليلا فلم يذعن لها واتجه صوب البغلة، وإمام يهرول أمامه متلفتاً حوله عمن يغيثه ويساعده في الصعود بجدي على ظهرها. ولحظتها بدا وجه جدتي مصفراً وعلى

جبهتها عرق خفيف، وكأنما شاخت عما رأيتها في الطريق. وأخذت تنهنه بصوت مكتوم وتواري وجهها في طرحتها السوداء، وأمي تمسك بذراعها وعيناها هي الأخرى تطفران بالدموع.

وفي طريق العودة آثرت الانفصال عن أمي وجدتي واللحاق بمقدمة الركب، فلم يمانع جدي وأمر بوضعي خلفه.

* * *

قبل أن ننام قالت لي أمي: إننا سوف نسافر في الصباح.

طلبت منها أن نبقى فاندهشت، وقالت: ما عادت بنا حاجة للبقاء، قبر أبي وزرناه، جدي ورأيناه، والمصاريف وعدتنا بهم الحاجة أم محمود، فلماذا البقاء؟!

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٥)

كان الجد حاسر الرأس ومسترخياً على الدكة، وعمي إبراهيم مرتدياً فانلة داخلية بأكمام طويلة وسروالا من القطن يلتصق باللحم. وهو الآخر شبه مسترخي على الدكة المقابلة يحتسي الشاي مع جدي، ويتكلمان عن الأنفار والبطيخ والشمام والكوسة التي لم يأت من ورائها أبيض ولا أسود هذا العام.

هش جدي في وجهي عندما رآني قادماً نحوه، حملني وأجلسني إلى جواره وانهمك في تعديل ملابسي، وأحكم ربط أبزيم الحذاء ثم قال وهو يربت على شعري:

- خلاص يا جلال، نويت على السفر؟

وأخرج قطعة حلوى من سيالته، وضعها في كفي وأخذ يجري بأنامله على عنقي مرة ببطء ومرة بسرعة، وأنا أميل وأتلوى بجسدي من نشوة الدغدغة، ولما سألته الكف عن ذلك قال ضاحكاً.

- خلاص هسكت بس على شرط إنك تقعد معايا، تقعد معايا هنا على طول، تسيب أمك تمشي لوحدها وأنا أفصلك جلابية بلدي وأخدك الغيط معايا.

رغم صغر سني فهمت أنه يمزح معي، فعدت برأسي قليلا إلى الوراء

وهززتها رافضاً، فقال بنغمة مغوية:

obeikandl.com

- دا أنا هركبك البغلة كل يوم.
أعاود هز رأسي.
- وأخليك تلعب مع خرشوف.
وانطلق عمي:
- أي والله صحيح يابا، متخليه يقعد معانا.
لم تكن سحنة العم تشي بأنه يمزح مثل جدي، فأخذتني رجفة مما يقول والتفت نحو الجد. ضغط براحته على صدري مطمئناً، ثم رفع عينيه نحو عمي كي يصمت أو يقول كلاماً معقولا.
يبدو أن العم لم يفهم، اعتدل مستكملا حديثه وسحنته الجادة على حالها:
- آه يتربى مع العيال، معلوم يتربى مع العيال.
نظر الجد إليه ثانية، بدا وكأنه يريد منه الكف عن إخافتي إلا أنه عاد وأطرق، العم هو الذي استمر في الكلام:
- كده برضه أحسن، مش بيقولوا ابننا يبقى يتربى معانا؟ آه يتربى معانا، ولا انت هتسيبه يابا يرجع مع الولية العكرة دي اللي احنا لا عارفين لها أصل ولا فصل؟!
اربد وجه الجد وزفر بصوت مسموع، وكانت أمي قد أتت وفي يدها حقيبة السفر وخلفها جدتي. وخيم السكون. سكنت الحياة في الغرف الداخلية تماماً، اعتصمت كل جماعة بشباكها تتابعنا من ورائه، ولم يكن بمقدوري أنا أو أي واحد من الجالسين رؤية شعرة واحدة أو سماع ولو همسة تنبئ عنهن، فهن محنكات في هذه المسائل.
أشار جدي لأمي كي تجلس قبالته، وتحلقت كل الأبصار به.
أمسك بلفافة يضعها إلى جانبه وأعطاها لأمي، طلب منها أن تفتحها
وتحصي ما فيها، وعندما توانت أعاد عليها القول بنبرة آمرة.

أوراق من فئة الجنيه والخمسون قرشاً وأرباع الجنيه والعشرة قروش وورقتان من فئة الخمسة جنيهات، عدتها مرتين ونظرت إلى جدي فأشار لها كي تعيد العد مرة ثالثة ففعلت وأحاطت النقود بأستك رفيع أخرجته من حقيبة يدها وقالت لجدي:

- دول ميت جنيه يا عمي.

اندهش العم إبراهيم من قولها كلمة (عمي)..

التفت إليها باستغراب ثم نحو جدي، دار بعدها نصف دورة ناحية جدتي وهو يقلب كفيه. تقلص وجه الجدة، ولمحتها وهي ترفع إصبع السبابة إلى شفتها المزمومة كي تسكته.

قال جدي مخاطباً أمي:

- يكفوكم كام شهر؟

أجابت وحمرة خفيفة تكتسي وجهها:

- كتر خيرك يا عمي، مستورة الحمد لله، والبابا مش مقصر معايا.

- دا فرض عليه، والولد ده ـ وهو يربت على كتفي ـ مسئول مني، يعني أنا اللي أصرف عليه مش حد تاني.

وأخذ أنفاسه..

- وانتي كمان طول ما بتربيه وشايفه أموره بما يرضي الله، أكلك وشربك وكسوتك عليه.

مال جدي على المنشة وهش بها ذبابة تحوم حول وجهي، ثم هرش رأسه وقال بصوت خافت أشبه بالهمس:

- هو انتي يا بنتي لسه؟

- قصدك يا عمي لسه على ديني. أيوه لسه. أنا ناويه خلاص بس لسه ما
جاش النصيب، وكنت اتفقت ...

obeikandi.com

وواتت أمي نوبة سعال طويلة، أسرعت جدتي إليها بقلة ماء وأشار لها جدي بأن ترتاح ولا تتكلم، إلا أنها استمرت في الكلام وبدا صوتها وكأنه متحشرجاً.

- متخافش على جلال يا عمي، جلال مسلم وليه جارة اسمها أم حسن جوزها شيخ في الأزهر بتاخده عندها وبيفضل الشيخ ده يعلمه الصلاة والصوم ويحفضه القرآن.

وأردفت بحماس:

- دا حافض سور كتير.

والتفتت نحوي قائلة:

- مش كده يا جلال؟

كنت أعرف أن أمي تكذب، غير أني جاريتها وقلت بصوت خافت:

- كده..

وأطرق جدي طويلا ثم قال:

- يا بنتي إنتي حرة في نفسك، أنا همي كله على جلال، لكن مش وقته الكلام ده، لو في العمر بقية حيبقى فيه كلام تاني، خلينا في دلوقتي تكفيكم الفلوس دي كام شهر؟

- يكفوا خمس تشهر ويمكن أكتر كمان.

- أنا بقول كده برضه..

يبدو أن العم لم يستوعب الأمر إلى الآن، إذ انفلت لسانه فجأة قاطعاً مسار الحديث:

- اسمعي يا أم جلال، أنا بقول بالسلامة إنتي والواد يقعد معانا يعيش ويتربى، دا أنا لسه بآخد وأدي في الكلام ده مع أبويا.

صمتت أمي وعيناها تستغيثان بالجد، الذي تنحنح وقال بصوت رزين:

- مـــينفعش دلوقـتي يـا ابنـي، جــلال لســـه صـغير ومتعلق بأمه، الأيام جاية
ويبجي الفرج ساعتها من عند ربنا.

ولحقت به أمي:

- وكمــان هــو هيـدخل المدرسـة السـنة دي، خالــه شـمعون خلاص قدم له الورق.

دار عمي بكل جسده ناحية أمي وقال بدهشة:

- شمعون!! شمعون مين؟!

استغربت أمي لدهشته.

- شمعون! شمعون أخويا الكبير!!

رد بصوت عال:

- إيه الأسامي دي يا ست إنتي؟ وشمعون ده بني آدم زينا؟!

انزوت أمي في فستانها، تقوس ظهرها وتشابكت أصابع يدها بحركة أعرفها عندما تكون مرتبكة وبلا حيلة، ونفد صبر الجد، صاح في عمي:

- إيه الكلام ده يا إبراهيم، يا تقول حاجه عدلة يا تسكت، إنت مالك إن كان اسمه شمعون ولا ميمون ولا حتى زرزور!

- أصل يابا .. أصل .. وبعدين هنسيب الواد في إيد الناس دول، دا حتى الشرع ...

قاطعه جدي بصوت عال:

- لا أصل ولا فصل، وبعدين إنت قاعد كده ليه؟! إمشي البس جلابية تسترك، منتش شايف مرات أخوك قاعدة معانا، متخلي عندك نظر وانت زي الشحط كده!

بدا عمي مرتبكاً، ولما حاول الكلام صاح جدي بصوت أعلى وأعلى:

- أيوه قوم، قوم كده واتحشم.

قام عمي يبرطم، والجد ما زال يصيح في ظهره:

obeikandl.com

- وقبل يا خويا ما تفتي في الشـــرع يـــبقى اســـتفهم، روح الأول لســـيدنا في
الكتاب واسأله، خليه يقريك القرآن من أول وجديد ويعرفك إن دول من أهل الكتاب وليهم عندنا عهود.

لحقت جدتي بعمي ثم عادت وخيم التوتر على الجلسة، ولحظتها فقط استطعت تمييز مواقع بعض الرابضين خلف الشبابيك. أحسست بحركاتهم، وسمعت من يلعنني أنا وأمي بصوت هامس مؤكدين على أننا كفرة بالفعل، وليست لنا أية عهود كما يقول الجد.

نظر جدي نحو جدتي وقال:

- آهو معاهم مصروف خمس تشهر، وكل هلة شهر بعد كده تفكريني أبعت لهم عشرين جنيه مع الواد إمام.

ثم هز رأسه متمماً كلامه بصوت مؤثر:

- تفكريني دا إيه! وهو أنا هنسى، ولما أموت...

قاطعته قائلة:

- لك العمر الطويل يا أخويا.

وأخرجت من صدرها منديلا في حجم الكف، تمسح به قطرة عرق علقت برموشها.

- أمانه عليكي تبعتي المبلغ شهر بشهر بعد حياة عيني، وتوصي بيه إبراهيم.

- حاضر حاضر يا أخويا، دا إبراهيم قلبه أبيض هو بس اللي حمقي ومبيحسنش الكلام.

أجابها وعيناه شاردتان:

- عارف .. عارف ..

وجاء إمام بسيارة الأجرة التي سوف تحملنا إلى مصر، صمم جدي على ألا تذهب امرأة ابنه إلى موقف السيارات وتركب كما يركب الناس، وبدا إمام

متأثراً لسفرنا.
قال له جدي:
- لما يدخل الشتا تبقى تجيني أول كل شهر عربي وتاخد مني أمانة تروح تسلمها لأم جلال في إيدها، عارف البيت؟
- أيوه عارف ..
- عارف إيه يا ابن الرفدي! هو أنت كده طول عمرك كداب وغلباوي.
وكادت أن تنشب مشاجرة من مشاجرات جدي مع إمام، لولا تدخل جدتي التي أشارت للجد منبهة بأن الوقت ليس وقت مشاجرات فرضخ وقال لإمام:
- تروح بالعربية لحد باب البيت، تعرف اسم الشارع ونمرة البيت، وتكتبهم في ورقة تسلمهالي أول ما ترجع.
- حاضر يابا الحاج.
انحنت أمي على جدي تقبل يده، تردد لحظة ثم تركها لما تريد. وبعد أن ربت على كتفها مد يده لمصافحتها، كانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، فمنذ أن أتت لم تلمس يده يدها وكلامه معها كان من بعيد لبعيد وبالحساب.
دفعتني أمي كي أقبل يد جدي..
لم أكتف بذلك، ارتميت عليه فحملني إلى أعلى. أحطت برقبته وهو يهتز ضاحكاً ويقبل كل موضع في جسدي تصل إليه شفتاه، وفعلت الجدة ذلك وعيناها مغرورقتان بالدموع.
وأتى العم إبراهيم بجلباب مكوي وطاقية من الوبر مشدودة كالسيف، سلم علينا بوجه عابس ثم حملني ووضعني في السيارة دون كلمة. ولما استوينا أنا وأمي على الأريكة الخلفية، تحلقت نسوة البيت بعتبة الباب وحولهن الأولاد والبنات، ظلوا يحدقون فينا ولم نتبادل الكلام أو حتى أشار أحدُ منا للآخر.

وانطلقت بنا السيارة وأنا أنظر إلى الدكاكين والعيال الذين يجرون بحذائنا، والإوز والدجاج الذي يتسكع أمامنا غير عابئ بالسيارة ولا أبواقها.

وعندما عبرنا الجسر الذي يبدأ به طريق السفر، همت بعينيّ في الحقول التي تمتد كثيفة على الجانبين، والناس القادمين في مواجهتنا سيراً على الأقدام أو يمتطون الحمير، وشيئاً فشيئاً زادت سرعة السيارة، فاسترخيت على المقعد أتطلع من النافذة لهامات أشجار الكافور التي تمرق خطفاً إلى جوارنا.

* * *

obeikandl.com

(١٦)

كان جدي زكي حاسماً في ألا تساهم أمي بشيء في نفقات البيت، قال: النقود التي أتت بها من عند أهل جلال تحفظ له في دفتر التوفير فلا أحد يعلم ما تخبئه الأيام.

وعندما اقترب ميعاد المدرسة ووفقاً للنظام الذي اتبعه جدي في مسألة كسوتي، اشترى لي قميصاً لو فردنا أكمامه لتجاوزت أصابع يدي بقيراط أو قيراطين، وبنطالا يدعو للكآبة وسدة النفس. المدرسة قالت: المقاس المضبوط هو الذي يتدلى إلى أسفل منتصف الفخذ ببوصتين، وجدي رأى أن يكون بعد الركبة بثلاث بوصات حتى يُعمر معي ولا مانع من أن يكون متسعاً كبنطال البيجامة.

الحذاء هو الذي أفلت منه..

ففي المحل أخذت أجرب المقاسات الكبيرة التي أشار بها، وما أشعر إلا بقدمي تتوهان في الحذاء وتفشلان في إحكام السيطرة عليه. وكنت من جانبي أزيد من عبثية الموقف بخطواتي المتأرجحة، ويدايّ اللتان تستندان على كتف البائع كأنما أنا طفل صغير يتعلم المشي وعلى وشك السقوط، وجدي يرمقني بنصف عين ويهز رأسه.

مال على أذن أمي وأوعز لها بألا تبالي بالحركات التي أفعلها، فالحذاء الذي

في قدمي - وكان يزيد عن مقاسي بنمرتين - هو الأنسب، ولو أحسنت استخدامه سوف يعيش معي ثلاث سنوات. واقترح عليها حشر قطعة قماش أو فردة (شراب) قديمة في مقدمته حتى تثبت قدمي، إلا أنها لم تقتنع وبعد مناقشات وشد وجذب بينهما أسقط في يده وخرجت أنا بشيء على مقاسي.

كانت أحذيتي مصدر صداع دائم لجدي، فلأنها من النوع الرخيص كنت أعود بها إليه بعد شهر وربما أسبوعين إما بلا نعل أو مفتوحة من البوز حتى المنتصف، ويدور هو على المحلات لإصلاحها. رجعت لهم مرة بفردة واحدة بعد أن شطت بالأخرى حجراً في الشارع، فانخلعت رغماً عني وسقطت في بالوعة المجاري.

كادت أن تقتلني جدتي يومها، وضعت قطعة نقود معدنية في فتحة أذني وظلت تفركها وأنا أعوي بأعلى صوتي. وطلبت من أمي بغضب أن تذهب وتسحب ثمن حذاء جديد من دفتر التوفير الذي تضع به النقود التي أتينا بها من البلد، فجدي ـ وكما قالت ـ لن يشتري لي من حر ماله أي شيء بعد ذلك، وأنا أعدو أمامها وأصيح:

- ملكيش دعوة إنتي، جدي حبيبي وهيشتري ليه كل حاجة يابخيلة يا وحشة.

* * *

ومرت الأيام في المدرسة، وإن لم تخلو من المنغصات..

ففي يوم التفتيش الأسبوعي ونحن مصطفين في الطابور الصباحي، أول تلميذ تقع أعينهم عليه هو أنا. كنت ملفتاً للنظر بجسدي النحيل وهو يخب في قميص أشبه بقميص الأكتاف، وبنطال يصلح لأحد المدرسين وليس لي، وجورب رجالي تدلى من عند موضع الركبة وارتخى على مقدمة الحذاء هو وحلقة الأستك البيضاء العريضة التي تحيط بفتحته.

يخرجونني بإشارة إصبع مستفتحين بي طابور المذنبين، ثـــم يـــمرون على
الصفوف. عادة ما يلحق بي الولد الذي يأتي بالكتب والكراسات في كيس مخدة أخاطته أمه من الجانبين بخيط أسود بارز، وولفت له يدين من الدوبارة، وجيب خارجي من خرقة صوف قديمة ليضع فيها الأقلام والمسطرة وباقي أدوات المدرسة، حتى بدا الكيس في شكل حقيبة. ثم يخرجون ما بين عشرة إلى خمسة عشرة تلميذاً لأسباب متفرقة، مزق في البنطلون أو ياقة القميص، رائحة زفارة بيض أو طبيخ، وإصابات الأحذية كان لها بالطبع النصيب الأكبر.

تشتد رائحة الفسيخ حتى تزكم أنف حضرة الناظر، فيبدو عليه التأفف. وتكون هذه إشارة لثلاثة مدرسين يقفون دائماً إلى جانبه، ينطلقون وراء بعضهم مشكلين فريق بحث. كان مصدر الرائحة مجهولا في البداية حتى عنا نحن التلاميذ، والمدرسون يتشمموننا ويزغدوننا بأياديهم كي نعترف ويدورون بأعينهم في كل مكان، وكأنما هم في سباق مع بعضهم للوصول إلى الجاني.

الأستاذ لهيطة مدرس الألعاب هو الأسرع ..

يطبق بيديه على ابن عم جرجس الفسخاني الذي يقف على ناصية شارعنا، فسيختين كل واحدة في نصف رغيف خبز بلدي، وبصل أخضر وثمرة طماطم حامضة في جيب المريلة الثاني. يرفعون يده عالياً بوصفه أوسخ تلميذ في المدرسة، ويجره مدرس الألعاب من أذنه ويسلمه لحضرة الناظر.

لا يلمسه الناظر.

يظل يدفعه بطرف عصاه حتى يقف في منتصف المربع الذي يتشكل منه الطابور كي نراه كلنا، وهنا يأتي دور عم طلبة الفراش. يشمر كميه الواسعين ويقترب بخطوات متعجلة ثم

يحمله بيديه المدربتين، واضعاً المؤخرة في وضع مناسب أمام حضرة الناظر، والذي ينفخ في راحة يده ثم يعود خطوة إلى الوراء ويهوي عليها بعصاه الخيزران عشر مرات، وقد يزيد إذا كان مزاجه متعكراً.

يلتفتون بعدها إلى الواقفين في طابور المذنبين، نمد أيادينا بحكم العادة ونتلقى عدة ضربات بالعصا أو بمسطرة. لا تكون الضربات موجعة فبعد أن يفرغ الناظر تفتر الحماسة دائماً، حتى إنهم كانوا ينسوننا واقفين في بعض المرات ويستكملون الطابور ومراسم تحية العلم ونحن لا نصدق أننا نجونا.

***

كل هذا يهون، وعصا مدرس الحساب في الفصل تهون أيضاً.

المشكلة التي ليس لها حل، أن الأولاد في المدرسة عرفوا أن أمي يهودية.

كنت أنا وحسن وفهمي ابن الباشكاتب نتكتم الأمر كأنه سر حربي، لا يرد على ألسنتنا أبداً، وإذا جاء على بالي مرة يجيء خطفاً وأنشغل بعدها بما ينشغل به من هم في سني. لكن ما الذي أفعله لابن عم زكريا ترزي القمصان في العمارة المجاورة لنا، استشاط غضباً عندما تدخلت مؤازراً حسن في المشاجرة التي نشبت بينهما.

ركلني بقدمه وهو يقول بازدراء:

- إبعد إنت يا ابن اليهودية ..

شُل تفكيري من المفاجأة وامتثلت على الفور دون أن أنطق بكلمة، وعندما انتشر الخبر في المدرسة أغلقت الدنيا كل أبوابها في وجهي. أنام مهموماً وأستيقظ مهموماً، وأتلكأ منتحلا كل يوم عذراً حتى لا أذهب للمدرسة، وعندما تغضب أمي مني أحمل حقيبتي وأجر قدمي وأخرج.

obeikandi.com

تسألني بعدها عن السبب فلا أجيب، ولما تمل من تكرار السؤال تتركني وتمضي وأظل أحدق أنا فيها من الخلف.

وبدأت أتابعها عندما تكون غافلة عني .. أتأملها وهي تغدو أمامي في البيت بعدما كنت لا أعرف هذا الشيء من قبل، وعندما تجلس في المساء على كنبة الصالة وتمسك بالكتاب المقدس لا تغفل عنها عيناي، وكأني أترصدها وهي تقترف شيئاً آثماً .. وأرنو إليها وهي جالسة أمام المرآة بغرفتنا .. لحركاتها .. ويديها وهي تمشط شعرها .. أو إذا انثنت لتلتقط شيئاً سقط منها .. وأسحب بصري إذا التقى بعينيها على صفحة المرآة .. وعلى صغر سني بدأ قلبي يلوك في أشياء لا تقال .. وتجتاحني كآبة يعقبها إحساس لا أدري كنهه، فأقوم واحتضنها بلا سبب، تتبسم لي ساعتها ابتسامة عاتبة ثم تأخذني في أحضانها، وأنا جزء مني يضنيه الندم ويرتخي على أكتافها، وجزء لا يزال على حاله الأول.

وصرت أخاف المدرسة .. وكأن ولداً يتبعني خطوة بخطوة، وعندما التفت ورائي لا أجده .. وأخشى أن يغافلني أحد ويشد بنطالي فيرى الأولاد عورتي، أو يصوب لي أحدُ منهم لكمة وأنا غير منتبه .. وبدأت أعمل ألف حساب للجالسين ورائي في الفصل، كنت أشعر بهم وأكاد أجزم بأنه ولا واحد منهم كان مع المدرس .. كانوا معي أنا .. يتهامسون وأنا لا حيلة لي ..

ولم يسلم الأمر أيضاً من مشاجرات، تستخدم فيها الحقائب والمساطر والأشياء الملقاة بفناء المدرسة. كان حسن وفهمي دائماً معي ويدافعان عني، لكن ماذا يفعلان أمام الكثرة.

عدت مرة من المدرسة بعد عراك وإهانات لم تتوقف إلا على أول الشارع، فوجدت إمام عندنا. كان قد غاب عنا أشهر طويلة، رأيته حزيناً على غير عادته.

قال: إن جدي مات، سقط كوب الشاي من يده وهو جالس مع أصحابه، وأسلم الروح في الحال.

سألته بشكل تلقائي عن خرشوف؟

قال: إنه فقد بصره ووجدوه ذات صباح ميتاً بجوار الباب، وطلب من أمي أن تذهب للعزاء إكراماً لجدتي، عرض عليها أن يأخذها بسيارة ويعود بها في
نفس اليوم، إلا أنها قالت: لا.

قالتها له بإصرار، وأنا أرمقها بدهشة وحنق.

* * *

obeikandl.com

(١٧)

جاءني جدي لأبي في المنام.

كأني كنت ألعب أنا والعجل الصغير في الشونة التي في البلد، أكلمه فيرد عليَّ، أهم بشد ذيله فيسرع مختبئاً مني، ومن الخارج جاءني صوت جدي. كان واهناً، وجدي يأخذ أنفاسه بين الكلمة والأخرى على غير عادته، سمعته يسعل بعدها سعالا مؤلماً، وينادي على جدتي أن تسعفه بشربة ماء. خرجت مقتفياً أثر صوته، حسبته في الغرفة التي كنا ننام فيها أنا وأمي. اتجهت صوبها ولسعة خوف تسري في بدني، فالبيت كله لا حس ولا حركة وغبشة خفيفة تملأ الجو. توقفت لما رأيت كلبين على مقربة من باب الغرفة يزومان في وجه بعضهما ويتأهبان للعراك، انحرفت مسرعاً نحو الدهليز.

الدكك كلها مليئة بالناس. أناس ليسوا مثلنا. شعورهم طويلة كشعر النساء وتتدلى على أكتافهم، ولهم شوارب كشوارب القطط، ولم يكن جدي بينهم. سكتوا لما اقتربت، ووقفت أنا الآخر على مسافة منهم. عيونهم تحدق في. لم ألحظ في السابق أنها الأخرى تلمع كعيون القطط. واحد منهم ـ أظنه كبيرهم ـ يدعوني أن أتقدم، وشيء يقول في أذني: ابتعد، إنجو بنفسك، أسرع! أسرع من هنا! وأنا لا أقدر على تحريك قدمي. ماتت مني. أمسكت بها

الأرض ولم يعد لي عليها أي سلطان.

لم أتذكر الحلم إلا وأنا راجع من المدرسة في اليوم التالي، جاء على بالي لما رأيت المعلم حبيب جالساً بجلبابه وعمامته على مقعده المعتاد أمام محل عصير القصب. أخذت درجات السلم ثلاث في ثلاث وأرتميت على أمي أحكيه لها، وأنا أنهج وقلبي ينتفض من شدة الانفعال.

تأملتني برهة، وقالت وهي تحك جبهتها بأصبعها حكاً خفيفاً:

- يا ريتني ما استحيت أقول للواد إمام يفكر عمك بالفلوس اللي اتعهد بيها جدك.

قلت لها وأنفاسي ما تزال تروح وتجيء:

- أنا مش تايه عن صوت جدي ولا كحته. مش تايه. والناس اللي كانوا قاعدين على الدكك وحشين وشكلهم يخوف.

تطرق أمي وهي تعاود الحديث بصوت هامس:

- دي تبقى مشكلة لو الراجل ده اللي اسمه إبراهيم عاكسنا في الفلوس.

وأنا أقول:

- جدي والله العظيم!! جدي عبد الحميد!أنا متأكد وكان بينده في الحلم على جدتي.

* * *

وعندما جاءت جدتي إيفون تستطلع الخبر أومأت لي أمي كي أذهب وأبدل ملابسي، تلكأت فنهرتني وسمعتها تقول لجدتي وأنا أدخل غرفتنا: إنها احتارت في أمري، أكلتي خفيفة ودائم السرحان، ولا تمر ليلة إلا وأزوم فيها وأنا نائم وعندما توقظني أقوم مخضوضاً.

أغلقت الباب ووقفت وراءه أتسمع حديثهما، كانتا تتكلمان عن جدي.

تقولان: إنه رجل جاهل ولو لم يكن مع أمي أوراق رسمية لطردها من بيته ولم يعترف بأن له حفيدًا ، وأخذا يلعناه في تربته هو وجدتي السهتانة البهتانة وإمام خيال المآتة.

وقالت أمي: إن التيس يفهم أكثر من عمي، وحمدت الله أنه ليس لعمي قرون وإلا لنطحها بها لما كانت في البلد، وتعجبت من شرعنا الذي لا يورثها أي شيء في تركة جدي.

وجدتي تقول لها بغيظ: ألم تكوني زوجة ابنه وأنجبتِ منه.

- وحق جلال في ورث جده؟

قالتها أمي بحسرة، وأضافت جدتي بإصرار:

- أيوه حقه في كل حاجة! في الغيط والبيت والمواشي، حتى في البط والفراخ والوز كمان وكل قشاية عندهم.

- ومين يقدر يقول لهم كده؟!

- أنا عارفه انهم ولاد قحبة، ومفيش حل إلا إن أبوكي يوكل محامي. بس الوقت. خايفة لا الوقت ميسعفناش.

أجابت أمي:

- عارفة عارفة، أنا إيه اللي شبكني الشبكة السودة دي، كان زماني مسافرة معاكم.

بعد أن أتما حديثهما وقفت برهة ساهماً ثم استلقيت على السرير بملابس المدرسة، نادت عليَّ أمي كي آتي للغداء فقلت لها: إني مريض، ومكثت بقية اليوم في السرير متحججاً برأسي.

* * *

مضت أيام وأيام بعدها وجدي يتراءى لي. ليس في المنام فقط، وإنما في اليقظة أيضاً. لا يجيء على بالي عفواً وإنما أنا الذي استحضره. لما قابلنا أول مرة، وعندما كان يحملني عالياً وأنا أعبث بزر عمامته، ولما كنت جالساً إلى جواره والهواء ينفخ جلبابه. وجدتي. وجهها الساكن ووجنتيها العاليتين،

والحسنة الصغيرة التي على مقربة من فمها. لم تــكـن ســـوداء. كـــان سمارها
خفيفاً ولا تلحظها أبداً، إلا إذا دققت النظر في وجهها.

ولم أكف بعدها عن الحديث عن جدي لأبي ..

ليس مع أمي فقط أو حتى جدي زكي، مع الأولاد.

أقول: إنه كان العمدة، وعنده خفراء وسجن يحبسون فيه الناس وأرض لا أول لها ولا آخر، وأن عمي إبراهيم هو العمدة الآن وأهل البلد يعملون له ألف حساب. وأصف من خيالي بيته الكبير والدوار والشونة التي بها خمسون بهيمة أو يزيد، وأشجار الكافور العالية التي تمتد بحذاء الترعة، والنسوة اللائي يتجهن صوبها حاملات الهدوم والمواعين لغسلها، والأولاد الذين يأتون إليها خلسة وينزلون عرايا في الماء.

وحسن وفهمي لا يملان من السماع عن دنيا الريف التي يجهلانها خاصة وأنا أضيف جديداً كل يوم، وإذا رأيتهما مشدوهان بشيء مما أقوله أسهب في الكلام عنه ومخيلتي والحمد لله لا تكف عن العطاء.

وبدون أن أشعر كان لهذا الزهو أثره في أول مشاجرة نشبت بعد ذلك، شتمني ولد بأمي، فرددت عليه الشتمة بأقذع منها وصياحي يتعالى: بأني ابن العمدة. يزغدني أحد فأركله بقدمي، ومن يتربص بي ألقاه غير هياب. وحسن وفهمي إلى جانبي، ينشرون عني الأخبار ويقولان لعيال المدرسة: إن أهلي في البلد عندهم نبابيت وعصي غليظة ولو جاءوا سوف يكسرون عظامهم بها، حتى حضرة الناظر لن ينجو منهم. وانقلب الموقف لصالحي، لم أعد مستهدفاً من أحد، الشيء الوحيد الذي ظل يسبب لي كدراً هو النظرات التي تلاحق ملابسي الفضفاضة.

* * *

وجاءنا إمام ..

أتى بعد نهاية العام الدراسي، صعدت من الشارع فوجدته جالساً مع أمي. بشاشته بلقائي لم تخف عني آثار الغضب البادية على وجهها، قطعت عليهما الحديث وظللنا نحن الثلاثة صامتين برهة. أمي وجهها محتقن، وإمام يسوي قبة جلبابه البلدي المزمومة على رقبته، وشعيرات بيضاء زحفت على مقدمة رأسه وفوديه. كان ينظر إلى أمي من تحت لتحت، لمحته فتشاغل بطاقيته. كبسها على رأسه ثم عاد وخلعها، أخذ يسوي أطرافها ببطء ووضعها على ركبته. تبسمت. تذكرت جدي عندما كان يخلع عمامته، ويده وعينه عليها خوفاً من دلو الماء الذي كان يحمله.

سعل إمام سعلتين قصيرتين، أظنهما كانتا مفتعلتين، ثم عرض على أمي أن يأخذني معه لزيارة عمي.

قال لها ونظرة راجية تبدو في عينيه:

- يوم ولا يومين يا أم جلال، وهجيبه بنفسي.

قالت: لا، اللي عايز يشوفه ييجي هنا.

ولما هممت بالكلام أسكتتني بإشارة من يدها وقالت:

- لأه يعني لأه ..

وقبل أن يغادرنا إمام دفع لأمي الأشهر المتأخرة، وظل عمي منتظماً في السداد بعدها لكنه لم يحضر ولا مرة لزيارتنا.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٨)

أظل ألعب في الشارع ليلة الجمعة من العصر حتى ما بعد أذان العشاء.

تنادي عليَّ جدتي من الشرفة كي أصعد.

أرفع رأسي إليها متأففاً ولا استجيب. تعاود النداء بغيظ. أدعي الطرش. تميل بجذعها فأعرف أنها تخلع الشبشب. كانت في الأول تكتفي بالتهديد به. تلوح به في وجهي وينتهي الأمر. تغير التكتيك الذي تتبعه في التعامل معي بدءاً من هذا الصيف. أصبحت تقذفني به بلا سابق إنذار، والغريب أن ضرباتها لا تخيب أبداً رغم أنها عمشاء، فلم أفلح ولا مرة في تفادي شبشبها البرتقالي المفلطح ذي الفيونكة الحمراء، فإما أن يأتيني على رأسي أو في جنبي أو في أي مكان آخر موجع تصوب عليه. وإذا حالفني الحظ وراوغت بجسدي أتلقاه بين يدي كالكرة. أصعد وألقيه تحت أقدامها ويكون جهازي العصبي لحظتها في أقصى درجات الانتباه، فأصابعها وبحكم العادة تنقض على أذني. لكن على من يا أم منقار! أكون قد طرت من أمامها، أستحم وأتعشى وأتجهز لمشاهدة الفيلم العربي بالتليفزيون.

كانت تستهويني أفلام (فيروز) وأتخيل نفسي مكانها على الشاشة، أغني وأرقص وأجعل أنور وجدي يشد شعره مني. ومع ذلك لم أر كلمة النهاية أبداً. أبدأ في النعاس في منتصف

الفيلم تقريباً، هذا إذا لم أنم ـ نوم ثقيل وبشخير ـ وهم لا يزالوا يكتبون أسماء الممثلين على الشاشة. إذا كان جدي أو أمي لا يزالا يقظان يحملني أحدهما ويضعني في السرير. لا تفعلها جدتي أبداً، تقول: إن عندها الغضروف وأنا بسم الله ما شاء الله مثل العجل ولو حملتني لخلصت عليها. إن تصادف وكان الفيلم من أفلام الرعب أو الأكشن يطير عقل جدتي، تترك ما في يدها وتتربع أمام الشاشة وحواسها كلها تنبض من الترقب والانفعال، أما جدي فيمط شفته ويتركنا لينام ووراءه بدقائق أمي. وفي آخر السهرة تنغزني في صدري، وتصرخ في وجهي كي أصحو. أقوم مسروعاً بالطبع، فتجرني من يدي كأني عنزة هاربة من صاحبها وتدفعني على السرير إلى جوار أمي، لأظل نائماً حتى أذان الجمعة.

* * *

إلا هذه الليلة ..

كنا في عز الليل وأيقظتني حبسة البول، تحسست موضع أمي فلم أجدها وكان نور الصالة مضاءً وأصوات تأتي منه، كأن حقائب تجر وخيالات تروح وتجيء مسرعة على زجاج باب غرفتنا.

استطعت تمييز صوت راشيل ابنة خالتي، كانت تكلم جدتي ثم أسرعت نحو باب الشقة، وخالتي بيلا تمضي في أثرها بكعب حذائها العالي وهي تقول لأمي: إنه لا وقت لخلع البراويز من على الحائط فلا مكان لها في الحقائب.

غادرت الفراش وأنا بين الدهشة والنوم، واربت الباب قليلا ووقفت أنظر.

جدي يجلس ببدلته الكحلي، والكرافتة الرمادي غير معقودة. طرفاها يتدليان بغير تساوٍ، والجزء الذي يستخدم لعقد ربطتها يبدو أغمق قليلا من لون الكرافتة، والقميص متسخ وبنصف

ياقة، النصف الآخر مدسوس تحت ياقة الجاكت ولم ينتبه إليه جدي، والطربوش جزء منه يستند إلى حافة الكنبة والباقي في الهواء ويهتز لأقل حركة.

وجدي نفسه وجهه معتم وكأنما شاخ في العمر عشر سنوات أخرى، عيناه مزمومتان ورأسه مطأطأة إلى أسفل. نفس الهيئة التي أعرفه عليها عندما يكون مكروباً. أما جدتي فكما العصفور، من غرفة إلى غرفة. توصي أمي بقبض الجمعية في ميعادها من أم فؤاد الداية وإرسالها لها ـ فرنكات ـ مع قريبنا (أرتين) الذي سوف يلحق بهم قريباً، وتسرع إلى الشرفة ترد على هارون زوج ابنتها بيلا الذي ينادي عليها من الشارع، ثم تمسك بكتف أمي وتحثها على إنهاء أوراق سفري من المزغود بأي طريق، لم أعرف وقتها أن هذا المزغود هو عمي إبراهيم.

صعد خالي شمعون وأخذ آخر حقيبة، قال لجدي وهو يلهث: إن هذا ليس وقت الجلوس على الكنبة وعليه أن يسرع فالطائرة لها مواعيد.

قام جدي على ثلاث دفعات ..

وعندما انتصب أخذ يحدق في صورته المعلقة على الجدار. كانت مائلة إلى اليسار قليلا. عدل حافة البرواز فمالت منه الصورة نحو اليمين. اقترب أكثر يعالج الحافة بحركات خفيفة من إصبعه. شاطت النار في جدتي لما رأته. شدته من كم البدلة وهي تصيح فيه بصوت عال. لم يرد عليها. أذعن وانحنى ليأخذ الطربوش. خطفته من يده، وقالت بغضب: إنهما ذاهبان إلى باريس وليس إلى الفلاحين، ولو رأوه على رأسه لكان مسخرة الخلق هناك، وطلبت من أمي أن تشحته للبواب أو للسمكري الذي يصلح (بوابير الجاز).

أمسك جدي بيد أمي وقال لها بصوت خفيض: ألا داعي لذلك، فالطربوش على رأسه من ثلاثين عاماً ولا يصلح حتى

لرأس كلب، أجابته أمي بحنو: بأنهم حتى هنا لم يعودوا يلبسون الطرابيش، وأنها سوف تحتفظ له به وتحضره معها هو وكل الصور التي على الحائط.

تبسم واحتضنها. كان وجهه ناحية باب غرفتنا. تلاقت نظراتنا فاندفعت إليه وبكاءً حاراً ـ وبصوت ـ ينطلق مني. إرتميت عليه فحملني إلى
صدره. كانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي ويمسح دمعه بكفه مثلما أفعل.

أخذتني أمي منه لما ازداد بوق السيارة التي في الأسفل، فوقفت أتطلع حولي وأنا لا اصدق ما يجري، وبدا هو كشخص آخر. ليس جدي الذي أعرفه. لا ينطق بكلمة. عيناه شاردتان وكأنهما منتفختان، وبلا حتى غطاء على الرأس أو أي قدر من الهندام. حاله كله كان مزرياً.

أمسكت جدتي به واندفعت إلى الخارج، وقبل أن أسمع صرير الباب وهو يغلق علينا التفت للحظة، حاول أن يقول لنا شيئاً غير أن حلقه معق منه الكلام ..

* * *

obeikandl.com

(١٩)

بعد سفر جدي مات البيت، وفقدت أمي نضارتها ..

أذهب للمدرسة وهي نائمة وأعود وهي لا تزال في السرير، أشتري أي شيء من البقال نتقوت به ونقضي أغلب النهار ـ تقريباً ـ بلا كلام. هي في غرفتها لا تخرج منها إلا للأمر الضروري، وأنا في الصالة إما ممدداً على الكنبة أو أحل واجبات المدرسة، ولم يطاوعني قلبي ولا مرة على فتح التليفزيون.

ساعات كنت أسمع تكة أكرة باب غرفة جدي فأرفع رأسي من على الكراسة، تكون أمي قد دخلت والباب مواربا، بحركة لا واعية تتراجع أصابع يدي اليمنى إلى الوراء وتستقر مؤخرة القلم الرصاص بين شفتيّ وأمد رأسي قليلا، وبحذر، متتبعاً مسارها. تتجه مباشرة إلى سرير جدي. تقف أمامه ساهمة. كان عالياً ويتدلى على جانبيه اللحاف الثقيل الذي طالما تغطى به، وأعمدته النحاسية الأربعة تقف في صمت، والكرات النحاسية التي تعلوها والتي على شكل وجه إنسان عيونه جاحظة، ترمقها أينما اتجهت. تشد أمي اللحاف بوصة من هنا وبوصتين من هناك وتعدل من وضع المخدة أو تقلبها على الوجه الآخر، وتستدير ناحية الدولاب، في التفاتتها تلتقي نظراتنا فأخرج القلم من فمي وأعود للكراسة. أسمع صرير ضلفة الدولاب فأعود لها

بعيني، أراها وهي تخرج طربوش جدي. تتأمله ثم تضعه على رأسها. أتبسم وأزداد تطلعاً لها. تخلع الطربوش وتمسح جوانبه بباطن كفها ثم تعيده إلى مكانه. تلتفت نحوي. أبدو منهمكاً في الكتابة ولا أشعرها بنظراتي. تنحني لتأتي بثوب قديم لجدتي من أسفل الدولاب. تزيح بهزات سريعة من أصابعها الأشياء العالقة به، ثم تضرب الثوب بيدها ضربات متتالية. في السكون الذي نعيش فيه تبدو ضرباتها مدوية، وإذا كان الوقت نهاراً والشمس لا تزال تنفذ من شيش الشباك، كنت أرى غباراً خفيفاً يتصاعد إلى أعلى ثم يعاود الهبوط سابحاً مع أشعة الشمس، وأحس بدفء الغرفة وهوائها الثقيل يتهاديان إليَّ وكأنما أتنسم أنفاس جدي وأسمع صوته.

تخرج أمي والوجد يتقطر من عينيها ..

تسألني: إن كنت مشتاقاً لجدي؟

أومئ رأسي بالإيجاب.

وكنت في جلستي أسمع صوت الأولاد وهم يلعبون، فيهفو قلبي قليلا إلى الشارع. أخرج إلى الشرفة لأتابعهم من أعلى، يلمحني واحدُ منهم فيصيح بأعلى صوته:

- جلجل، إنزل يا جلجل.

ويوقفون اللعب ..

ينادون كلهم عليَّ مشيرين بأيديهم أن أنزل. أتحجج بأي شيء ولا أستجيب. كنت أظن أني بذلك أواسي أمي في وحدتها. ولما تكرر نداء الأولاد أرغمتني هي على اللعب معهم. عندما نزلت لم أشعر بأية فرحة وكأني مريض ولا أقوى على اللعب، فلم تكن أمي وحدها هي السبب أنا الآخر كنت مكتئباً لفراق جدي.

* * *

ولم يدق بابنا أحد طوال عشرة أيام.

obeikandl.com

كـل الجارات كن عاتبات على أمـي لأنهـا لـم تبلغهن بـميعاد السـفر حتى

يسلمن على جدتي وخـالتي بيلا، ولـم تجد إعتذارات أمـي نفعـاً. كن يمصمصن شفاههن أو يلوين وجوههن إذا رأينهـا علـى بـاب الشـقة تنـادي علـى البـواب مـن بئـر السـلم، أو تضـع صـندوق القمامة جانباً.

وبـدأت عزلتنـا لـولا أم حسـن رغـم أنـهـا كانـت أول العاتبـات، جاءت لزيارتنا فتلتها الباقيات.

قالت لأمي مرة:

- أنا خايفة ياكاميليا لنصحى يوم لا نلاقيكي ولا نلاقي جلال.

لم ترد، تشاغلت بفك عقدة الطرحة من على جبهتها، والتفتت إليَّ تطلب مني أن آتي لها بدبوسين من على التسريحة.

أردفت أم حسن:

- هو الأستاذ زكي والجماعة سافروا على فين؟

ثم مالت تهرش جنبها، ونظرة ماكرة تعلو وجهها وهي تكمل الكلام:

- أوعى يا حبيبتي يكونوا سابونا وراحوا على البلد المدعوقة دي اللي اسمها إسرائيل.

هبت أمي واقفة وهي تقول: إنها تسمع خروشـة فـي المطـبخ. أكيـد الفـأر الـذي يأتينـا كـل يـوم مـن الشـباك الـذي علـى المنـور، وأسـرعت والشبشـب فـي يـدها، وانحنـت أم حسـن هـي الأخـرى تخلع شبشبها. صدقت أمـي وطـرت وراءهمـا وفـي يـدي شبشـب جدتي الذي كانـت مقدمتـه تطـل مـن تحـت الكنبـة، واكتشـفت فـي هذه اللحظة فقط أنـه لا يـزال موجـوداً فـي البيـت. فكـرت فـي أن أقـذف بـه فـي الشـارع أو ألقيـه فـي صـندوق القمامـة، غيـر أنـي تراجعت، لم أقو على التخلص منه فجدتي هي جدتي مهما فعلت ..

obeikandl.com

كان الشباك مغلقاً وقلبنا المطبخ رأساً على عقب، لا فأر ولا حــتى نملة أو
صُرصْار، والحلل فارغة ومقلوبة على فوهاتها فيما عدا واحدة مركونة على جنب وتنبعث منها رائحة طبيخ حامض.

هزت أمي رأسها متعجبة وهي تقول:

- أمال إيه الصوت ده!! يمكن الهوا هو اللي بيخبط في الحلل.

نظرت أم حسن إلى شباك المطبخ المغلق، وقالت بنبرة لم تغب عن أمي:

- يجوز، يجوز برضه.

ثم أردفت ضاحكة:

- والفار ييجي عندكم يعمل إيه، دا المطبخ أنضف من الصيني بعد غسيله، إيه ده يا أم جلال ولا حتى فتفوتة عيش في البيت؟!

وعادت في المساء بوجبة ساخنة وبمثلها في اليوم التالي، حمدت الله فمن شهر وأكثر وأنا وأمي لا نأكل إلا الفول والبيض وعلب السردين.

* * *

obeikandl.com

(٢٠)

لم آكل طعاماً مطبوخاً من يد أمي، إلا بعد أن جاء أول خطاب من جدي..

أول ما سأل سأل عني ثم عن أمي وأصحابه خاصة المعلم حبيب، وقال: إنهم نزلوا ضيوفاً لمدة أسبوعين في شقة الأستاذ لبيب موصيري الذي يمت بصلة قرابة لواحدة من خالاته، وأنه أول واحد في الأسرة يحصل على وظيفة بمساعدة هذا الرجل الشهم، عامل نظافة في محل كبير للأقمشة صاحبه رجل يهودي بحي اسمه (بارباس)، ويسكن هو وجدتي الآن في شقة صغيرة استأجراها بالقرب من المحل. وبالشارع الذي يسكنونه عرب كثيرون من الجزائر والمغرب وتونس، لكن جدتي لا ترتاح إلى التعامل معهم، خاصة الرجل التونسي الذي يسكن في الدور الأول.

أما خالي شمعون ففشل في الحصول على عمل إلى أن أكرمه الله من يومين واشتغل شيالا بفندق (دي لاركاد) القريب من محطة (سان لازار)، وقال: إنه رأى الأوبرا مرتين، رآها من الخارج بالطبع، وهي دار فخمة ولا مثيل لها في مصر، لكن أين هي في قلبه من الأوبرا التي عندنا؟! أربعون عاماً وهو يمر أمامها كلما ذهب أو جاء من ميدان العتبة، وسأل أمي عن العشرة جنيهات

المتبقية لدى صبيه السابق الذي اشترى منه الفاترينة؟

وبعدها بشهر جاءنا منه خطاب آخر، كلامه فيه كان مؤثراً، واستحلف أمي أن تتقصى عن صحة الخبر الذي يتناقله اليهود المصريين عنده في باريس، بأن وزارة الداخلية في مصر أسقطت جنسية اليهود الذين غادروا البلاد بمحض إرادتهم وأنذرتهم أن يعودوا إلا أنهم لم يأبهوا بهذا الإنذار.

قابلت أمي صديقة يهودية لها تعمل في منزل (سلفاتور ثيكوريل) صاحب محل شيكوريل عسى أن تفيدها بشيء ولا حس ولا خبر، وذهبت إلى جارنا الأستاذ حسني الباشكاتب فأخذ أسماء وبيانات جدي وجدتي وكل الذين سافروا معهما ووعدها بالسؤال. ومر وقت طويل والرجل كلما قابلها صدفة في الشارع، يقول لها: الأوضاع غير مستقرة يا أم جلال، اصبري اصبري ما صبرك إلا بالله، ويتنحنح ويتركها معتذراً بأنه تأخر عن أم العيال.

* * *

وأخيراً جاءت رسالة من جدتي.

لم تسأل عني بالطبع أو عن أي واحدة من جاراتها القدامى، الأسطر الأولى كلها عن مبلغ الجمعية الذي لم يصل حتى الآن، وتشككت في ذمة قريبنا (أرتين). قالت: إن ذمته (أستك) مثل أبيه، وأنه لن يفلت من يدها ويوم أن تلقاه سوف تبصق على وجهه وتأخذ منه المبلغ وفوائد التأخير، ثم قالت لأمي: إن جدي أرسل خطابه الثاني من ورائها ولما عرفت بما فيه تشاجرت معه ليلة بأكملها، فقد أصابه الخرف ولا يجب أن تسمع كلامه. وأن خالي إيزاك جاء أخيراً من إسرائيل لزيارتهما، وقد تزوج من يهودية مغربية هاجرت معه هي وأهلها على نفس المركب التي أقلته من (مارسيليا). وهو ما شاء الله صحة وعز ويعمل في وظيفة محترمة هناك، وأن خالتي بيلا تفكر في اللحاق به.

أحوال خالي شمعون هي التي تقلقها فقد طردوه من وظيفته، قالوا: إنه مهمل في عمله، واتهموه بسرقة بشكير من إحدى غرف الفندق الذي يعمل به، إلا أن قريبنا موصيري ـ أكرمه الله ـ ألحقه بعمل آخر بمحل ملابس شهير بشارع (ريفولي)، حمالا أيضاً وإن كان بأجر أقل من الأول. وتتعجب جدتي من أنه لا يزال متردداً في مسألة السفر إلى إسرائيل رغم إلحاح أخوه عليه، وإن كانت هي وجدي لا يفكران في السفر إلى هناك وينويان البقاء إلى أن تلحق بهما أمي على الأقل. وسألت عما فعلته أمي بشأن إنهاء أوراق سفري من عمي إبراهيم، ولم تنس وصفه بالوسخ ابن الوسخ مضيفة إلى ذلك شتمتين أخريين.

* * *

تحسن حال أمي بالخطابات التي ترد إليها، وبدأت الحياة تعود شيئاً فشيئاً إلى شقتنا وتكثر زيارات الجارات.

يبدأن الحديث دائماً بالسؤال عن أحوالها المالية وإن كانت في حاجة لشيء أو فلوس سلف، وتدس واحدة أو اثنتين منهن أصابعها في صدرها كأنما تخرج كيس نقودها. تشيح أمي بيدها شاكرة، وظنها يقول لها أن كل هذا شغل ستات وكلام في الهواء.

بعد أن تقدم لهن التحية والتي غالبا ما تكون شاياً أخضرَ، تعتدل في جلستها ليراها الجميع وتقول بصوت خفيض: الحمد لله، ترك لي أبي مبلغاً محترماً في صندوق التوفير يكفينا أنا وجلال، ولا تتطرق أبداً للنقود التي يأتي بها إمام من عمي إبراهيم.

وإذا ثرثرن ودخلن معها في الصميم بسؤالها عن أهلنا الغائبين لم يكن يصيبها أي ارتباك، وكأنما استعدت لهذه الإجابات وتدربت عليها سراً. يخفت صوتها قليلا وهي تقول: إن جدتي تشكو من الغربة وقسوتها، والدنيا عندها لا تساوي

يوماً من أيام مصر، المشكلة في جدي، زلت قدمه وتدحرج على سلم العمارة التي يسكنون بها.

تشرأب الأعناق نحو أمي، فتتنهد وتكمل بنبرة أشد خفوتاً:

- آهــو جــاله كســر في الحوض وركبوا لـه صامولة في ركبته، آدي اللي
نابه من السفر وتغيير الجو.

يعم الصمت ثوان تتلقى أمي المواساة بعدها، يقلن:

- سلامته عم زكي. عضمه كبيرة ومش وش بهدلة. راجل في حاله ولسانه حلو.

حديثهن يكون صادقاً ومن القلب فجدي سيرته عطرة في الشارع، التحفظات على جدتي فقط.

يأتيها أحيانا سؤال مفاجئ عن خالي إيزاك، الذي يتشككن كلهن في أمره.

تنكمش على نفسها لحظة واحدة، ثم تقول متبسمة:

- ومين زيه دلوقت، آهو في تونس وفاتح ورشة نجارة هناك وحاله عال، دا هوه اللي بيصرف على علاج البابا ومتولي أموره ربنا يسعده.

ترفع امرأة رأسها بدهشة.

- بيصرف على عم زكي! وهو عم زكي فين بالظبط؟ في تونس ولا فين؟

تومئ أمي برأسها مجيبة من وحي الخاطر:

- آه في تونس.

وتسألها أخرى متعجبة:

- أمال جماعة الأستاذ حسني بتقول إن عم زكي مسافر بلاد الخواجات مش تونس!

وتتلفت المرأة حولها متوقعة المساعدة، فتقول أخرى:

- آه سمعنا إنه مش عارفه مسافر فرنسا ولا اسمها إيه دي؟!

وتنغز الجالسة إلى جوارها قائلة:

- هيه اسمها إيه يا أم عباس؟

عـــندما كانت أمي تجيب، كنت ألمح بحكم عشرتي لها كف يدها وهو
يحيط بمعصمها الأيسر ويبدأ إصبع السبابة بالهرش فيه بلا توقف، فأعرف أنها لا تقول الحق، خاصة إذا مالت بعينيها قليلا إلى أسفل وأخذ جفناها يختلجان على نحو أسرع من المعتاد. وكانت النسوة تصمتن تماماً وتختلسن النظر إلى بعضهن، وكل نظرة تحمل رسالة مشفرة.

انعكس ذلك على أمي، أصابها الضجر من لعبة القط والفأر هذه التي تلعبها مع الجارات، فبدأت في التهرب منهن ولم تعد تفتح الباب إلا لأم حسن، فالمرأة لم تثقل عليها أبداً وكانت أمي لا تزال تشعر بالحب تجاهها أما أنا فكنت عندها بغلاوة ابنها حسن.

وفي ليلة وأنا وأمي نتكلم عن جدي عرفت أنه لولا عمي إبراهيم لكنا سافرنا معه، فقد قالوا لها في الجوازات: لا سفر ولا حتى جواز سفر إلا بموافقة عمي، ولما أرسلت له بذلك مع إمام أجابها بمثل ما كانت تجيبه من قبل: لا. وألف لا.

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(٢١)

كنت قد كبرت ودخلت المدرسة الإعدادي، وأنا لا أعرف شيئاً عن الصلاة إلا من حصص الدين. أنظر إلى الشيخ زكي بانتباه وهو يقول لنا إنها عمود الدين، ومن أصبح مكلفاً بها ولم يؤدها فهو كافر ومنكر للدين. وأتابعه بشغف وهو يشمر كم الجبة والقفطان ويعلمنا كيف نغسل أيدينا حتى المرفقين، أو عندما يخلع عمامته ويرينا كيف نمسح على رؤوسنا، ويعرفنا بأوقات كل صلاة وعدد ركعاتها، والأدعية الواجب علينا الدعاء بها في وقت الشدة وعند السفر وقبل أن ننام، لكن ما أن تأتي الإجازة حتى أنسى كل الذي تعلمته، مثلما ينسى الأولاد دروس الحساب.

نكون قد أوغلنا في الإجازة وأصبح كل شيء منسياً، فيسألني أحد الأولاد مازحاً عن عدد ركعات صلاة المغرب؟ غالباً ما يكون السؤال أمام أحد الأغراب أو في جلسة جادة ويود السائل قلبها إلى مزاح.

أقول: ثلاثة..

ترتسم الابتسامة على شفتيه، غير أني في الوقت ذاته ألمح نظرة ماكرة في عينيه. ينتابني الارتباك ولا أعرف إن كان يشجعني أو يريد الإيقاع بي، فأسرع بالقول إنها اثنتين فقط وأتلفت حولي. يعاود السؤال مرة ثانية هو وغيره من الجالسين،

obeikandl.com

وأنا متشبث بالإجابة وأحلف على ذلك بالله. ويكون السؤال التالي عن صلاتي الشفع والوتر، هل هما فريضة أم سنة مؤكدة؟ أو يكون في جزء (عمّ) فأتلعثم ولا أجيب. ولم يفتح الله عليَّ سوى بثلاث سور قصار هي الضحى والليل والطارق، وبعض آيات متفرقة من سورتي البقرة والرحمن، أحفظها وأتلوها كالماء.

الغريب أنني ومن دون باقي التلاميذ إذا ما قرأت هذه السور بصوت عال في حصة الدين، كان السكون يعم الفصل ويتابعونني كلهم مشدوهين.

يرمقني الشيخ زكي بإعجاب، ويسألني إن كنت أستطيع تجويد ما قلت؟ أومئ برأسي وأبدأ في التلاوة وكأني الشيخ عبد الباسط الصغير. تنقلب الدهشة إلى انبهار بحلاوة الإيقاع الذي أتلو به، ويهز الشيخ زكي رأسه ويقول.

- الله .. الله .. فتح الله عليك من أوسع أبوابه.

وفي مرة ازداد افتتانه بي، فربت على ظهري قائلا بصوت حنون:

- بورك فيك يا جلال وجعلك الله ذخراً للإسلام يا ابن الأكرمين.

سمعت لحظتها ضحكات مكتومة، وكان أحد الأولاد من جيراننا في الشارع في مرمى بصري، رأيته وهو يخفي فمه بيده وأكتافه تهتز من شدة الضحك.

ففهمت ..

جاءت في بالي على الفور ذكريات المدرسة الإبتدائي، والذي أزاد الطين بلة ضحكة عالية أتت من الصف الخلفي، تلتها ضحكات أخرى وهمهمات وانقلب الفصل إلى لغط وفوضى. هب الشيخ زكي واقفاً وأمسك بعصاه يمر بها بين الصفوف فعم السكوت، وانشغلت عيون الأولاد بمتابعة مسار

obeikandi.com

العصا، فقد كان معروفاً عن الشيخ أنه إذا نزل بعصاه على ولد، لا يتركه أبداً إلا بعد أن تنكسر في يده.

انتهت الحصة وذهب كل إلى حاله إلا أن ما حدث لم يمر مرور الكرام، ثار فضول الشيخ وأخذ يتحرى عنى لعدة أيام وجاءت النتيجة لغير صالحي. أوقع الأبالسة بيني وبينه، وفهم حكايتي بشكل مغلوط بعد أن أدخل الأولاد عليها كثيراً من الرتوش. اعتقد الرجل أنني لست مسلماً وإنما يهودي حتى النخاع، وأن أمي تأخذني كل يوم سبت إلى المعبد لأتدرب على تلاوة مزامير داود، فأنا عضو عامل بجوقة المنشدين الصغار كما أفهموه.

صدقهم الرجل الطيب، وأخذ يتحرش بي منتهزاً أية فرصة لتكسير العصا على رأسي، ظناً منه بأنني كنت أخدعه طوال الوقت.

كنت قليل الحيلة وغير قادر على مجابهته، لكن بمرور الوقت غلبت عليه طيبته ويبدو أن ضميره أنبه فابتعد عني، غير أن حاجزاً نفسياً ظل بيننا ولم يكف هو أبداً عن ملاحقتي بنظرات الاتهام. ومع ذلك لا أنسى له أبداً يوم أن نجحت وحُزت على أعلى الدرجات في مادة الدين، إذ أقبل عليَّ ووجهه الطيب الحنون يحتويني، ربت على رأسي وأخرج من جيبه ورقة بعشرة قروش كاملة وأعطاني إياها، ودعا لي بأن أثبت على ديني مهما كانت المغريات.

فهمت بالطبع ما يقصد.

* * *

وانقضت أيام المدرسة الابتدائية، وأنا لا مصحف ولا جامع أو صيام.

وفي البيت أغلقت أمي الكتاب المقدس، لفته في قماش حرير واحتفظت به في الدولاب مع ما بقيّ من آثار جدي، ولم تذهب ولا مرة إلى المعبد بعد سفره.

تقول: إنها لما كانت صغيرة كانت تذهب هي وجدتي على أقدامهما كل يوم سبت إلى معبد (نسيم إشكنازي) الذي كان في شارع (الكوة)، وبعد أن أغلقوه استثقلتا المشوار إلى العباسية حيث معبد (القرائين)، تركوا هذه المهمة لجدي.

وهكذا بقينا أنا وأمي في الشقة، وكأن كل واحد منا بلا دين.

وفي كل يوم جمعة كنت أتطلع من الشـــرفة إلى الأولاد، وهم يســـيرون
بحذاء آبائهم قاصدين الصلاة. تحوم في سمعي ساعتها نبرات الشيخ الدمنهوري التي طالما سحرتني وأنا صغير، وأتذكر يوم أن بكيت على كتف جدي وهو يحملني ويخرج مسرعاً من السرادق الذي كنا نعزي فيه بالقرب من ميدان الجيش، وتلفني غلالة صمت وكأني وقعت في أسر شيء لا أدريه. ويعلو صوت المؤذن بالجامع فأجد قلبي مسحوباً مني ومع ذلك لا أحرك قدمي وألحق بالصلاة، أقترب بمقعدي قليلا وأضع كفي على سور الشرفة وأرخي رأسي عليه حتى يعودون.

أقوم بعدها وأدور في الشقة بلا هدف ..

أحدق بوحشة في صورة جدي الغائب .. أفتح دولابه .. أتأمل ما تبقى منه .. الطربوش وحذاء قديم وفردتي شراب مستهلكتين وجراب النظارة الخاوي .. وعند رجوعي إلى الصالة يحوم في بالي وهو يغلق الكتاب المقدس، ويلف يده على يدي ضاغطاً عليها بحنان ويأخذني ويخرج .. وجدتي إيفون وهي جالسة في موقعها المعتاد على الكنبة، تأكل من طبق الترمس والقشر يسقط منها في حجر الجلباب، وانقضاضها عليَّ يوم أن قلت لها إنها من أهل النار، وفردة شبشبها التي أصبحت

obeikandl.com

بفضل الله قادراً على الإفلات منها، يمر كل هذا في بالي قبل أن أركن بيدي على باب المطبخ.

أرى أمي ..

ظهرها تجاهي وكوعيها مثنيين وذراعيها الخارجين من الجلباب البيتي أبو حمالات أبيضين وبضين، وفي الأعلى عند الكتف حبات عرق آخذه في التكاثر من صهد المطبخ ولفح البخار المتصاعد من القدر الذي أمامها. تكون في قمة انشغالها ومع ذلك تشعر بوجودي .. تلتفت إليَّ، تومئ لي برأسها أن أدخل .. أن آتي بمقعد وأجلس بالقرب منها .. أن أتحدث معها .. لا أفعل .. وعندما

أتركها يأتيني نداؤها ممزوجاً بالدهشة ..

لا أجيب .. أتجه إلى الغرفة، وأتمدد على السرير وعيناي على السقف ..

ويأتيني جدي لأبي ..

هذا هو ميعاد قدومه، عندما أسمع أذان الجمعة ولا أذهب للصلاة، ينتصب أمامي بهيكله الأخاذ .. عيناه نفاذتان .. أخشاهما .. وساعات يلوح في وجهي بالعصا التي في يده .. أدفعه بعيداً فلا يستجيب .. أغدو فارغاً أمامه .. بلا حراك .. أعرف ما الذي يشغله .. لا أصلي ولا أصوم .. ويطفو خيال جدتي لأبي أمامي فيتسع صدري، تطلب لي الهداية وتأخذ جدي في يدها وترحل.

* * *

oboeikandari.com

obeikandl.com

(٢٢)

كنا نفطر أول يوم من رمضان عند أم حسن.

تعرف أمي نقرة يدها على شراعة الباب الخارجي، ونرى خيالها وهو يتململ على زجاج الشراعة. تنحني أمي بحثاً عن شيء تضعه في قدمها، أنا الأسرع أكون قد فتحت لها، وفي ثانية تجلس أم حسن إلى جوارنا وبالهيئة التي كانت عليها في المطبخ. جلباب بنص كم والشبشب (البلاستك) ويبدو أنها رمت الطرحة على رأسها على عجل، فلم تستر ذراعيها العاريين وشعرها أغلبه نافر ومنكوش.

تفوح رائحة اللحم المسلوق منها، وهي تقول لأمي:

- الفطار عندنا النهاردة يا أم جلال.

تعرف أمي أنه لا محالة ذاهبة ذاهبة، إلا أنها ومثل كل مرة تحاول الاعتذار.

تقول والحياء يملأ وجهها:

- ملوش لزوم كفاية جلال.

تعلو ضحكة أم حسن:

- جلال! جلال مين ده! وهو يسوى إيه من غير أم جلال، انتي عايزة الحاج محمود يزعل.

ثم تربت على أمي بحنو وتقول:

- ربنا ما يقطعها عادة.

obeikandl.com

وتطير خارجة، تنادي عليها أمي كي تبقى، فتصيح من على بسطة السلم:

- الأكل على النار وإنتي عارفة بناتي خيبتهم موردتش على حد.

أنهي واجبات المدرسة سريعاً في هذا اليوم وأقفز أمام التليفزيون متلهفاً على المسلسل العربي، غالباً ما يكون عن اضطهاد اليهود لسيدنا محمد في أول هجرته إلى المدينة. تكون أمي جالسة من قبلي وفي حجرها إبرتي تريكو وشلة خيط، ومشروع بلوفر لي ما يزال في حجم الكف.

يبدأ المسلسل فتنظر أمي إليَّ خطفاً وبربع عين ثم تعود إلى الشاشة، وجهها مشدود وعيناها لا ترمشان. لا تغير القناة مراعاة لي، لكن أحداث المسلسل تجري على نحو أقوى من تحملها، فتعلو حمرة خفيفة على وجنتيها وتجري أصابعها على الإبرة بتوتر فتهتز شلة الخيط وتسقط أحياناً من حجرها متدحرجة أمامنا، وتخطيء بالطبع مرة واثنتين في مسافات الغرز فتنفخ متأففة.

يوقع المسلسل بنا في مأزق فيتحاشى كلانا النظر للآخر أو التفوه بكلمة، وأشعر بها بعد قليل وهي تتسحب من جانبي، تغلق على نفسها باب الغرفة ولا تخرج إلا بعد أذان العصر مرتديه ملابس الخروج. لم تكن مثل أم حسن التي كانت تأتي لنا بأي ثوب، وإنما هي شيء آخر. لا تخرج من عتبة الباب إلا في أجمل هيئة سواءً أكانت ذاهبة إلى حفلة من حفلات المكابي[١]، أو لشراء جبن وزيتون من عند البقال.

تطلب مني ارتداء ملابسي أنا الآخر، أشير لها بأصابعي أن تنتظر فلم يعد باقياً على انتهاء المسلسل سوى دقيقة واحدة.

---

[١] سلسلة نوادي خاصة بيهود مصر.

ترمقني بغيظ وتسرع إلى التليفزيون وتغلقه. أهم بالخروج معها بالبيجامة فتدفعني بيدها نحو الدولاب لأغير ملابسي وأنا أتلكأ وأجادل، وفي النهاية أمتثل ونهبط معاً إلى شقة أم حسن.

تلقانا المرأة على الباب مهللة، ويكون الحاج محمود جالساً بالجلباب البلدي على أريكة في الصالة، يومئ برأسه لأمي محيياً وتأخذها أم حسن وتدخلان. يدعوني للجلوس إلى جواره ويسألني عن المدرسة وما إذا كنت صائماً مثل حسن، ثم يعود إلى المسبحة التي في حجره. ويكون البيت مليئاً برائحة البخور وقرآن المغرب لايزال في أوله. ورغم أن التليفزيون الذي عند الحاج محمود ماركة (جروندج) والشاشة عريضة وأفضل بكثير من التليفزيون الذي عندنا، إلا أنه يستمع إلى القرآن من راديو عتيق وغريب الهيئة موضوع على رف بالحائط وبجواره بطاريتان من الحجم الكبير.

تبدو الدهشة على وجهي فيشير إليه ويقول لي أنا وحسن: إنه بركة، اشتراه والدي بعد افتتاح الإذاعة المصرية بشهر واحد، ويوم أن أذيع منه أول تسجيل للشيخ محمد رفعت كنت في مطلع الشباب وأهل الحارة كلهم مدعوين عندنا في البيت.

أقول له:

- هنا في الشقة!

يتنهد ..

- لأه يا ابني كنا أيامها ساكنين في العباسية، وأول ما تجوزت جيت سكنت في العمارة دي أنا وجدك في شهر واحد، وكانت أمك دي لسه عيلة صغيرة.

ويعود للحديث مرة ثانية عن الراديو وأنه ليس له أخ في بر مصر كله، فتطل أم حسن برأسها من باب المطبخ وعنقها يتقطر عرقاً من الحر والصهد. تضحك وتصيح بصوت عال ظناً منها، أننا لا نسمع مثلها من وش الوابورين

obeikandi.com

اللذين أمامها.
- ومقلتش لهم إن المحروس بيكمل شهر رمضان بطلوع الروح، وبتاخده بعدها لعم علي أبو شفة الكهربائي علشان يصلحه. ومقلتش كمان إنه آخر مرة قال لك إنه مش هيصلحه تاني دا راديو عكر وبيجيب النحس للمحل! ولولا إنك بوست راسه مكنش عمره هيصلحه!

تبدو ابتسامة على وجه الحاج محمود ويقول:
- يا شيخة حرام عليكي، أحسن العيال تصدق.

***

يقترب المغرب ..

نلحظ ذلك أنا وحسن من نبرة المقرئ، وبوادر العتمة التي تلوح من زجاج الشرفة المغلق.

ينظر إلينا الحاج محمود ويقول: إلا أذان أول يوم، لا أنا ولا أي أحد من أهل الشارع القدامى يفطر دون أن تأتيه البشارة من الشيخ خلف.

تكون هذه الكلمات أمراً بالانطلاق، فنتأهب ونمد أيدينا إلى صنادلنا المخلوعة بجوار المقاعد. تستوقفنا أم حسن بإشارة من يدها، تكون قد غسلت وجهها وغيرت ثيابها وبدت في هيئة غير التي رأيناها عليها من نصف ساعة، والطبلية تتدحرج على حافتها في يد ابنتها الصغرى، والكبرى قادمة وراءها وعلى رأسها صينية الطعام تتصاعد منها الأبخرة والروائح الطيبة، وطبلية ثانية تدحرجها يدُ أخرى صوب الغرفة الداخلية التي تجلس بها أمي.

نشب أنا وحسن على أطراف أصابع أقدامنا لنرى ما على الصينية، تلحظ الأخت الكبرى ذلك، كانت قامتها مثل قامتينا تقريباً، تتبسم وتشب على أصابع قدميها بأقصى ما تستطيع حتى لا نرى.

تقول أم حسن:

- ملـوش لزمـه يـا خويـا مشـورة العيـال، دول صـايمين، ودلوقت نسمع الأذان

من ميكروفون الجامع اللي جنبنا.

فيشيح بيده.

- إلا كده، دي عادة يا حاجة.

لا نستمع إلى بقية الحوار، نخطف السلالم في أربع قفزات، نـرى سعيد الأخ الأكبر لحسن قادماً من الخارج. كان شاباً ويعمل في ورشة بشارع أحمد سعيد، ورغم أنه الابن البكري للحاج محمود إلا أن حسن هو الذي فاز وكنيت أمه باسمه هو.

لا نشير إلى سعيد أو نكترث به نهرول مسرعين من شارع إلى آخر، ونجد بإزائنا وأمامنا صبيان في مثل أعمارنا وأولاد وبنات أصغر يجرون كلهم لنفس الغرض. تباغتنا تكبيرة الأذان آتية من ميكروفون الجامع، فنهدئ من خطواتنا قليلا ونحن نتبادل النظر ثم ننطلق بأقصى سرعة نقدر عليها صوب زاوية الشيخ خلف غير آبهين بالأذان الذي نسمعه من جامع الحكومة، وعندما نصل نجد حشداً من الصغار قد سبقونا وتحلقوا بالزاوية.

* * *

الشيخ خلف رجل عجوز تخطى السبعين بعدة سنوات، بنى الزاوية من حر ماله منذ أكثر من ثلاثين عاماً ويقضي أغلب وقته فيها إما نائماً أو ينظفها ويؤم الصلاة، ويرفض استخدام الميكروفون لا في الأذان أو خطبة الجمعة!

يصعد من سلم داخلي يوصل إلى سقف الزاوية ..

تبدو رأسه أولا وعليها عمامة تتدلى منها شراشيب رفيعة ثم باقي جسده، وأول ما يستوي نتأمل برهبة وجهه المستدير ولحيته البيضاء وتصدر عنا في الوقت ذاته آهة ارتياح، عادة ما

obeikandi.com

يكون بجوارنا رجلان أو ثلاثة طاعنين في السن من هلافيت الشارع.

يقول أحدهم : طول عمري وأنا أراه بهذه العمامة الثقيلة، أما كان أولى أن
يستبدلها بطاقية بيضاء في هذا الجو الحار، فيلكزه آخر بكوعه كي يسكت.

يتوقع الشيخ خلف وجودنا.

يرمقنا من أعلى ونشعر بأن سقف الزاوية يرتج تحت ثقل خطواته، وهو يتقدم صوب الناحية التي نتجمع فيها. يكون أذان الميكروفون قد انتهى فنقول لأنفسنا : سيبدأ الآن. سيبدأ. سيبدأ.

ويتأهب الصغار للصياح فور إلقائه التكبيرة الأولى، إلا أننا نفاجأ بأن الأمر ليس كما نحسب. ينحني على قدمه العارية ويهرشها بغيظ، ونلحظ تأففاً على وجهه. أكيد لدغته حشرة وولت هاربة. يعتدل بعدها ويحملق بإمعان ناحية قرص الشمس الآفل، فيتبادل الرجال الذين بجانبنا نظرات تدل على رضائهم بما يفعل، ويقول نفس الرجل الذي تكلم منذ لحظة: أذانه وحق الله أذان شرعي، فكل شيء يخطئ إلا الشمس.

يتنحنح الشيخ خلف مرتين وأول ما يقول: الله أكبر الله أكبر، كان الزمام يفلت منا خاصة الصغار ..

كانوا يصيحون بأصواتهم العالية:

- هيه .. هيه .. هيه ..

ويولون الأدبار.

كنت أنا وحسن وبعض الصبية الآخرين كباراً عنهم، لذا لم نكن نحذو حذوهم ونفضل السير متمهلين بعض الشيء حتى لا يبدو علينا أننا متلهفين على الأكل مثلنا مثلهم. لكن ما أن كنا نترك الشارع وندخل العمارة كانت الشياطين تركب أقدامنا، ونقفز على السلالم قفزات جنونية وكأنما هو آخر زاد لنا.

نجد الحاج محمود وولده سعيد على الطبلية وقد التهما أطايب الطعام تقريباً، ولم يبق إلا الدهن والشغت وقطعتي لحم من الحجم الصغير، أما الباذنجان المحشو فقد أتوا على أغلبه هو والملوخية والبازلاء والمخللات، لكن ما تزال توجد كميات من الأرز والخبز تكفينا نحن والجيران. نندهش ونشعر بأن في الأمر خدعة، وقلوبنا تقول لنا إنهما وبالقطع أكلا مع أذان الحكومة ومسألة الشيخ خلف هذه كانت وبالا علينا.

لا نقول لهما: السلام عليكم..

نجلس إلى جوارهما ووجهانا متجهمان، حتى يدركا الجرم الذي اقترفاه في حقنا. الغريب أنهما لا يشعران بنا ولا يحسان حتى بجلوسنا على الطبلية معهما، وبلا وعي منا أو اتفاق نبدأ أنا وحسن في الأكل بطريقة تجافي أي ذوق أو لياقة.

كنا نريد الانتقام لهذا المقلب الذي شربناه، ولو سنحت لواحد منا الفرصة لفعل مثلما تفعل القطط وخطف قطعة لحم من يد الحاج محمود أو ولده دون تردد. الحمد لله أن الحاج محمود كان في واد آخر وملهياً عنا بما في يده، أما سعيد فبعد أن امتلأت بطنه نظر باستغراب إلى ما نفعل. زغد أخيه بكوعه في جنبه كي يحترم نفسه على الأكل، ورمقني بنظرة تحمل نفس المعنى، لم نكترث به واستمررنا غير آبهين.

لكن من سبق غلب.

إذ بعد أن انتهيا من أكل الدسم والحادق استدارا إلى صينية الحلوى التي بجوارنا، ونحن في حيرة من أمرنا ولا نعرف أيهما أجدى لنا أن نظل نأكل بقية الطعام الذي تركاه لنا، أم نتركه وندخل في معركة معهما على صينية الحلوى، خاصة وأن سعيد كان مصمماً على الإتيان عليها وطاقته توازي طاقة فحل جاموس يافع.

***

جاءتني عزومتين بعدها من صاحبين لي بالشارع، لبيتهما بالطبع.

سألت أمي: إن كنت أستطيع دعوتهما على الإفطار أنا الآخر، تنشغل بأي شيء في يدها وتبدو وكأنها لم تسمعني. يزداد إلحاحي، فتوافق متبرمة. ألقاهما في الشارع وأؤكد عليهما، يصمتان وينظران إليَّ، وعندما ألح عليهما يقولان: إنهما سيسألان أمهاتهما، وتمر الأيام دون أن يأتيني رد، فأعرف أنهما لا يريدان الأكل من يد أمي.

* * *

obeikandl.com

(٢٣)

لم يصل أحد من أفراد شلتنا إلى المدرسة الثانوية إلا أنا.

حسن رسب مرتين في الشهادة الإعدادية ووقف مع أبيه في محل العطارة، وفهمي ابن عم حسني الباشكاتب عزل مع أسرته إلى مدينة نصر، وولدان من العمارة المجاورة دخلا مدرسة الصنائع، أما ناديه بنت مدام السبكي التي تسكن في الشقة التي تعلونا فلم أنتبه إليها إلا عندما تصادمنا فجأة على باب العمارة.

كانت إحدى ضلفتي الباب الحديدي للعمارة مغلقة على غير العادة وأنا أنزل السلم قفزاً مثل كل يوم، وبقوة الاندفاع وجدت نفسي منطلقاً نحو الضلفة المفتوحة فإذا هي داخلة. سقطت منها حقيبة المدرسة، وكيس نقود صغير ومسطرة وأشياء رفيعة كانت بيدها، هبطنا على الأرض معا نلملم أشياءها والحرج والإرتباك يملآنا ..

يبدو أن زرار البلوزة العلوي كان معلقاً على شعرة، فوقع منها هو الآخر على الأرض وانفرجت فتحة البلوزة قليلا عن شريط أسود رفيع وبوادر صدر نافر يقظ. صدرت عنها آهة خافتة، ومالت برأسها تضم فتحة الصدر ووجنتاها تتضرجان بحمرة خفيفة. كانت مثنية على ركبتها مثلي ومن الخجل كانت تواري عينيها، وكأن خدراً خفيفاً يكتسينا معاً. وعندما مدت يدها لتلتقط مشطها الصغير الذي سقط بجوار قدمي، غمرتني رائحة

أنثوية تفوح من كل جسدها. رائحة تبدو بريئة وعذرية، لكنها في الحقيقة فتاكة وقاتلة.

غضضت بصري، وأنا أقول:

- الزرار. آه. ثانية واحدة وأنا أدور عليه.

- الزرار . آه. آه صحيح راح فين؟!

ولما وقفنا قالت وهي تنهج، ونداوة خفيفة تتلألأ عند مفرق شعرها:

- إزيك يا جلال.

- أنا آسف. مقصدش. أصلي كنت مستعجل.

- أبداً أبداً، دي مفاجأة مكنتش على البال.

- إنتي في سنه إيه دلوقتي؟

- تانية أدبي.

- أنا في تالتة علمي.

ومدت يدها مسلمة فأحسست بكفها الصغير اللدن طيعاً في يدي، وتركتني وصعدت على السلم بخطوات متعجلة وأنا أتابعها متأملاً. وقلبي يذكرني بها لما كانت تأتي عندنا وهي صغيرة في يد أمها، كنا نلعب الاستغماية ونجري وراء بعضنا طول الوقت ولا نكف عن الصياح، أو نجلس صامتين في الشرفة ونصنع بيوتاً من علب السجائر الفارغة التي كان يحتفظ بها جدي لسبب لا أعلمه حتى الآن. وفي مرة هدت بضربة من يدها البيت الذي مكثت أشيده ساعة كاملة، وطفقت تجري في الشرفة وأنا وراءها، وعندما أمسكتها وبلا تدبير مسبق ملت عليها وقبلتها في وجنتها. حدقت في ساعتها بعينيها السوداوين والدهشة تملأ وجهها، وقالت بصوتها الرفيع الغاضب: إنها سوف تقول لأمها، أمسكت يدها بخوف ورجوتها متلعثماً ألا تفعل، وهي تأبى وتتوعدني بعلقة سوف آخذها ولا محالة من جدتي عندما

obeikandl.com

تعلم بالأمر.
لا أظنها قالت، أو نست هذا الذي حدث.
ولعلها تشعر الآن بنظراتي التي تحتويها من الخلف وهي صاعدة، أو يحوم في بالها هذا الذي يجوس في خاطري، ففي انحناءة الدرابزين التفتت نحوي وأومأت برأسها متبسمة ..

* * *

مضت أيام وأسابيع وأنا لا أكف عن التفكير فيها، أو التلكؤ على باب العمارة لعلي ألقاها، وطالما جلست في الشرفة مترقباً قدومها إلى البيت أو خروجها منه.
لمحتها مرة ..
فخطفت قميصاً وبنطالاً من أعلى الشماعة، ارتديتهما وأنا في طريقي إلى الباب، ثم حذائي الملقى بجوار الكنبة وانطلقت مسرعاً إلى بسطة السلم أتلفت عليها.
لم أكمل.
لقيت الحاج محمود صاعداً في موكب صغير مكون منه هو والبواب وعم مرزوق السمكري ومعه صبيه شلبي اللطخ والاثنان يحملان نصف شيكارة أسمنت ومفتاح انجليزي وشاكوش ومسامير لإصلاح صهريج المياه، ووراءهما ساكن بالدور العلوي وأربعة من عيال العمارة ثلاثة منهم حفاة والرابع بالشبشب والملابس الداخلية، كان واضحاً أنهم أتوا للفرجة.
سلمت على الحاج محمود فسألني عن أحوالي ووجهتي، قلت له بصوت مرتفع وعيناي على نادية وهي تخلص نفسها من الأكتاف التي توقفت بوقوف الحاج محمود:
- أنا رايح المكتبة يا عم الحاج علشان أشتري أي كتاب خارجي لمقرر اللغة العربية بتاع تانية ثانوي.
قال الرجل بدهشة: ألست في الشهادة الثانوية.

قلت بصوت ناعم وهي تمرق إلى جوارنا: بأن أحداً لا يستغني أبداً عن السنة الثانية فهي الأساس.

هز رأسه مؤكداً كلامي وقال بصوت أبوي: معك حق وبارك الله فيك، أما البواب العجوز فأزاح طاقيته البيضاء قليلا إلى الوراء وهرش رأسه وهو ينظر إليَّ متبسماً ويقول بلكنته النوبية:

- شدي حيلك يا جلال يا ابني، الهم تقيل عليكي، كان الله في العون.

وأشار إلى باب شقتنا المفتوح وهو يضيف، ونظرة ماكرة تبدو في عينيه:

- بس هرصي على الباب في الأول، دا إنتي من اللهوجة كنتي هتسيبيه مفتوح وتنزلي.

ونظر إلى حذائي.

- وكمان رباط الجزمة يا سي جلال، مالك سيباه كده! أربطيه يا ابن الحلال أحسن تتكعبلي وبعدين تتكعوري على السلم، أربطيه أربطيه الله يرضى عليكي.

لم التفت إلى كلامه وقفلت راجعاً والغيظ يعض قلبي، وأتساءل بيني وبين نفسي عن هذا الرجل الكركوب الذي طلع لي في البخت، أيكون قد لاحظ شيئاً؟!

لم تكن أمي بالشقة وأنا كمن فقد نصف عقله ولا أعرف ما الذي أفعله كي أرى نادية، وأروح أجيء في الشقة وأقوم وأجلس .. أريد أن أراها .. الآن .. الآن الآن وليس بعد دقيقة.

بدلت ثيابي، وفكرة مجنونة تلوح في بالي. قميص وبنطال آخرين، وحذاء وجورب جديدين. ونظرت في المرآة أتأمل نفسي، طولي وعرضي، شعري، لون القميص، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أدق على باب نادية.

فتحت لي مدام السبكي بمريلة المطبخ:

obeikandi.com

- أهلا يا جلال، مش بعادة يا ابني!
رمشت بعينيي ثم تبسمت، ولم يفتح الله عليَّ بعدها بشيء.
وقفت أحدق فيها كالأبله، تعطل عقلي عن العمل ولا أعرف ما الذي أصاب لساني، كل الذي جال بخاطري لحظتها أني أوقعت نفسي في ورطة وأني سوف ألقى حالا الجزاء الذي أستحقه.
- مالك مخضوض كده ووشك أصفر، ماما بخير؟!
- ماما. آه. بخير يا تانت، أنا كنت عايز...
- عايز إيه ومال صوتك عامل كده ليه، إنت عيان يا ابني؟
- آه. عندي شوية برد، وكنت عايز كتاب من الآنسة نادية.
- سلامتك. وكتاب إيه ده اللي انت عايزه؟ وهو أنتم يا ابني في سنة واحدة؟
- لا يا تانت أنا في سنه تالتة، بس المواد زي ما حضرتك عارفه مبنية على بعض.
كانت مدام السبكي امرأة طيبة ، فانطلى عليها الكلام ونادت على ابنتها بصوت عال:
أتت نادية ولما رأتني سهمت بعينيها قليلا، فقالت لها أمها بدهشة:
- دا جلال ابن مدام كاميليا إنتي مش عارفاه ولا إيه؟ دا أنتم ياما لعبتم مع بعض وانتوا صغيرين.
أجابت بصوت خافت:
- عارفاه يا ماما عارفاه.
ثم قطبت ما بين عينيها كأنما تتذكر، وأردفت وابتسامة اعتذار تلوح على شفتيها:
- بس حكاية اللعب دي واحنا صغيرين مش فاكراها يا ماما.
- طيب يا بنتي دخليه الصالون وشوفيه عايز إيه علشان أنا داخلة المطبخ.

ســـرت خلفهـا حتـى أجلسـتني علـى مقعـد بـالقرب مـن بـاب الصالون، وسألتني
وفي عينيها شقاوة:
- وهو احنـا كنـا بنلعـب مـع بعض واحنـا صـغيرين! أنـا مش فاكرة حاجة من دي.
والتفتـت برأسـها ناحيـة بـاب المطـبخ، ثـم سـألتني عـن الـذي أريده وتركتني وذهبت.
هالني الترتيب والنظام وفخامة الصالون، المقاعد صحيح من طـراز قـديم، لكنهـا كلهـا مذهبـة ومازالـت بزهوتهـا ولهـا بطانـة فضية. ومائدة رخامية سوداء اللون عليها مزهرية كريستال، وسجاد من الحائط للحائط، ومكتبة صغيرة في الزاوية بها ضلفة زجاجية تضم دُميةً لعروسة وتماثيل صغيرة. حالهم أحسن من حالنا بكثير، وأهل أمها تجار وشيوخ بالأزهر، ناس كرام كما سمعت ويرعونهما.
عـادت بعد برهة قليلة وفـي يدها الكتـاب الـذي سـألتها عنـه. سبقتها رائحة عطر هادئ. كان واضحاً أنها وضعته للتو، وعليها روب آخر غير الذي رأيته منذ دقائق. لونه رمادي فاتح ومشجر بورود صغيرة بلون نبيتي، وشعرها لا أعرف ما الذي فعلته به. أصبح ملفتاً. الحق أنه أصابني الغرور لما أحسست أن كل هذا من أجلي.
جلست على المقعد المجاور لي وكان في موضع ترى منه بـاب المطـبخ، وأخـذنا نقلـب صـفحات الكتـاب معـاً. لـم يكـن فـي ذهني بالطبع استفهام محدد أود معرفة جوابه. وبرغم ذلك كنت أبدو أمامها جاداً وشديد الاهتمام، وأول ما أشير إلى إحدى الصفحات كانت تقول:
- هيه دي اللي إنت عايز تعرفها؟
أجيب وأنا أهز رأسي:

- أيوه أيوه.
- عايز تعرف إيه فيها؟
فأسكت.
وآخذ الكتاب من يدها وأقلب فيه، وعندما أتوقف تقول:
- ودي كمان؟
- آه ودي كمان.
- دي ورقة فاضية إيه اللي إنت مش فاهمه فيها؟!

فتتوقف عيناي على شفتيها وهي تتكلم، وكانت أصابعنا تتلامس بلا قصد فينتابها ارتباك خفيف، وكنت ألاحظ أنها ترمقني بين الحين والحين، ونظراتها تقول إنها تفهم غرضي وأن كل هذا الذي أفعله كذب في كذب وأشياءً ملفقةً.

لم أشعر إلا وأنا أضع كفي على يدها فسحبتها في الحال ونظرة عتاب تلوح في عينيها، أما أنا فأرجعت كفي ثانية إلى مسند المقعد وكأن ذلك حدث مني بلا قصد واستمر الحديث بيننا.

فعلتها ثانية.

لكن الزمام أفلت مني هذه المرة، أرحت كفي كله على يدها وبلا وعي مني وجدت نفسي أضغط عليها ضغطة خفيفة وأرفعها وألثمها بشفتيَّ.

هبت واقفة وأنا معها .. رجعت خطوة إلى الوراء إلا أني لم أتراجع .. أقتربت منها .. نمش قليل بأعلى وجنتيها .. لمسته بشفتي .. أنفاسي وأنفاسها تتدافعان .. قبلتها في نفس الموضع الذي قبلتها فيه وهي صغيرة، وخطفت الكتاب من يدها وانطلقت مسرعاً ناحية الباب ..

قبل أن أنزل درجتين على السلم التفت إلى الوراء، وهي تقول لي قبل أن تغلق الباب:
- يبقى إبعت الكتاب مع تانت كاميليا، أوعى تجيبه أنت.

وأردفت بدلال:

- فاهم ولا مش فاهم ..

نزلت مسرعاً وقلبي يرفرف في صدري وينادي عليَّ وأنا أستمهله حتى نصل إلى الشقة ونختلي ببعضنا، وعند انحناءة السلم ومن الفرحة واللهوجة والتوهان اصطدمت بعم إدريس البواب الذي كان صاعداً، وعلى كتفه جردل تتساقط منه قطرات ماء على جلبابه هو والمركوب الذي يشبه القارب الذي كان ينتعله.

صاح في ضاحكاً:

- جرالك إيه النهاردة يا جلال أفندي، إنتي سرحانة كده على طول، إنتي كنتي فين يا عفريتة؟!

* * *

obeikandl.com

obeikan.com

(٢٤)

تصحو أمي في السادسة إلا ربع تماماً.

تبدأ يومها بإعداد ساندوتشات الفول والجبن، وأحياناً الحلاوة الطحينية والبيض المسلوق ومعهما العيش (الكاشير)(٢)، ثم تلفها في ورق جرائد وتضعها في الجيب الخارجي لحقيبتي، والتي أكون قد أعددتها من الليل وتركتها بمدخل الشقة.

تتثاءب وتفتح باب الشرفة فيغمر الصالة ضوء النهار، والذي غالباً ما يكون خفيفاً في هذه الساعة إذا كنا في الشتاء. ويتسرب النور ـ بالطبع ـ إلى الغرفة التي أنام فيها من مربعات الزجاج الانجليزي المحبب التي تحتل النصف العلوي من واجهة الباب، فتخف الظلمة قليلا. ولا أعرف لماذا أنتبه مع أن نومي ثقيل، وتبدو لي الأشياء في أول الأمر غير محددة المعالم والعين عاجزة عن احتوائها ..

وتأتي الأصوات من الشارع ..

عم صبحي بندائه الرتيب على الحليب الطازج، كان معتزاً بنفسه وببضاعته التي يحملها على قسطين كبيرين مربوطين بخطافين من الحديد في الإطار الخلفي لدراجته. لا يكرر النداء إلا مرة أو مرتين، وله في كل ناصية شارع موطئ قدم تتجمع فيه نسوة البوابين وهن يحملن في أيديهن

---

(٢) خبز خاص بالطائفة اليهودية.

كيزان وسلاطين من الصاج.

وعم هلال الذي لا يكف عن الصياح على الجرائد والمجلات التي يحملها في حافظة من الورق المقوى، تتدلى تحت إبطه برباط من الدوبارة معلق على كتفه. وياويلنا لو كان هناك خبراً جديداً، حادثةً مثلا أو هجمة للشرطة العسكرية على من أسموهم ـ وقتها ـ بالإقطاعيين الجدد، أو تصريح ناري للرئيس أمام المراسلين الأجانب. يظل الرجل يدب بقدمه على الأرض ويصيح بإلحاح وانفعال محدثاً فضيحة في الشارع، وكان يبدو لنا آنذاك ليس كبائع جرائد متجول، وإنما على أنه أحد المشاركين في صنع هذا الحدث.

وقد يأتي الثنائي سعيد وزكية مبكرين بعربتهما الكارو، وعليها كل أصناف الخضروات والفواكه التي لا تباع عند الفكهانية كالجوافة والتوت والجميز.

يقفا أسفل عمارتنا، حيث تبدأ زكية بالنداء على الخضار الصابح بصوت عالٍ أشبه بالغناء. ولطالما رأيتها وأنا في طريقي إلى المدرسة وهي مبطوطة على الكارو، قدماها متربتان وممدودتان أمامها وعروق رقبتها منتفخة كالحبال، ورأسها التي تزيد قليلا عن حجم ثمرة الكرنب تدور يميناً ويساراً مع النشاز الخارج من فمها، أما سعيد الذي يرتكن بكوعه على قائم التعريشة فكان يتأملها بافتتان وهو يمسح شاربه بطرف لسانه. وأول ما تنتهي من وصلتها كان يضع إصبعي الإبهام أسفل شحمتي أذنيه ويتوتر كفاه الواصلان حتى منتصف عمامته، ويبدأ هو الآخر في النداء. لكن والحق كان نداؤه ذو إيقاع عذب، وأرق بكثير من صوت زكية الذي كان أشبه بالسرسعة.

والملهاة تكتمل لو تجاوب معهما الحمار الذي يشد الكارو.

كان ضامراً وله كرش كبير وكفلين ليسا مستديرين أو جلدهما مشدود كسائر الدواب، وإنما يكادا أن يكونا مستطيلان وتعلوهما بقع متناثرة أخذت في الازدياد هذا الشتاء حتى وصلت إلى منتصف بطنه، ربما من الجرب أو كثرة الهزال. وهو على ما يبدو له في الطرب. كنا نراه وهو يتلاعب بأذنيه الكبيرتين تبعاً لمسار الغناء خاصة عندما يكون بصوت زكية، وكانت قوائمه تتقلقل على الأرض في هزات صغيرة ومرحة، وبين الحين والحين يكف عن الحركة تماماً مكتفياً برفع منخريه في الهواء وقلب شفته إلى أعلى. أظن أنه في هذه اللحظات يكون في أقصى درجات الاستمتاع بالغناء، بل وفجأة كان يقطع الطريق على سعيد آخذاً منه زمام المبادرة، ويرد هو على زكية بوصلة من النهيق الطويل.

من الظلم تصنيف هذا الذي يصدر عنه على أنه مجرد نهيق ـ عادي ـ كالذي يفعله غيره من الحمير، وإنما كان نهيقاً فيه نغم وفيه شجن لا يصدر إلا عن حمار موهوب. ولا أعتقد أن أحداً في الشارع يقدر على النوم بعد وصول هذا الفريق، إلا أصحاب الحالات الخاصة من أمثالي.

* * *

تأتيني كل هذه الأصوات مشوشة غير واضحة، وأشعر بحركة أمي في الشقة، ومع ذلك لا أعرف على وجه اليقين ما إذا كان كل هذا يحدث في اليقظة أو في المنام؟!

هي ثوان قليلة يكون انتباهي فيها منقوصاً، وسرعان ما يخطفني النوم وأبدو أمام نفسي كمن يهوي في فراغ معتم.

وتذهب أمي إلى المطبخ، لتعد لنفسها كوباً كبيراً من القهوة المخلوطة باللبن الحليب.

لم يكن هذا المشروب معروفاً وقتها في عمارتنا ولا حتى في حي الظاهر كله، اللهم إلا البيوت التي عاشرت الأجانب. جدتي

هي التي أتت به إلى بيتنا من صديقة لها كانت تعمل (كمريرة) في بيت القطاوي باشا، وكانت النسوة تتعجبن من هذا الذي نشربه ويقلن:

- حد يا ختي يعمل كده!!

- اللبن يا أم إيزاك، اللبن الحليب!! ويتحط على إيه! على القهوة بتاعة المزاج وعدلة الراس!

وفي مرة قالت أم حسن لجدتي: إنها لما حكت لزوجها لم يصدق، وعندما طلبت منه أن يجرب رد عليها ساخراً:

- إنتي تتكلمي في اللحمة والبامية والكوسة ولحد القهوة ملكيش دخل.

التفتت جدتي إليها في دهشة، فأردفت:

- معلوم دا راجل صاحب مزاج ومبيدقش القهوة إلا سادة ومحوجة بالحبهان، ولو جت له مرة من غير وش كان يزعق ويعمل غارة وساعات يرميها على الأرض.

أفلت لسان جدتي منها كالعادة:

- وطبعاً لازم ياخد لحسة أفيون معاها.

نظرت إليها أم حسن بحنق ولولا أنها تحب أمي وتعمل لها حساباً لردت على جدتي باللازم، وإن كان هذا لم يحل دون تراشق بألفاظ من العيار الخفيف أعقبه خروج أم حسن غاضبة، ولم تطب شقتنا بعدها إلا بعد صلح وحق وحلفانات.

* * *

تجلس أمي بعد ذلك على الكنبة في الموضع الذي كان يؤثره جدي وطالما جلس فيه، رشفتين والثالثة وتنادي عليَّ كي أصحو من النوم.

يكون نداؤها في أول الأمر هادئاً ممطوطاً، وباسمي المجرد.

- إصحى يا جلال .. جلال .. يا جلال ..

ثم تتصاعد وتيرة الصوت عدة درجات وتأتي بنبرة حادة، أما اسمي فيتم استبداله بالأوصاف المنكرة.

- إنت يا ولد، إنت يا حمار!! إصحى يا زفت!! بقولك إصحى يا بلوه أنت وإلا هجيلك بالشبشب!!

وتلتقط أنفاسها مردفة بنبره كلها معاناة:

- يا ربي إيه المرار ده، هو احنا اصطبحنا لموال كل يوم يا هباب إنت!

وأنا بالطبع في عالم آخر، وأكاد أكون ميتاً ولست نائماً.

الغريب أن أمي تعرف أنه لا فائدة من هذا الذي تفعله، فلست أنا الذي يصحو من مجرد نداء! ومن أين؟ من غرفة لغرفة! لكنها عادة تعودت عليها أو لعله من قبيل التسخين، إذ سرعان ما تهب واقفة، وفي وقفتها كانت يدها تصطدم أحياناً بكوب القهوة باللبن وأنال أنا بالتالي شتمة أو شتمتين!

تدخل مندفعة إلى سرير جدي حيث أصبحت أنام الآن، ويكون جرس المنبه قد بدأ في الرنين هو الآخر. يتكاتف الاثنان عليَّ حتى أرفع رأسي من الفراش. المنبه وهو من مخلفات الجيش الانجليزي، وله صناجات نحاسية تجلجل حتى الشارع، ويبدو أنه كان مخصصاً للعساكر الكسالى، أو ربما للتعذيب. وأمي الغاضبة تشد البطانية من على جسدي وتلقي بها على الأرض، وهي تصيح وتضرب بكفها على حاجز السرير.

* * *

اليوم ..

وقبل حتى أن تتناول أمي رشفة واحدة من كوب القهوة باللبن وجدتني أتثاءب على الباب، تطلعت إليَّ غير مصدقة فتقدمت منها وقبلتها في مفرق شعرها. تبسمت وعلى وجهها دهشة، فأزدت من تقربي لها وانحنيت مقبلا يدها. فلم أكن أعرف من قبل أن الحب جميل، وأن نادية يمكن أن تفعل بي كل هذا.

وطرت إلى المدرسة ..

كان اليوم يوم اثنين ..

وهذا اليوم إما أن يكون ظريفاً خفيف الدم أو يوماً ثقيلا، فالأمر يعود إلى الحالة المزاجية للأستاذ البصــــراطي الذي كـــان عـــندنا في الحصـــتين الأولى والثانية.

كان مدرس أول اللغة العربية وتجاوزوه أربع مرات في وكالة المدرسة، ويقولون: إن زملائه أصبحوا نظاراً بدءاً من العام الماضي، بل ويؤكد مرقص أفندي معاون المدرسة أن مدير التربية والتعليم بالمنطقة كان زميله في السنة الأولى بكلية دار العلوم، إلا أن الأستاذ البصراطي لم يتخرج معه في الميعاد الطبيعي فقد آثر المكوث بالكلية سبع سنوات وترم.

ولفك عقدته وإيهامه بأنه شخص مهم قلدوه منصب الرائد العام للمدرسة، وهو منصب شرفي أهم ما فيه بالنسبة للأستاذ أنه يجلس إلى جانب حضرة الناظر في المناسبات والاحتفالات وعند تسليم الكؤوس والميداليات. وتكريماً للأستاذ واتقاءً لشره - كما كانوا يتهامسون - كان حضرة الناظر بعد أن يسلم الكأس للفريق الفائز في التصفيات النهائية، يدعوه أحياناً لتقديم ميدالية أو اثنتين، ولم يكن يقدمها بالطبع إلا للفريق المهزوم!

غير أنه لم يفهم الأمر على هذا النحو ..

وكانت العشر دقائق الأولى من كل حصة تضيع في الكلام عن وظيفته الجديدة.

يقول: إنه بصفته الرائد العام للمدرسة قرر كذا وكذا، وأنه أوقف الأستاذ فلان عند حده لأنه لا يفهم في أصول التربية، أما الأستاذان مهدي طايع وفهمي ناشد اللذان سوف يحالا إلى المعاش الشهر القادم فهما متجاوبان معه ويثنيان على أفكاره،

والمدرسة كانت في حال ولما عين هو في هذا المنصب أصبحت في حال آخر.

نبدي الإعجاب بكلامه، ونقول: أنت لها يا أستاذ! كان الله في العون!

تتغير نبرة صوته لتحاكي نبرة المسئولين الكبار الذين يتحدثون بجهاز التلفاز، يقول وعيناه مسبلتان قليلا: أمانة ووضعت في عنقي، أأهرب منها!! كلا وألف كلا، ثم يتثاءب ويضيف بنبرة أخرى تنم عن صوت يعاني صاحبه من التعب والإجهاد: أتعرفون يا أولاد؟

تتسع حدقات أعيننا ونمتد بصدورنا إلى الأمام، فيكمل: أسبوعاً بأكمله وأنا أسهر حتى الفجر!

ويسكت.

نقول كلنا في صوت واحد : لماذا يا سيادة الرائد العام؟!

يقول: لأني مشغول بإعداد خطة جهنمية لنقل المدرسة نقلة نوعية لتصبح في مصاف مدارس أوروبا، وأنا يا أولادي الكرام المحترمين لن أعرض هذه الخطة إلا على السيد الوزير مباشرة، نعم السيد الوزير وليس أحداً غيره، نصحني بذلك أحد زملائي المتقاعدين، وهذا سر يا أولاد حذارٍ أن تفشوه لأحد، فنحن في زمن لا يعلمه إلا الله!

نكتم ضحكاتنا ويسأله أحدنا فجأة: هل الرائد العام هو الأعلى يا أستاذ أم وكيل المدرسة؟

ينظر إلى السائل متأففاً من جهله، ويرد على الفور بصوت قاطع: طبعاً الرائد العام يا مغفل.

ثم يخفض صوته قليلا، ويقول: هل تعلمون يا أولاد أن الأبحاث الحديثة في علم التربية تذهب إلى أن الرائد العام أهم بكثير من الناظر. وعندما يجد أننا لا نزال على صمتنا ووجوهنا المتطلعة إليه تتوقع كلاما أكثر، يضرب بسبباته على

obeikandi.com

قفصه الصدري ويقول بصوت حاسم ولكن أكثر خفوتاً: أما من وجهة نظري فهذا المنصب يعلو على منصب مدير التربية والتعليم نفسه.

نتصنع كلنا البلاهة والعبط، ونقول في نفس واحد:

- آه والله صحيح!! كانت غايبة عننا فين دي؟

ويهب أحدنا من مقعدة قائلا بانفعال:

- ويمكن أحسن من الوزير كمان؟

يبدو الخجل على وجه الأستاذ البصراطي ويقول بصوت ناعم، وهو

يربت على ظهر هذا الطالب:

- مش للدرجة دي! الرائد العام حاجة كدة زي وكيل الوزارة، زي مستشار الوزير.

ويردف قائلا:

- عارفين ليه يا أولاد؟

نسأل كلنا، وبنغمة ممطوطة والدهشة الكاذبة ترتسم على وجوهنا:

- ليه يا أستاذ؟!

يتبسم من قلة مداركنا:

- علشان أنا صاحب رسالة يا أولاد، أنا لا أكترث بالمناصب.

ثم يمط شفته السفلى، مشيحاً بيده في الهواء:

- يعني إيه ناظر ولا مدير ولا حتى وزير، أنا راجل تربوي وأدعو إلى مكارم الأخلاق وأعالج النفوس المريضة.

فندخل في روعه أننا صدقنا ونقول:

- أكيد أكيد، بارك الله فيك يا كبير الأساتذة.

غير أن واحداً من الصفوف الخلفية باغت الأستاذ مرة وقال:

- بتعالج النفوس إزاي يا أستاذ، بحقن ولا برشام؟!

obeikandl.com

وكان نطقه للكلمتين الأخيرتين بصوت خافت، إلا أني أظن أن الأستاذ سمعهما، إذ سرعان ما أحمر وجهه ودمدم غاضباً:

- بتقول إيه يا ولد؟ علي صوتك شوية يا جبان!

وكي لا يتعكر مزاج الأستاذ، شاركناه كلنا في تقريع الولد الذي تكلم حتى مضت الأمور على خير.

* * *

ولي أنا وزميل آخر يسمى خيري واقعة لا تنسى مع الأستاذ.

ففي مرة وأثناء الشرح ترامى إلى آذاننا ضجيج خفيف آت من غرفة

الموسيقى، حيث كان طلاب أحد الفصول يعزفون في حصة الهوايات. وهو أمر يحدث باستمرار ويمر علينا مرور الكرام عندما يكون عندنا أي مدرس، لكن في هذه الحصة ومع الأستاذ البصراطي بالذات اختلفت المسألة!

نظرنا إلى بعضنا البعض وبسرعة رفع أكثرنا إصبعه شاكياً، حاول الأستاذ إفهامنا أنها ضجة لا تذكر، لكننا أصررنا على موقفنا وأننا لا نسمع الدرس بشكل جيد.

وقال طالب بلهجة جادة:

- الأصول أصول يا أستاذ، والناس اللي حوالينا لازم تعرف إنه لما يكون الرائد العام في المنطقة دي كله لازم يسكت ويلزم الأدب! دا الرائد العام يا ناس!!

أسقط في يد الأستاذ وأصبحت كرامته على المحك، خاصة وأنه لاح في وجوهنا اتهام له بالتخاذل وأن هذا ليس من خصال من يكون رائداً عاماً للمدرسة! تلفت حوله وأشار لي أنا وزميلي خيري وانتدبنا للذهاب إلى مدرس الموسيقى، كي نرجوه ونستسمحه في خفض الصوت قليلا. وطلب منا أن نحدثه بذوق وكياسة لأننا لا نمثل أنفسنا في هذه المهمة وإنما نمثل الأستاذ نفسه، وهو كما نعلم ويعلم الجميع صاحب رسالة ويحمل مشعل

التربية على كاهله. غير أننا فهمنا موقفه اللين هذا فهماً آخر، فالأستاذ (سُمعة) مدرس الموسيقى حاد المزاج ولا يطيق الذبابة لو طارت بالقرب منه، ويقولون في المدرسة: إنه (شوضلي) وضيق الأفق، وأكيد الأستاذ يعرف ذلك ويتحاشاه.

ذهبنا مسرعين، فالتقانا الأستاذ (سُمعة) بوجه عابس.

قلنا له بلهجة استفزازية، وبنبرة أشبه بالأوامر:

- سيادة الرائد العام للمدرسة بيقولك بطل الدوشة دي اللي إنت عاملها يا أفندي إنت وإلا.

نظر إلينا من أعلى لأسفل واقترب منا خطوة، فتراجعنا واحدة مثلها لنحافظ على المسافة التي بيننا، فلا أحد منا يعلم ردة فعله.

- دوشة إيه يا حشرة منك له، بقى شرابة الخرج ده باعت يهددني وبيقول وإلا.

وزفر ساخراً:

- وإلا إيه يا سنكوح يا هلفوت منك له إنت وهو!

أجبت بأعصاب بارده وكأن الأمر منطقي وطبيعي، وكان عليه فهمه من تلقاء نفسه.

- وإلا هياخد إجراء معاك، وإجراء شديد كمان.

- هو قال كده؟!

هززنا رأسينا نحن الاثنين بما يفيد التأكيد، وأضاف خيري:

- الطيب أحسن يا أستاذ سُمعة وإلا أنت عارف إن سيادة الرائد العام معندوش تفاهم.

وأضفت أنا متمماً:

- أي والله يا خيري يا خويا دا الاستاذ البصراطي ما بيرحمش وأيده زي المرزبة، فاكر لما عبط الواد حامد ونزل عليه بالخرزانة.

وأكمل خيري الذي كان معي على نفس الموجة:

- وَدي حاجة تتنسي، دا بيقولوا إن الإسعاف شالته من قدام الأستاذ وقالت عوضكم على الله فيه، وأحسن حاجه تودوه على بيته علشان أمه وأبوه يلقوا عليه النظرة الأخيرة.

وقلت أنا وعيناي على الأستاذ سمعة، وإصبعي يكاد يشير نحوه:

- ولما ضرب الواد الزناتي وكفاه على وشه، يا عم دا راجل شراني ومستعد يعملها مع أي حد.

صرخ في وجهينا قائلا:

- رائد عام إيه وزفت إيه! جتكم داهية إنتوا وهو، بقى واقفين قدامي عمالين تغنوا وتردوا على بعض، يللا يللا يا جحش منك له من هنا.

ولما تباطئنا في الانصراف من أمامه لنأخذ منه رداً نعود به للأستاذ البصراطي، صوب لي لكمة تجاه عيني بالضبط. كنت مستعداً لها بالطبع، فملت بجزعي وتفاديتها إلا أن المجرم عاجلني بركلة ألقتني على الأرض، أما زميلي خيري فولى هارباً. تدحرجت مبتعداً لما رأيته يتجهز للركلة الثانية، وفي ثانية كنت واقفاً وأطير كما الريح من أمامه.

عدنا مذعورين للأستاذ، وصياحنا واستغاثاتنا بطلب النجدة تسبقنا.

وقف يستمع لشكوانا ويرى آثار الحذاء على بنطالي، وكنت ألاحظ أن قدميه تتقلقلان على الأرض استعداداً للانطلاق ووجهه من شدة الغضب لا يستقر على حال، أما طاقتا أنفه فاتسعتا وبدأتا في الإرتعاش وإخراج زفير متلاحق له صوت كالفحيح. من الواضح أننا أيقظنا غدد الشر لديه وأزدنا نشاطها فشحذته وجهزته لمعركة فرضت عليه فرضاً، خاصة وأن كل الفصل ناشد الأستاذ بألا يتسامح في حقه وأن كرامته - وبالعربي الفصيح - أصبحت في مهب الريح. ولا مندوحة من

أن يتلقى المخطئ جزاءه لأن من يقم بإهانة سفراء الرائد العام كأنما أهان الرائد العام نفسه، فهذه معادلة رياضية ـ وكما صاح أحد الطلاب بصوت مسرحي ـ يجب أن تحترم من كل صغير وكبير في المدرسة.

تحول وجه الأستاذ إلى لون الكبدة من شدة الغيظ وضرب باب الفصل بقدمه مندفعاً صوب غرفة الموسيقى، ولبثنا كلنا خلف النوافذ نتابع صراع العمالقة هذا الذي على وشك الوقوع، وما هي إلا دقيقة حتى علا الصوت وسقطت الآلات من أيدي العازفين، وأتى السعاة والعمال من كل مكان، ورأينا حضرة الناظر يهرول مسرعاً في رهط من المدرسين.

كان منظره ملفتاً..

أزرار القميص بعضها لا يزال مفتوحاً ورباط الحذاء مفكوك، وهو نفسه ملخوم في رفع حمالات البنطلون، أعتقد أنه كان في دورة المياة وصرخوا عليه.

وبعد تحقيق طويل عرفوا أصل الحكاية ..

الفصل كله خصم خمس درجات من السلوك، أما أنا وخيري فالرفت عشرة أيام مع إنذار بالفصل النهائي. وأتى الحاج محمود، ووقع على تعهد بأن أسلك سلوكاً مستقيماً وألا أعود مستقبلا لما فعلت.

* * *

(٢٥)

كان هذا أول العام الماضي ..

أخذ الأستاذ البصراطي يدخل إلى الفصل بعدها وعيناه تطقان بالشرر، ووجهه يقول: إنه مستعد لارتكاب جريمة مع أي واحد منا، وإذا صدرت من أي طالب حركة ولو بسيطة من تلك التي كنا نفعلها في الأيام الخوالي، كان يثني يده إلى الخلف ويدفعه أمامه ـ كالمجرمين المقبوض عليهم ـ إلى حضرة الناظر مقترحاً عليه استدعاء الشرطة. يظل حضرة الناظر يهدئ من ثورته، ولا يتنازل الأستاذ أبداً حتى يُعاقب الطالب بالرفت ثلاثة أيام. يسرع بعدها إلى مكتب مرقص أفندي ليقف على رأسه وهو يكتب خطاب الرفت، ويرغمه على إضافة عبارة أو عبارتين شديدتي اللهجة على الصيغة التقليدية للخطاب.

أما أنا وزميلي خيري فكنا نعرف حدودنا معه.

لزمنا الصمت تماماً ولم نكن نلقي بالا بالدرس الذي يقوله الأستاذ، وإنما انشغلنا بالأستاذ نفسه. همنا كله كان محصوراً في متابعة تحركاته في الفصل، خاصة بعد أن حفظنا التكتيك الذي يتبعه معنا. فقد كان يشرح الدرس وهو يتنقل بخطاه من موقعه بجانب السبورة إلى منتصف الفصل حيث نجلس، وعندها يحدث خلل ما في جهازه العصبي وتقل سيطرته على حواسه. كانت أصابع يديه ترتعش قليلا، وعيناه وبالرغم منه لا تحيدان

obeikandl.com

عن متابعتنا من أعلى النظارة المرتخية على أرنبة أنفه. وبطبيعة الحال لم يكن يود كشف أمره أمامنا ويحاول بكل طاقته إيهامنا بأن الأمر يأتي بطريقة غير مقصودة وأنه ينظر لغيرنا كما ينظر لنا، إلا أنه كان يفشل في ذلك.

وعندما كنت ألحظ أن شحمتي أذنيه أصبحتا حمراوين كالدم أو ازدياد في رعشة أصابعه، أعتبر هذا إشارة خطر لنا وأخبط كوعي بحذر في جنب زميلي فيفهم ما أعنيه.

في اللحظات التي يمسك فيها الأستاذ بزمام نفسه كان يحاول تضليلنا، إما بالنظر إلينا بطريقة حيادية أو يسألنا سؤالا؟ إن أجبنا عليه بالخطأ أو الصواب أو حتى لم نجب، كان يربت على أكتافنا بطريقة أبوية ويمضي عنا معتقداً أن الأمر انطلى علينا وأننا نعيش في أمان كاذب. يعود مرة ثانية من حيث أتى ويعطينا ظهره فترة طويلة موجهاً حديثه للصفوف الأولى، عسى أن نخرج من جحرينا ونرتكب أية غلطة. وفجأة يستدير نحونا في التفاتة سريعة فيجدنا في انتظاره. الأيادي موضوعة على الصدور، ووجهينا يكسوهما الأدب والامتثال كأننا ملكين من السماء، الابتسامة تكون في أعيننا فقط.

وعندما جاء امتحان آخر العام كان العقاب الأكبر لكل الفصل، ولولا تدخل حضرة الناظر ولجنة الرأفة التي عقدت لنا على عجل ما نجح أحد.

* * *

تغيرت الأحوال هذا العام بعد أن بددوا تلاميذ فصلنا القديم. فصل ثانية رابع. نفوهم ووزعوهم على باقي الفصول. وبالنسبة لي أنا وخيري حولونا إلى فصل ثالثة عاشر، ومعروف أن هذا الفصل سيء السمعة ولا يضم إلا المعاد قيدهم بعد استنفاد مرات الرسوب وأصحاب العاهات وأراذل الطلاب، ولم

يسبق أن التحق أحد منه بالجامعة.
عندما سألنا معاون المدرسة عن هذه النقطة بالذات رجع بظهر المقعد حتى التصق بالجدار، فبدا بنطاله مغبراً كأنما لم يخلعه من على جسده شهرين متصلين وعنق الشراب متهدلا، أما الحذاء فبلا لون تقريباً.
نظر في وجوهنا المتطلعة إليه، وقال بعد أن نفخ في زجاج النظارة وبدأ في تنظيفه بمنديل متسخ كان في حجره:
- الورق اللي عندي بيقول إن تلميذ واحد بس هو اللي عملها من سبع سنين ونجح بمجموع أربعة وأربعين في المية، وآهو مكتب التنسيق وداه معهد في دمنهور.
- طب والباقيين يا مرقص أفندي راحوا فين؟!
- فين! على الشارع طبعاً، اللي بقى مكوجي، واللي واقف بعربية كشري، واللي صلاة النبي دلوقتي بقى صبي فسخاني، واللي شغال في الحشيش!
- يعني واحد بس هو اللي فلح ودخل معهد؟
- ومين قال لكم إنه فلح! أنا سمعت من جماعه قرايبه إنه ترفد من سنة أولى لاستنفاذ مرات الرسوب.
* * *
أتيت اليوم للمدرسة وجلست إلى جوار خيري، وما أن بدأنا نثرثر حتى دخل الأستاذ البصراطي.
صرخ طالب في الصف الأخير - اسمه الليثي - صرخة مدوية:
- قيام لسيادة الرائد العام للمدرسة.
قمنا والتفتنا ليس إلى الأستاذ، وإنما إلى الوراء حيث دكة الليثي.
فالجميع يود متابعة المراسم التي يصر على تأديتها في الأيام القليلة التي يأتي فيها إلى المدرسة، فلم يكن يأتي إلا يومين أو

ثلاثة في الأسبوع على أكثر تقدير. وبالنسبة للغياب (معمول حسابه)، فالفراش الذي يمر بورقة الغياب كانت له شهرية عند الليثي، وإذا فاح الكلام كان مرقص أفندي يتدخل وينهي الأمر دائماً لصالح الليثي، كما كانت له طرق وحيل أخرى لا نعرفها. وضع الليثي - بصراحة - كان مميزاً، وله كلمة نافذة في المدرسة كحضرة الناظر تماماً!

يتنحنح الليثي في البداية، ثم يصيح بصوت جهوري:

- ثابت كل الفصل. ثابت. ثابت. ثابت ولا حركة، إكتم نفسك يا تلميذ منك له.

ويبدأ في السير بخطوة عسكرية متجهاً إلى الأستاذ، يداه ترتفعان حتى مستوى كتفه، وركبتاه تنثنيان بحركة لولبية، وتأخذان قدميه معهما إلى أعلى ثم تعودان بهما إلى الأرض محاكياً بذلك المشية العسكرية للرايخ الثالث.

تظل أعيننا عليه وهو يتبختر أمامنا كجنود النازي الذين كنا نراهم في أفلام الحرب العالمية الثانية، وأول ما يصل إلى الأستاذ يضرب الأرض بقدمه ضربة قوية، مؤدياً التحية العسكرية مثلما يفعلون في الجيش بالضبط. ولم يكن ينسى بالطبع هز كف يده أمام عينيه هزات عصبية ولعدة مرات - أثناء تأدية التحية - معبراً عن الصرامة وانفعاله بجلال الموقف.

يصيح ثانية:

- تمام سيادة الرائد العام. القوة ٤١ طالب. ٧ رفد من حضرة الناظر. ٩ نوم. واحد محجوز في قسم الوايلي، والباقي مستعد للدرس.

كان الأستاذ البصراطي يتقلقل في مكانه من شدة الغيظ، إلا أنه لا ينطق أو يبدي أي استياء ظاهر. يتمتم بصوت خفيض: إنصراف، متمنياً من الله أن تنتهي هذه المراسم على خير، فهو يعلم أن الذي

obeikandi.com

أمامه ليس طالباً أرسلوه ليتعلم، وإنما هو في مواجهة مجرم يرتدي ملابس طالب.

يــدور الليثي على عـقبيه بطريقة ملفتة ويعود بنفس المشية إلى مقعده،

وأعيننا عليه ثانية ومعنا عين الأستاذ ودهشته. يتثاءب الليثي عدة مرات بصوت عال، ويعود برأسه قليلا إلى الوراء ويغفو غفوات قصيرة إلى أن تنتهي الحصة. أما الأيام التي يكون فيها مجهداً من سهرة بالليل أو خلافه، كان الطالب الذي بجواره يترك له الدكة، ويمد هو رجليه على مقعده (ويتصلطح) بكتفه ورأسه على الحائط أو يثني رأسه على الدكة (وهات يا نوم). وفي هذه الحالة يصبح المربع الذي هو فيه منطقة مغلقة، ومحظور على المدرسين الاقتراب منها.

استحالة أن يكون هذا طالب.

طول بعرض وشارب مفتول، وندبة أعلى حاجبه الأيسر من ضربة سكين، ويقولون: إنه متزوج بامرأتين. الليثي ليس أصلا من مدرستنا، إنما هو ابن أحد تجار روض الفرج، وحولوه من مدرسته هناك بعد أن دخل هو وشلته في معركة بالعصي مع الباعة السريحة الذين يسدون مدخل السوق. خرج بكفالة من النيابة وكادوا أن يحرموه من دخول امتحان الثانوية العامة، لولا أن أباه حصل له على استثناء من الوزير فأتوا به إلينا. ويحلف أحد عمال المدرسة برحمة أمه بأن سمعة الليثي كالطبل في روض الفرج، وأنه من بعد العصر يلبس الجلباب واللاسة ويقف في المحل مع أبيه، ويؤكد بأنه رآه أكثر من مرة بشمروخ في يده لحفظ النظام في المحل وطرد الصعايدة المتطفلين.

* * *

وبدأ الأستاذ البصراطي في الدرس، وعنوانه دراسة تحليلية لإحدى القصائد الشعرية.

ظل يشرح لنا بيتاً بيتاً إلى أن جاء إلى بيت لا أعرف لماذا لم يحذفوه من كتاب الوزارة، الغزل فيه ليس عفيفاً بالمرة ومثيراً للكلام واللغط بين الشباب أمثالنا. حاول الأستاذ المرور عليه سريعاً ليتفادى التعليقات والرذالات، لكني كنت في الانتظار، رفعت يدي وسألته والبراءة على وجهي عما يقصده الشاعر من هذا البيت؟ وما معنى لفظ بذاته؟

نظر إليَّ وهو يعض بأسنانه على شفتيه، وعيناه تقولان (هو أنت تاني يا ابن الكلب).

لا شك في أن ذكريات ماضينا المشترك جاءت على خاطره في هذه اللحظة، خاصة وأن زميلي خيري أبدى عدم فهمه هو الآخر، وتلاه الليثي الذي على ما يبدو لم يكن قد دخل في النوم واستفزه حديثنا.

أدرك الأستاذ بأني أوقعت به، فاقترب مني وهو يصيح بطريقة هستيرية:

- يعني منتش فاهم! مش فاهم إيه يا إبليس! هتعيد أيام زمان تاني إنت والمضروب اللي جنبك، روح يا خويا إسأل حد من الفاميليا، ولا أقولك روح اسأل جولدا مائير وهيه تفهمك، أظنك عارفها؟!

لا أعرف من أين اكتشف أن أمي يهودية، ليس بملفي في المدرسة أي ذكر لهذا الأمر. لا بد أنه سأل عني بعد واقعة العام الماضي، أو ربما تعقبني حتى مسكني وأجرى بنفسه تحريات عني.

الغريب أني لم أهتز من هذه المباغتة كما كنت أفعل أيام الإبتدائي والإعدادي، لم أشعر بأن ما يقولون عنه أستاذاً ألقى شتمة في وجهي أو عرض بي.

قلت له بهدوء: هل تقصد أن أمي يهوديه، وأنت تعايرني بها؟!

رد على الفور وهو يشيح بيديه معتذراً:
- حاشا لله. لا اقصد هذا .. أنا .. أنا ..
وتناوله الارتباك ..

* * *

obeikandl.com

(٢٦)

قلبي يخفق كلما أتيت إلى محطة الترام المواجهة لسينما مصر.

أسبوعين .. قل ثلاثة أو أربعة .. وأنا أطرق الباب مرة على مكتب وكيل المدرسة، ومرة على الأستاذ البصراطي أو الأستاذ شنودة مشرف الدور طالباً الإذن بالانصراف بعد الحصة الثالثة.

يرفعون أبصارهم إليَّ بضجر، فألقاهم بوجه تكسوه مسحة كابية أحاول بكل ما أستطيع أن أجعلها عميقة وحقيقية. المشكلة في عينيّ، كانت خارج السيطرة وتفضحني أمامهم. ولمزيد من سبك الدور كنت ـ أحياناً ـ أرفع شفتي السفلى قليلا وأهز رأسي كأنما أنا في محنة بالفعل، ولا أنسى بالطبع النظر إلى أسفل ووضع كف يدي اليمنى على الكف الأيسر أمام بطني مثلما يفعل الناس في الجنازات.

يزدادون ضجراً وتأففاً مني ويستحثونني بصوت غاضب كي أنطق، ويكون صوت الأستاذ البصراطي دائماً هو الأعلى، وكنت ألمح يده وهي تجري على سطح المكتب بحثاً عن أية آلة حادة، وعندما تستقر على مطفأة السجائر التي كانت على شكل قوقعة بحر ووزنها رطلين على الأقل كنت أحتاط لنفسي جيداً من ردة فعله حيال أي حرف أنطق به، فمن يدريني أنه

لا يخطط لإلقائها في وجهي إن بدر مني شيء يعكر مزاجه.

أقول بصوت خافت ومؤثر: إنه جاءني خبر الآن بأن جدي عضه كلب ضال أو نطحه خروف من الخراف التي تلهو طول النهار أمام جزارة عم زينهم التي في أول الشارع، وأود اللحاق به في مستشفى الدمرداش قبل أن يلقى وجه ربه الكريم، أو أتحجج بالذهاب مع أمي العمشاء إلى مستشفى (سيد جلال) ليضعوا لها مساً في عينيها، أو أن ولداً سقط في بالوعة المجاري الرئيسية التي أمام عمارتنا، ومن المروءة الوقوف مع الجيران في ساعة الضيق.

كثيراً ما كانوا يأذنون لي مللا مني وليتخلصوا من وقوفي أمامهم، وإن ركبوا رؤوسهم ولم يجنحوا إلى السلم لم يكن أمامي مفر سوى الحيل والرشاوي أو مغافلة عم سيد الهلف بواب المدرسة.

وكانت منافع زميلنا الليثي - أعطاه الله الصحة - تظهر في أوقات الشدة هذه، فعندما كنت أبدو مهموماً ومضطرباً كان يهز رأسه بثقة، ويقول وهو ينزع بالملقاط شعرة بيضاء نبتت في شاربه:

- ولا يهمك يا واد يا جلال ولو عايز تزوغ من أول النهار إتكل على الله وأنا المسئول، ما أنت عارف إن المدرسة كلها في جيبي الصغير.

أقوم من جانبه، فيجذبني من يدي مكملا الحديث بنغمة ساخطة:

- دي عالم أنطاع متعرفش يعني إيه لهلبة الحب والقلب لما يتنكد، أنا مش فاهم ليه ما يدرسوش الحب وتفانينه حصة ولا اتنين كل أسبوع! كل اللي فالحين فيه، جا وجتا! وظا وظتا! والجذر التربيعي والجذر التكعيبي!

أسحب يدي، فيردف متبسماً:

- عمر ما حد هيفهمك يا نمس غير واحد حبيب زيي، دا انا حبيت لغاية دلوقتي تلاتة على أم العيال ولسه قلبي عطشان يللا يللا يا ابن الحلال.

ألوح له ضاحكاً وأسرع إلى حمام المدرسة حاملا حقيبتي، أسحب القميص المكوي من أحد جيوبها، أرتديه في ثانية وأصفف شعري ولا مانع من لحسة من كريم الشعر الخاص بأمي والذي أكون قد وضعته خلسة في الحقيبة، ورشة من زجاجة الكولونيا (اللافندر) أو حتى من زجاجة العطر الخاصة بأمي، أيهما تيسر لي أخذه معي صباحاً. وبحركة من حركات أنور وجدي ألقي بالحقيبة بقوة وعالياً تجاه ولد من الجيران، يتلقفها مني وكأنها كرة كي يسلمها للبواب ريثما أعود، وأطير أنا كالريح من شارع إلى شارع حتى أصل إلى محطة الترام وأندس بين الناس، العرق يتصبب مني وعيناي تتطلعان إلى الترام الآتي من العباسية، وعندما أراه بعرباته الصفراء وصلصلته التي تتلاحق منبئة عن دخوله إلى المحطة أفقد السيطرة على نفسي. أطيش قليلا وأتلفت حولي، أفتش عنها بين فتيات المدارس النازلات من العربة الأولى والثانية والثالثة، أو اللائي أفلتن مني ولا زلن يعبرن الشارع متجهات إلى الطوار. وأرى عن بعد فتيات خارجات من المكتبة التي على الصف الآخر، أو واقفات تشترين اللب والآيس كريم من المحل الملاصق لسينما مصر.

أقول لنفسي لعلها بينهن وأسرع باحثاً عنها لكني لا أجدها فأعود إلى المحطة مرة ثانية، وأقف بين أناس جدد يائساً ولسعة وجدِ تلهب قلبي. وأرنو ببصري من جديد ناحية العباسية، عسى الترام القادم أو الذي يليه ولا فائدة أيضاً، فأرجع إلى البيت وفؤادي خالياً.

ومضت الأيام والقلب يلح، حتى أني صممت يوماً أن أغير على شقتها مثلما فعلت في المرة السابقة، وليكن العذر هذه المرة كتاب الانجليزي أو دروس اللغة العربية أو أي شيء. أرتديت ملابسي بالفعل، وكدت أصعد لولا بقية من العقل. خفت. خشيت أن أثير انتباه مدام السبكي فآتي بالوبال على رأسي ورأسها.

قلت في نفسي الشارع أسلم، ظللت أتسكع فيه بالساعات لعلي ألقاها، أو ربما تطل من الشرفة، وأقترب من عم إدريس. أجلس معه على الدكة، وكلام في كلام، عن البوظة والنوبة والسودان والشارع الذي أصبح قذراً بعد أن خرج عم طلبة الكناس على المعاش. أحدثه وعيناي على الشارع أو بسطة السلم، وهو يصغي ويعبث بأصابعه في شاربه أو يزيح شال عمامته البيضاء الكبيرة من عند أذنه ويهرش وهو يكز على أسنانه، وعندما يمل مني كان يفرد ساقيه ليقوم وهو يقول بصوت أبوي:

- ما تطلعي تذاكري كلمتين ينفعوكي في الامتحان يا سي جلال، إنتي قاعدة بس للكلام والخبص واللبص!!

* * *

لم يعد طيفها يلوح أمامي بين الحين والحين كما كان، بل بقي معي، أراه في كل وقت، في اليقظة والمنام، وصوتها وهو يداعب أذني " إزيك يا جلال .. الزرار .. آه .. آه صحيح راح فين؟! ".

وبت أسأل نفسي ألا تحبني مثلما أحبها؟ ألا تشعر بي كما أشعر بها؟ عيناها تقولان ذلك، ووجنتاها من شدة الحمرة تكادان تنطقان، وأصابعنا التي تلامست بقصد وبغير قصد، أم كل هذا خيال في خيال أهيم فيه وحدي؟!

ولما طال بي الوجد، قلت أسأل أمي فهي خبيرة بهذه الأمور.

قمت إليها مسرعاً، كانت تمدد ساقيها على الكنبة ونظارة القراءة ساقطة على أنفها، ويداها ممسكتان بعدد قديم من

مجلات الأزياء العالمية التي كانت جدتي تشتريها أيام تألقها في عالم الخياطة. لم تبال بقدومي، فوقفت على رأسها أتطلع إلى ما تحملق فيه باستغراق، صورة كبيرة وبالعرض لمجموعة من حسناوات الخمسينيات يتهادين فوق منصة خشبية في عرضّ بملابس البحر ذات القطعتين، وفي الصحيفة المقابلة إعلان بالألوان الزاهية عن نوع من الخمور المعتقة مكتوب باللغة الإنجليزية أسفله " إن من لا يتذوقه لا يعرف للحياة معنى ".

جلست قبالتها وسعلت سعلة خفيفة، انتبهت والتفتت إليَّ فبدأت الحديث

بالكلام في بعض الأمور التافهة، وهي ترد بكلمات مقتضبة " آه .. آه .. طيب ..

خلاص خلاص عرفت " وعيناها لاتزالان على المجلة. وأول ما دخلت في الموضوع ودون أن أصرح بالطبع باسم (نادية) مدعياً أن الأمر يهم صديق لي ولا يخصني، وضعت المجلة جانباً واستدارت بكل جسدها نحوي.

قالت بشيء من الحدة:

- علشان البنت هنا خيبتها تقيلة! تحب زينا ويمكن أكتر مننا ساعات، بس وده المهم إنها ضعيفة وغلبانة ومبتعرفش تعبر عن حبها، وإن اتجرأت مرة وعملتها يفضحوها دا إن منزلوش على راسها بالشباشب ولا حبسوها في أوضة وتربسوا الباب عليها زي المساجين.

أقول مصبراً نفسي، ومعللا احتجاب نادية عني طوال هذه المدة:

- أنا بقول إن الكسوف هو السبب.

تهز رأسها رافضة فأقول:

- الكسوف يا ماما. الكسوف. يعني ما حستيش بيه ولا مرة مع بابا.

- كسوف إيه يا خايب!

ثم تردف بصوت مرتفع قليلا ونغمة ممطوطة:

- الخوف! الخوف!

وترنو ببصرها تجاه رقعة في زاوية السقف، أعدمتها الرطوبة حتى بانت بطانة الطلاء كئيبة وغامقة قليلا، فأعرف أنها تسرح في عالمها القديم، وأهم بالعودة إلى غرفتي ثانية. تشير لي بأن أجلس، وتميل نحوي وهي تقبض على معصم يدي بكفها. ويجيئني صوتها خافتاً رقيقاً، وهي تقول: إنها هي التي أحبت أبي قبل أن يحبها هو، أحبته أكثر مما يحبها، ولو عادت بها الدنيا إلى الوراء ما اختارت غيره رغم ما تعرضت له من عذاب وفراق للأهل والأحباب.

أتطلع إليها بحنان وألثم كفها الجاثم على معصمي ..

تسحب كفها وتفاجئني برنة صوت غير الذي كنت أسمعها من قبل،

تقول: إنها لو لم تشاغل أبي لأخذ منها قطعة القماش ولم تره بعدها. فمرة

تقول له: تعال الأسبوع القادم لترى البضاعة الجديدة، ومرة تقول: لا تشتري اليوم فالأوكازيون سوف يبدأ الشهر القادم، وهذا سر سمعته من سكرتير الخواجة سمعان صاحب المحل وممنوع عليها إفشائه للعملاء.

وترخي عينيها وهي تزيد بدلال:

- وأقوله بس إنت مش زبون، إنت حاجة تانية.

وكم من المرات أخذته من يده في جولات بالمحل ليرى القمصان والجوارب والأحذية، وفي اليوم الذي توقعته طلب منها الخروج بعد انتهاء ورديتها في العمل. تناولا الغداء في الشارع وشربا عصير برتقال من محل (ويلسون) بالعتبة الخضراء، ومشيا في شارع محمد علي وشارع عبد العزيز،

obeikandi.com

وأنها هي التي دبرت أمر انتقاله من حي الحسين حيث كان يسكن إلى حي الظاهر.

وتمضي في الكلام، ووجهها يتألق بفرحة ظاهرة:

- تعرف أول مرة بوسنا فيها بعض إمتى؟

من الحياء أنحني على الكليم متشاغلا بفردة الشبشب التي أفلتت من أصابعي، وانقلبت على وجهها.

لا تكترث بالحمرة التي بدت على وجهي.

تقول: إنها هي التي باغتت أبي وقبلته في وجنته وهما يرتبان حاجياته في الغرفة التي استأجرها على السطوح، وعندما استدار إليها أفلتت من يده.

- وتعرف إن عمك إدريس الراجل الكهنة ده مرة شافنا ...

أقاطعها بانفعال ظاهر:

- ماما، يا ماما من فضلك بلاش كلام في الحاجات دي.

وينتابني إحساس بالحرج مما تقول، أعبر عنه بعودتي إلى الكلام ثانية في الموضوع الذي بدأنا به الحديث وبتصميمي على رأيي والسخرية من البنت الجريئة، ولكن بكلمات محسوبة مراعاة لها.

ترد عليَّ بغضب وتتهمني بالغباء وأني لم أتخلص بعد من الجهل الفلاحي الذي يجري في دمي، وتنحرف بالحديث عامدة لتلوك في أشياءً لا أعرف عنها الكثير أو حتى القليل. كنت لا أزال جاهلا بديني فلم أحسن جدالها، وعندما أشعر بأنها تحاصرني وتكاد تضيق عليَّ الخناق، كنت من الحنق وقلة الحيلة أرفع صوتي حتى أسكتها وينتهي الأمر بيننا إلى خناقة.

والغريب أنه في أعقاب كل مشاجرة من هذا النوع لا يزيد خصامنا عن نصف يوم، يبدأ أحدنا بعدها بمبادرة للصلح مع الآخر.

أتحين وجودها بعيداً عني وألقي بشيء ثقيل على الأرض، فتأتي مسرعة لتجدني ممسكاً بكاحلي وأحجل على القدم الثانية. تفهم وتتبسم. أو أذهب إليها مباشرة حيث تجلس وأقبلها في مفرق شعرها فتحتويني بحنان، وكثيراً ما كانت هي التي تقبل عليَّ.

وتأتي بعد ذلك المناورة، والتي غالباً ما يقوم بها الطرف المبادر بالصلح.

تبدأ المناورة دائماً بمحاولة لجس النبض.

أقول وكأن كلامي جاء عرضاً وبلا قصد:

- والله دي الناس شكلها يفرح وهيه خارجة من صلاة الجمعة، الغني والفقير، الصغير والكبير، اللي صلوا جوه واللي فرشوا حصير على الأرض، واللي بيسلم على الناس بعد الصلاة واللي واللي ..

لا تقاطعني مثلما كانت تفعل من قبل احتراما للصلح الذي أبرمناه منذ دقائق، فأستطرد أنا كلمة من هنا وكلمة من هناك عن سماحة الإسلام، وأنه دين الفطرة، والعقل، كلمات أشبه برؤوس الموضوعات كنت أعرفها من دروس الدين أو من الشيوخ الذين يتحدثون في التليفزيون. ومن جهلي كنت أفرغ من الحديث سريعاً، وأتوقف محملقاً في وجه أمي لأعرف أثر ما أقول، أجده جامداً وخالياً من أي تعبير، حتى عيناها لا وميض لها أو ترمشان،

فأتذكر ساعتها بيت الشعر الذي طالما حفظناه في المدرسة:

لقد أنلتك أذناً غير واعية .. ورب منتصت والقلب في صممٍ.

وأفهم وأسكت.

أما هي فتكلمني عن باريس بلد الجمال والنور حيث يعيش جدي الآن، وأن اليهود يملكون هناك نصف محلات شارعي ريفولي وأوسمان. وفي أمريكا لهم كلمة مسموعة وهم أصحاب

البنـوك والمصـانع والمـال، وكلمتـين عـن إينشـتاين وفرويـد وماركس وفلان الذي أخذ جائزة نوبـل فـي الطـب، أو فـي الأدب أو العلوم.

وعنـدما تشـعر بـأني أميـل نحوهـا بـوجهي وحـدقتاي تتسـعان، تظهر الراحة على وجهها وتبدو وكأنما قلبها يقول لهـا إنـه لـيس أمامها إلا جولة واحدة وتجهز عليَّ.

تبـدأ حينهـا فـي التلاعـب بصـوتها. يـأتيني هادئـاً .. مـؤثراً .. وهـي تسـترجع معـي مـا كانـت تلقنـه لـي وأنـا صـغير عـن سـيدنا يعقـوب وسـيدنا داود، والمـلاك الـذي أتـى بـالكبش إلـى سـيدنا إبراهيم.

أقول لها:

- بس دا كان فدو لسيدنا إسماعيل.
- بتقول إيه!
- لسيدنا إسماعيل.
- جبت الكلام ده منين يا جاهل، الفدو كان لسيدنا إسحاق!

وتكررهـا ثانيـة بنبـرة قاطعـة، وهـي تمسـك بـأذني علـى سـبيل المداعبة:

- سيدنا إسحاق. إسحاق. إسحاق.

أصمم على ما أقول وهـي كذلك، وعنـدما تـدرك أن مبادرتـها للصلح توشك على الانهيار وأننا مقبلين على مشاجرة أعنف من السابقة، تـرمش بعينيهـا وهـي تتبسـم فـي وجهـي غيـر أن شـفتيها اللتين تختلجـان ووجههـا المربـد كانـا يكشـفانها، كنـت ألمـح ذلـك وأطاوعها عندما تنتهي إلى حل وسط وتقول:

- إسماعيل ولا سيدنا إسحاق، الاتنين أولاد سيدنا إبراهيم.

فأؤكد على كلامها بإيماءة من رأسي.

وشيئاً فشيئاً يلحظ كلانـا فتـور الآخـر ممـا يقـول فيسـكت عـن الكـلام علـى أمـل العـودة إليـه مـن جديـد، إلـى أن جـرت واقعـة

ألزمت كل واحد منا حدوده ولم نجرؤ بعدها على طرق هذا الموضوع ثانية أو حتى أن نحوم حوله.

إذ طق في رأسي أن آتي بشيخ يهدي أمي إلى الإسلام، شيخ بجبة وقفطان حامل للقرآن ويفهم في الدين، فأنا لا أنفع معها. جاهل ولا أملأ عينيها. ولم لا ؟ خاصة وأني سمعتها مرة تحكي لجدتي عن (إستر) التي كانت تعمل بقسم النوفوتية بمحل سمعان، فقد قالت لها: إن إستر هذه تركت دينها وأسلمت بعد أن تزوجت من جارها في السكن.

وعندها ردت جدتي بحنق:

- مش إستر دي بنت حِنة (البلانة) اللي كانت بتلف على بيوت اليهود كل يوم سبت؟

- أيوه هيه يا ماما.

- بنت جريس اللي كان بيشتغل تمرجي في المستشفى اليوناني؟

- هيه هيه يا ماما.

- مش غريبة عليهم، يعملوها ويعملوا أبوها كمان، ماهم ناس أوساخ وملهمش مبدأ، أوعى عمرك تبصي في وشها مره تانية.

* * *

كنت ما أزال في الثامنة عشرة وخبرتي قليلة والموضوع نفسه حساس، فمع من أتكلم؟ ومن يرشدني إلى هذا الشيخ؟ الحاج محمود! هو في مقام أبي لكني أخجل من الكلام معه. حسن! خائب وقليل الحيلة مثلي. واكتشفت في هذه اللحظة أنه ليس لي أحد في هذه الدنيا بعد أمي ألجأ إليه، لا خالة ولا عمة ولا صدر حنون ألوذ به، ولما أتت أم حسن في بالي انطلقت إليها مسرعاً.

توهج وجهها بالفرحة وعرت رأسها لأول مرة أمامي منذ أن كبرت، وهي

obeikandi.com

تدعو الله أن يكلل مسعاي بالنجاح. ومن شدة فرحتها قبلتني على رأسي ووجنتيّ، حتى يديّ انحنت تقبلهما بصوت لاهث ولمعة تطل من عينيها:

- مفيش غيره شيخ الزاوية، نروح له سوا يا ابني، استنى عليه بس لما ألبس.

أخذت أنفاسها وأردفت:

- وإن مفلحش تروح الأزهر إنت وعمك الحاج محمود، وتجيبوا واحد تاني وتالت ورابع لحد ما ربنا يكرمها.

- شيخ الزاوية! آني زاوية فيهم؟

- يوه يا جلال، الزاوية اللي كت إنت وحسن بتجروا وتروحوا لها أول يوم في رمضان تسمعوا الأدان وترجعوا لنا بالبشارة.

قطبت حاجبي متذكراً الشيخ خلف، الرجل الصالح الذي كان يصعد على سقف الزاوية للأذان، وعيوننا من أسفل ترنو إليه برهبة.

- قصدك الشيخ خلف؟

- الشيخ خلف يا ابني كبر ومعدش بيطلع من البيت، وأهل الشارع راحوا جابوا واحد مطرحه من البساتين اسمه الشيخ سلموني أبو جاموس، آكل شارب نايم في الزاوية.

قلت:

- طيب ..

* * *

توجهنا إلى الزاوية معاً، وانتظرناه إلى أن خرج بعد صلاة العصر.

كان قصيراً وبديناً بشكل لافت ويقبض بيده اليمنى على عصا غليظة أشبه برجل السرير، أما لحيته فكانت كثة ومخضبة بالحناء. لم أرتح له من النظرة الأولى، وأظن أنه

بادلني نفس الشعور. ظللت أرمقه بامتعاض وهو يمضي أمامنا. كان أشبه بقاطرة تتحرك وليس بني آدم يمشي، ولا يكف عن السعال والبصق في الشارع.

دفعتني أم حسن لألحق به.

- أروح فين يا ماما! وده ينفع ده! دا عامل زي الشوضلي.

- يا ابني حرام عليك، ومتخدش بالمظاهر.

- إنتي شايفه التعويرة التي فوق حاجبه ولا الزقلة اللي في إيده، دا باين عليه بتاع خناقات.

- وبعدين يا جلال، أنا غلطانة اللي جيت معاك، إنت هتتنده عليه ولا أسيبك وارجع.

إتجهت إليه واستوقفته، فالتفت إليَّ متأففاً:

- عايز إيه يا ولة؟

باغتني بنبرة صوته الغليظة ولحقت بنا أم حسن، انتحينا به جانباً وأخذت هي تحكي له حكاية أمي وهو ينصت ويهز رأسه؟ وعندما تدخلت في الحديث موضحاً بعض التفاصيل الغائبة عنها زجرني قائلا:

- إحترم نفسك يا ولة، ولما الكبار يتكلموا الصغار يحطوا لسانهم جوه بقهم ويسكتوا.

نظرت إليه ساخطاً وكدت أن أهم بتوبيخه لولاها، لكزتني في ركبتي كي أسكت.

بعد أن فرغت أم حسن من الحديث، التفت إليَّ:

- يللا يللا يا ولة أنت قول اللي عندك.

أشحت له بيدي رافضاً، فقال وفتحتي أنفه تتسعان وشعيرات كالمسامير تطل منها:

- أحسن برضه، وكفاية المختصر المفيد اللي قالته خالتك حكم أنا ما عنديش دماغ لكلام العيال.

ثم أزاح العمامة إلى الوراء، وأردف بالفصحى بعد أن لعق شاربه:

- لا تقلقي يا امرأة فأنا لها، أربطي العقدة في عنقي وتوكلي على الذي لا يغفل ولا ينام.

- بتقول إيه يا سيدنا؟

تدخلت موضحاً:

- بيقولك إن الحكاية سهلة.

- سهلة! سهلة إيه يا ولة، أنا قلت كده يا واد يا كداب إنت، دا شغل كبير هشتغله على مية بيضة، وبعدين سهلة ولا صعبة دا شغلنا وإنتوا لكوا النتيجة.

وزفر بحنق:

- دا إيه البلاوي دي على المسا!

أشحت بيدي في وجهه وقبل أن انطق، سبقتني أم حسن قائلة:

- بس خلي بالك يا سيدنا دي راسها ناشفة وزي الطوبة.

- طوبة مين يا حاجة، دا أنا أبو جاموس والأجر على الله، ومش هتاخد في إيدي غلوة واحدة.

ومشينا نحن الثلاثة ..

كان يسير بالعرض ويصطدم بي دون أن يعتذر، ناهيك عن الرذاذ الذي يتسقط من فمه ويطال ملابسي، وأنا من جانبي كنت أتحاشاه قدر الإمكان. وتركتنا أم حسن مسرعة، وهو يتابع مؤخرتها من الخلف فزغدته بضيق وأنا أقول:

- جرى إيه يا سيدنا! خليك معايا هنا.

توقف عند أول محل لعصير القصب وطلب (شوباً) ثم آخر وتجشأ مشيراً لي أن أدفع الحساب، واقترح عليَّ ألا نبدأ هذه المهمة إلا بعد تناول وجبة كبدة
ساخنة فتأففت:

- عربية الكبدة مش بعيدة يا ولة، دي على ناصية الشارع.
- مفيش وقت.
- وقت إيه وبتاع إيه، دي عادة وربنا ما يقطعها، أصل أنا كل ما يجيني نفر في شغلانة أخده الأول على الحاتي وفيها كيلو كفتة ليه أنا لوحدي، دا غير المشكل كبدة على طرب على مخاصي على حتتين سمان ودا طبعاً غير الحلو وعلبة سجاير مقفولة. دا كده يا أول يا هادي، أنا بوفر لك وبقول كبدة علشان صعبان عليه شكلك وانت عامل كده زي الأرزقية، إنت بتشتغل إيه يا ولة؟ فران ولا جزمجي ولا بتقف بقدرة فول في الشارع؟

همسة واحدة وكدت أصفعه على وجهه، واحترت في أمره وفي مصداقيته للمهمة التي انتدبناه لها، لكن ما باليد حيلة سوف أكمل المشوار حتى لا أخيب رجاء أم حسن في.

غير أني رفضت اقتراحاته، قلت له بحسم:

- لا كبدة ولا دياولو يا شيخ حلموس، وهنطلع من هنا على البيت على طول.
- حلموس مين يا ولة! أنا اسمي الشيخ سلموني، ومش كفاية إنك نتن ومبيهونش عليك المليم طلعت أطرش كمان، وبعدين بلاها الكبدة من وشك وانت فقري كده وبوزك يقطع الخميرة من البيت.

ومشى حانقاً، وعلى باب العمارة قبض على معصم يدي، وهو يقول بنبرة قاطعة:

- قبل ما أطلع نتفق الأول.
- نتفق!! نتفق على إيه؟
- على الحلاوة يا بطل، وهو إنت عايز تاكل حقي، عشرين جنيه، جنيه ينطح جنيه.

لم آخذ كلامه على محمل الجد، وقلت:

- زي بعضه.

obeikandi.com

- وتدبحوا عجل ولا خروف سمين؟
- حاضر.
- وأنا اللي أقف على الحلة وأفرق اللحمة؟
- برضه حاضر يا شيخ سلموني.
- قول يا عم الشيخ سلموني، خليك مؤدب.
- حاضر يا عم الشيخ سلموني، تحب ألحنها لك كمان.
- الزم حدودك يا ولة، هو احنا بنهذر!

* * *

كان صعودنا على السلم أول المشاكل.
التفت إليَّ حانقاً:
- هو مفيش مصعد هنا؟
- بتقول إيه؟
- مصعد يا جاهل يا عديم المفهومية، ألا تعرف معنى المصعد؟ رافعة تحمل الناس إلى أعلى وكل واحد منهم يهبط منها إلى شقته.
- آه!! قصدك أسانسير، مكنش ينعز يا سيدنا الشيخ.
واضطررت إلى تقديم بعض المساعدات له وخاصة عند انحناءات السلم، كنت كمن يدفع برميل زيت أو كيس قطن مكبوس، وهو يشجعني قائلا:
- شد حيلك شد، أيوه كده زق من عند بيت الكلاوي.
وعند البسطة الثانية، استدار إليَّ:
- هيه أمك اسمها إيه؟
قلت وصبري يكاد ينفد:
- اسمها كاميليا.
- لا كاميليا ولا فاميليا بعد النهارده، بعد ما أخلص مأموريتي نسميها
(أم ديل) على اسم أمي، إيه رأيك يا ولة؟

obeikandl.com

أجبته والبصقة على لساني:

- مفيش مانع يا عم الشيخ سلموني.

وعلى باب الشقة أسرع قبلي، وأخذ يدق على الشراعة بشدة وبكلتا يديه.

- حيلك حيلك يا عم الشيخ زفت! فيه أصول! فيه ذوق! أنا اللي أخبط مش إنت وأنا اللي أدخل الأول مش إنت، وكمان فيه جرس عندنا يا سيدنا.

- دا تكتيك يا عبيط، لازم نخطفها خطف وندخل عليها نلخبطها زي ما المباحث بتكبس على الناس في البيوت.

ثم انتبه:

- وبعدين تعالى هنا يا قليل الأدب، إنت بتقول يا شيخ زفت! أنا زفت، دا أبوك وأمك هما اللي ...

وكدنا أن نتشاجر بالأيدي، وفتحت أمي الباب وانفتحت أبواب الشقق الأخرى وعيال صغار تندفع منها تجاهنا، وسمعت لهاث الحاج محمود وهو يصعد مسرعاً ووراءه عم إدريس مشوحاً بالعصا التي يخصصها لطرد قطط الشارع التي تتسلل إلى المنور.

صاحت أمي، ووجهها أصفر كالليمونة:

- فيه إيه يا جلال، ومين الراجل ده؟ إنطق يا ابني؟!

وأمسك به الحاج محمود من كم الجبة:

- بتعمل إيه هنا يا أبو جاموس؟

والتفت إليَّ:

- وانت يا جلال، مالك يا ابني ومال الراجل ده، إيه اللي لمك عليه؟

فرد أبو جاموس:

- بعمل إيه!! هو أنا برمي جتتي يا حاج محمود، أنا جاني السخام ده ـ وأشار

إلـيَّ   ـ ومعـاه وليـة منفوخـة شـحم ولحـم وقـد كـيس القطـن، اســــــترجوني هما
الاتنين علشان آجي هنا وأعمل اللازم مع الولية الكافرة دي.
وأشار إلى أمي، وهو يقول لي:
- مش هيه دي أمك برضه يا ولة، ضروري هيه دي اللي أنا جاي أنشلها من الضلال، ومالك يا حرمة واقفة تتعوجي كده وبتتكلمي بالعين والحاجب، يللا يللا قدامي على أوضة الصالون وحطي حاجة على راسك قبل ما أقعد معاكي.
والتفت إليَّ:
- وإنت يا ولة هات لي حاجة ساقعة ووراها على طول فنجان قهوة سادة.
أمسكت برقبته، وصاحت فيه أمي:
- ضلال إيه وكفر إيه وبتعوج إيه يا راجل يا ناقص! شاهد يا حاج محمود! شاهد! مش عيب تقول كده وإنت لابس عمة ودقنك متحنية، إنت شيخ إنت! دا أنت صرمة قديمة.
وزغدتني في كتفي بأصابعها:
- كده برضه يا اللي ناقص رباية، دي عملة تعملها وتفضحنا وتلم علينا الناس كده! على كل حال مش وقته وحسابنا مع بعض بعدين.
وتدخل الحاج محمود:
- حصل خير حصل خير، وإنت يا أبو جاموس ربنا يهديك وامشي من سكات.
- أيوه تمشي من سكات، وإلا ها..
قالها عم إدريس وهو يتراجع عدة خطوات ملوحاً بعصاه، ثم أردف:

- هنا عمارة محترم. ناس أشراف. يللا روحي على بيتك يا أبو جاموس، دي مفيش غير خمسة ولا ستة نفر هما اللي بيصلوا في الزاوية بعد انتي ما
طبيتي فيها! إنتي جاية هنا تعملي غاغة في العمارة بتاعي!

- بس يا راجل ياللي عامل زي عفريت العلبة إنت، وإنت يا حاج محمود
أروح إزاي، أمشي كده من غير أبيض ولا أسود، دا العربون حتى ما أخدتوش!

- عربون!! عربون إيه وبتاع إيه هو انت جاي في مقاولة، دا أنت جاي في عمل إنساني، خد ربع جنيه أهوه واتكل على الله.

وارتفع صوت أمي معاتبة الحاج محمود:

- عمل إنساني إيه يا حاج محمود! ما يصحش كده! إصحى لكلامك ..

- مقصدش يا أم جلال، مقصدش والله، وبعدين والنبي تدخلي إنتي وتقفلي الباب وسيبيني أفض الدور بمعرفتي.

وبعد أن دس أبو جاموس الربع جنيه في سيالته وانصرف، قال لي الحاج محمود:

- إيه ده يا جلال؟ هو فيه واحد عنده شوية عقل يروح يجيب شيخ ولا غيره علشان يهدي واحد تاني. الهداية من عند الله يا ابني، وبعدين أمك مش كافرة زي الراجل الناقص ده ما بيقول. أمك ست من أهل الكتاب. ست طيبة وأبوها راجل طيب وعشرة ييجي تلاتين سنة، الله يخرب بيتك يا أبو جاموس.

ثم أمسك بيدي وهو يستطرد:

- إنت تعرف الوسخ ده كان إيه؟ كان شيخ منصر. أي والله!! كان تربيّ ومعمول له خمسين محضر في قسم البساتين. قال إيه؟ ينط على الحوش من دول ويسرق الرخام بتاعه، وأعوذ

obeikandi.com

بالله أي تربة يلاقيها في وشه يفتحها وياخد العضم اللي فيها .. إشي رجل .. دراع .. أي حاجة .. ويبيعهم للتلامذة بتوع كلية الطب، دا أنا سمعت والله أعلم إن التربية هناك لما زهقوا منه لبدوا له السنة اللي فاتت وضربوه علقة كسروا فيها دراعه، منهم لله اللي جابوه الزاوية عندنا، ويا ريته ستر دا فيه إشاعة دايره في الحتة، ولا أقولك إيه يا ابني ربنا حليم ستار، وإن كان ديل الكلب عمره ما يتعدل.

وقبل أن أدخل إلى الشقة، انتحى بي الحاج محمود.

- والنبي تعتذر للست الوالدة علشان الكلمة اللي فلتت من لساني، إنت عارف معزتكم عندي.

فأومأت له برأسي مؤكداً على ما قال وأنا أهم بالانصراف، غير أنه استوقفني:

- إستنى إستنى! إلا بحق تعالى هنا وقول لي مين هي الست اللي كانت معاك وإنت رايح لأبو جاموس؟ اللي بيقول عليها قد كيس القطن؟ ألا دا راجل فلاتي ومعندوش ضمير والواحد لازم يحرص منه.

- ست مين وبتاع مين دا بيجيب من دماغه يا عم محمود.

- آه .. على قولك، ما أنا عارف إنه كداب الشيخ هباب ده.

ولم يمر هذا الأمر بيني وبين أمي مرور الكرام، أسبوعين بأكملهما ونحن على خصام حتى صفا الجو.

* * *

(٢٧)

بعد أن هدأ الجو في البيت وعادت المياه إلى مجاريها بيني وبين أمي، قلت في نفسي " طيب ونادية، هفضل ساكت لحد إمتى؟ حكايه التزويغ دي كل يوم بعد الحصة التالتة والوقوف على محطة الترماي مش جايبة نتيجة ولا لها أي مفعول، ولا خيال نادية حتى عاد بيبان لا على سلم ولا في الشارع وباب البلكونة مقفول ليل نهار ".

ليس أمامي خيار إلا التزويغ من أول النهار ومداهمتها في عقر دارها، في مدرسة العباسية الثانوية للبنات.

لازلت أذكر هذا اليوم.

كان يوم ثلاثاء ..

هببت من النوم مبكراً بلا نداء من أمي أو رنين منبه، جسدي أخف من الريشة وفي أذني أغنية العندليب " أنا لك على طول خليك ليه ... "، وحالا على الحمام والمشط هنا وهناك والكولونيا بعد حلاقة الذقن والفانلة (المونتيجو) التي أرسلها جدي من باريس. وعندما تأكدت أني على الهيئة التي أردتها لنفسي، فتحت باب غرفتي وعيناي ترنوان بحذر نحو الغرفة الثانية التي تنام فيها أمي. بابها مغلق والحمد لله، والدنيا هس هس وهذا هو المطلوب، فسحبت ترباس الشقة وفي ثوان كنت على السلم، ومتجنباً بالطبع لمس

obeikandl.com

الدرابزين المغبر حتى لا أفسد هندامي.

قبل أن أفرغ من السلم وأدخل في معمعة الشارع، جاءني النداء باسمي حاداً وعالياً، فرجعت عدة درجات وأنا أرفع رأسي إلى أعلى باحثاً عن أمي.

كانت تقف بالروب على الباب، شعرها لا يزال منكوشاً وبيدها الحقيبة ولفة الساندوتشات.

قلت بصوت مشرق: صباح الخير يا ست الكل، لا داعي للحقيبة فأنا ذاهب في رحلة مع المدرسة، لكن لا بأس من الساندوتشات، وصعدت لآخذها.

التقتني بوجه عابس.

- رحلة إيه دي اللي جت على غفلة؟! ما احنا سهرانين ليلة امبارح سوا في البلكونة. يعني لا اتكلمت ولا قلت! وبعدين دا أنا شايفاك وانت بترتب كتبك في الشنطة قبل ما تنام، تبقى رحلة إيه دي؟

- يا ماما، دا أنا كنت بدور على كتاب الرياضة علشان أراجع فيه مسألة قبل ما أنام.

- مسألة!! وبعدين؟

- نسيت أقولك يا ست ماما. نسيت. جل من لا يسهو. أعمل إيه في دماغي دي اللي مدياني الطرشة وشغالة في النسيان. عربي أنسى. كيميا أنسى. انجليزي أنسى. لما شكلي بقى وحش قدام المدرسين. أنا محتاج أكشف عند حكيم يشوف إيه الحكاية دي؟

- ولد! لم الدور وبلاش استعباط، وقولي هنا رحله إيه دي اللي إنت إن شاء الله رايحها؟

أعرف أنها لن تكف عن حصاري حتى تصل إلى مرادها، فبدأت في المناورة.

- احنا يا ستي رايحين رحلة دينية، يعني هنزور الجوامع الإسلامية، الأزهر
والحسين ومسجد السيدة زينب كمان، وإن كان فيه وقت حنروح السيدة نفيسة والإمام الشافعي، كله كله.

- كده!

- أيوه كده ..

أدخلتها في الممنوع فلم تملك سوى أن ترمقني بريبة دون أن تنطق بحرف، وتركتني ودخلت.

قلت أتلكأ أمام باب العمارة لعلي أرى نادية وهي خارجة، لكني وضعت ذيلي في أسناني" ويا فكيك " عندما تطلعت ببصري إلى أعلى بحكم العادة لأجد مدام السبكي تستند إلى سور البلكونة وعيناها عليَّ. طرت طيران من شارع إلى شارع حتى وصلت إلى محطة الترام، جلست على الدكة الخشبية للمحطة ألملم نفسي وأطرد الوساوس التي تحوم في بالي. أتى ترام والثاني، وأنا أقول لنفسي " إقصر الشر يا جلال، إقصر الشر أحسن تكون أمها واخده بالها وهتيجي وراك تشوف إيه الحكاية ".

وعندما جاء الترام الثالث وأطلق المحصل صافرة الانطلاق وجدت نفسي أتجه نحوه كما الريح، وضربتين بالكوع وزغد هنا وزغد هناك حتى وجدت لي موطئ قدم على السلم مع شلة من عساكر الجيش المتوجهين إلى معسكراتهم بالعباسية ومدينة نصر، وفي غمضة عين كنت على الرصيف المواجه للمدرسة.

* * *

ضجيج وحركة وأبواق وبنات في بنات بالمرايل الكحلي، الطويلة والقصيرة، التي تضع إيشارباً على شعرها والتي تتركه مسترسلا على أكتافها، من تأخذ الحياة على محمل الجد وتمشي مشية عسكرية، والتي تضحك عمال على بطال، التي تأتي

وحدها من شارع مجاور والتي تصل بسيارة وسائق، واللائي يلملمن أطراف الجونلات وهن ينزلن من الترام.

وعندما بدأ الطابور عبرت الشارع، وأخذت موقعاً متميزاً أمام فتحة من فتحات السور الخشبي للمدرسة. كانت والله فتحة لا بأس بها، وكنت أستطيع إدخال كل رأسي منها لو أردت. ووجدت إلى جواري رجلا أكتعَ يرتدي بنطلون بيجامة وعليه قميص كاكي من مخلفات الجيش، وامرأتين أظن أنهما كانتا من زوجات البوابين، وولداً كبيراً كان واضحاً من الهباب الذي يملأ (العفريتة) التي يلبسها أنه صبي في ورشة ومتجه إلى عمله.

وقفنا كلنا نتابع مراسم الطابور ..

الست الناظرة ـ ما شاء الله ـ هيبة وشياكة، ونظارة بإطار مذهب وبشرة بيضاء بحمرة خفيفة واستدارات محسوبة بالمسطرة. بدن فالت وممشوق كجسد (صوفيا لورين) بالضبط. كانت آتية من مكتبها وبدأت تتبختر أمام صفوف البنات كأنها وزير التربية والتعليم، ووراءها بخطوتين مدرسة ببنطال أسود وفي يدها خيزرانة، جسمها مدكوك وكلها عضل. أكيد مدرسة التربية الرياضية. وبمحاذاتها مدرس في حجم التمساح، لهاثه لا ينقطع وفي يده كراسة يدون فيها الملاحظات.

تلتفت إليه الست الناظرة وهي تشير إلى إحدى البنات، فيقول:

- عارفها يا ستي عارفها وريقي نشف معاها! قلتلها ميت مرة! بلغتهم كلام حضرتك بأن ديل الجونلة يوصل لحد نص الرجل.

ويتوقف فتستحثه بهزتين من رأسها، يعاود الكلام بصوت متقطع:

obeikandl.com

- حاضر حاضر، بس آخد نفسي، أنا قلت وعملت اللي عليه ومعلياش ذنب، أعمل إيه أنا بقى في البنات الملاعين اللي مبتسمعش الكلام!

- خلاص يا أستاذ لمعي، خلاص خلاص وما دام همه قلالات الأدب كده تتبعت جوابات النهارده لأولياء الأمور.

- حاضر يا هانم، حاضر حاضر.

- إنت عارف إن الكلام ده مش من عندي. دي تعليمات الوزارة. عايزاهم يلبسوا (شانيل) يعني فوق مشط الرجل بشبر، مش زي البنت المضروبة دي كمان اللي في الصف التاني. دي زي ما تكون لابسة (ميكروجيب)، دي جاية مدرسة ولا رايحة فين؟! وشايف البنت أم فيونكة كحلي على شعرها يا أستاذ لمعي، ولا اللي في آخر الصف؟

- شايف يا هانم، شايف شايف.

ثم كز على أسنانه وانطلق بصوته الجهوري موجهاً حديثه للبنات:

- سامعين وشايفين الست الناظرة زعلانه كده ليه! مش ياما حسي اتنبح في الحكاية دي! على كل حال الجوابات هترف النهارده على البيوت وكل واحدة بقى ذنبها على جنبها، من بكره اللي مش هتلبس عدل مش داخلة من باب المدرسة.

انصرف الرجل الذي بجواري وفي أثره الصبي، لم تبق إلا المرأتان.

سمعت إحداهما تقول للأخرى:

- شوفي يا أختي الراجل طول بعرض إزاي وعمال يكش في روحه لما بقى زي الفرخة قدام الولية، والأكادة إنه مربي شنبه!

obeikandi.com

- أمال إيه اسأليني أنا، دي كمان رايقة النهاردة، تعالي شوفيها لما تكون متزربنة وراكبها عفريت، بتبهدل الدنيا ويبقى الفلق ده واقف قدامها قاطع النفس، ولية جامدة!! قادرة!

- صلاة النبي دا احنا بقى معيز مش ستات، وتستجري يا أختي تعمل كده قدام جوزها؟

- ومتعملش ليه، الجامد جامد في أي مطرح، وعلى قولك يا أم بدوي عيني علينا! دا أنا لو اتأخرت دقيقة واحدة وأنا بعمل الشاي لزغلول جوزي كان يبهدلني، دا مرة الوسخ ده اللي شكله عامل زي شكل الحمير حدفني ببابور الجاز، شوفي يا أختي معلم كده ليه على كتفي!

عدت بعيني إلى عرض الطابور، عندما بدأت المرأة تعري جانباً من كتفها

لتريه لرفيقتها أم بدوي، وكانت الست الناظرة قد فرغت من التفتيش ووقفت في منتصف الحوش تتابع باقي المراسم، وعلى جنب يوجد رهط من المدرسات. كلهن تقريباً من أحجام خالتي أم حسن، ويبدو أنهن تتعاملن أيضاً مع الترزي البلدي الذي يحيك لها فساتينها. نفس الذوق وهي هي التفصيلة. الفستان ما شاء الله لا يعرف لف ولا دوران، ولا يوجد به حتى زرار واحد، (كـُبشة) والسلام عند الرقبة ونازل حتة واحدة كما الشوال حتى بز الرجل.

ظللت أتابعهن، كن حوالي سبعة أو ثمانية، كلهن ممتعضات كأنما طاقات الأمل أغلقت أمامهن والدنيا سواد في سواد. مدرستان فقط هما اللتان شذتا عنهن. انتحيتا ببعضهما (وهات ياغمز ووشوشة) على الست الناظرة وعيناهما تجري عليها من أول الحذاء الإيطالي الذي في قدمها، حتى شعرها الذي تصففه تصفيفة (فرح ديبا). أما البنات ـ فوالله ـ عفاريت مثلنا. تتغامزن وتخفين ضحكاتهن، وواحدة تقرص الثانية فترد عليها بزغدة في

obeikandl.com

مؤخرتها، ويدُ ناعمة وخفيفة تخطف فيونكة شعر فتلقى من صاحبتها خبطة كوع في جنبها. ثم بدأت تحية العلم " تحيا مصر .. تحيا مصر .. تحيا مصر .. "، سمعت التحية فانشرح قلبي وأحسست بأن الدنيا حلوة وكلها خير، ولعنت الليثي وفؤاد ودرويش وخيري وبقية الشلة أصحاب الحناجر المخرومة من شرب المعسل.

* * *

دخلت البنات إلى الفصول، وأنا إلى المقهى الذي على الميدان.

كان العمال قد فرغوا للتو من فتح أبوابه وبدأوا في مسح الطاولات والمقاعد بالفوط الصفراء ورش الأرضية بالخراطيم حتى بدا المقهى نظيفاً، وإن كانت رائحة عطن خفيفة لا تزال تهب من داخله. عندما هممت بالدخول أشار لي أحدهم وهو يجفف العرق العالق بجبهته إلى مقعدين موضوعين (خلف خلاف) في صدارة المقهى، ففهمت أنها إشارة بأن المكان ليس جاهزاً بعد لاستقبال الزبائن. ولاحظت أن بجواري جمع من كبار السن يثرثرون، ويقبض كل منهم على جريدته تحت إبطه أو في يده، وثلاثة أو أربعة مثلهم يمشون جيئة وذهاباً أمامنا. وعندما فك أحد العمال عقدة المقعدين تقدم الجميع بتؤدة وصمت إلى الداخل، اتجه كل واحد منهم إلى طاولته التي ألفها وبدأوا في الجلوس، وطفق غيرهم ومن المسنين أيضاً في القدوم تباعاً من الخارج.

كان بادياً أن رواد الفترة الصباحية من أرباب المعاشات، والجرسونات يعرفونهم بالاسم ويأتون لهم بالطلبات من تلقاء أنفسهم. لهذا شاي بالحليب، وللآخر جنزبيل، والذي يجلس في الزاوية أشعل السيجارة فلا بد من أن يأتوا له بالقهوة السادة في الحال.

مضى الوقت وأنا لا أسمع إلا قلقلة المقاعد وخروشة الجرائد، وكان الجرسونات مؤدبين مسالمين، لا يحدثون ضجيجاً أو يناكفون مع أحد أو نسمع نداءاتهم العالية التي اشتهروا بها، كأنما هم ملائكة يجوسون في المقهى. كانوا والحق مختارين بعناية، أو ربما أعطيت لهم تعليمات حازمة بالتزام الهدوء والتعامل برفق مع هذا النوع من الزبائن.

لم أمكث طويلا.

شعرت بالملل فقمت أتسكع في شوارع العباسية، وفي ميعاد الخروج كنت على باب المدرسة وفي رأسي ألف عين إلى أن لمحت نادية وهي خارجة. نظرت بتلقائية إلى ذيل الجونلة، كانت (شانيل) كتعليمات الست الناظرة، والهمسة التي بقت عارية من ساقها بدت ملفوفة لفة تدير العقل ولا يملك من يتأملها إلا أن يزفر من جوفه ويقول: " سبحان الخالق "، والبشرة في الأصل بيضاء، لكن الشمس أبت إلا أن تشارك وتكسوها بسمرة خفيفة .. والرأس مرفوع .. والأقدام تضرب الأرض بزهو كالمهرة التي لم يكبح جماحها خيال ..

طغى عليَّ لحظتها إحساس جارف بأن هذا الذي أتأمله يخصني أنا .. أملكه وحدي .. وأن ناديه مني .. من أهلي .. وأنا الآخر منها .. ولا أطيق أن ينشغل
بها أحدُ في هذه الدنيا سواي، وألا يراها غيري إلا خطفاً أو لمجرد السلام ..

عبرت الشارع وأنا وراءها، ركبت الترام فركبت معها. وعلى محطة سينما مصر وقفت برهة تتلفت حولها والتقت أعيننا. بدت كأنما لا تبالي بوجودي، إلا أن عينيها قالتا كلاماً آخر. وقبل أن تصل إلى شارع الخليج المصري بمسافة أسرعت حتى سرت بحذائها، فرمقتني بنظرة خاطفة وأبطأت من خطواتها.

- إبعد أحسن حد يشوفنا.
لم أنطق، كنت مرتبكاً.
- بقولك إبعد، إبعد يا جلال، إنت اتجننت!
قلت بتوسل:
- دا أنا من الصبح واقف قدام مدرستك علشان الدقيقة دي.
- عارفة عارفة، وشايفاك من بدري، بس إبعد دلوقتي.
- دا أنا بقالي شهر بدور عليكي ونفسي أشوفك، وبستناكي كل يوم على محطة الترماي.
- أصل أنا كنت عيانة، هي تانت مقلتلكش دي زارتني مرتين! وأنا قلت لما يعرف ضروري هيعمل أي حيلة علشان يطمن عليا.
- آه منها ماما دي! المهم هو اللي مبتقولوش! وأنا لو أعرف كنت جيتلك على طول لابس بالطو أبيض والسماعة نازلة على كتفي وعامل نفسي دكتور.
- يا سلام!
- وإنتي نايمة على السرير وشعرك سايح على المخدة، تفتحي عينيكي تلاقيني واقف قدامك، وتقوليلي زي ما كانت ليلى مراد بتقول في الفيلم " يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب ".
- وبعدين بقى يا جلال! وبعدين!
لم نعبر شارع الخليج، استدرنا بشكل تلقائي وعدنا ثانية إلى شارع الجيش وظللنا صامتين برهة. مددت يدي لأحتوي كفها فسحبته وعيناها ترمقانني بحياء، وفي المرة الثانية استكان كفها في يدي فأخذت أتحسسه وأضغط عليه ضغطات خفيفة، كان دافئاً وبدأت أصابعها تغوص في يدي الواحد تلو الآخر.
- ياه دا أنا عمال أستناكي على المحطة وانتي مستنياني في الشباك.

- ومين اللي قالك إني كنت مستنياك، أنا من الزهق كنت ببص من الشباك وبالصدفة كنت بشوفك.

- كده!

- أيوه كده.

- طب عيني في عينك.

- أهه.

أخذتنا دفقة الحب فلم ننتبه إلى عم إدريس الذي كان قادماً في مواجهتنا يتوكأ على عصاه، رأيناه في نفس اللحظة وأظنه رآنا. أحاطت نادية ذراعي بكفها وعيناها خائفتان، وأصابني الارتباك أنا الآخر ووقفت مشدوهاً من المباغتة.

- شافنا!

- لأه مشفناش، دا رجل غلباوي ولو كان شافنا كان وقف واتكلم معانا.

- أنا بترعش كلي، دي كانت ماما تموتني.

وتركتني، فجذبت يدها إليَّ:

- لأه أنا ماشية، هعدي الشارع وعلى البيت على طول، وإنت خليك هنا، أوعى تيجي ورايا.

- طب هشوفك إمتى؟

- بعدين بعدين.

وأسرعت وعيناي تلاحقها حتى أخذها الشارع مني.

وبت ليلتي وسري في قلبي ..

* * *

obeikandl.com

(٢٨)

تكررت اللقاءات بيننا.

اتفقنا على أن انتظرها على محطة الترام كل يوم ثلاثاء الساعة الواحدة ظهراً.

وقالت هي: إن تأخرت أنا انتظرني حتى الساعة الثانية، أما إن تأخرت أنت فلن أبقى دقيقة واحدة.

قلت: حاضر، وأنا ألف يدي على يدها.

كنت آتي من المدرسة دائماً قبل الميعاد، أجلس على دكة أسمنتية تتوسط المحطة، وقلبي وعيناي يتطلعان بشغف إلى الترام القادم من ناحية العباسية وعندما أرى مقدمته تلوح من بعيد، أود لو أطير وألقاه في منتصف الطريق. وإذا حدث وتأخرت مرة وحام في بالي أنها سوف تنفذ شرطها، تكذب ظني وأجدها جالسة في انتظاري، الحقيبة بين قدميها وفي يدها مجلة تتطلع إليها، غالباً ما تكون مجلة (الكواكب).

ترفع رأسها فتراني أعبر الشارع، تشير لـيَّ بأصابعها المضمومة كي أبطئ من سرعتي وأن أهدأ. أشعر بالخجل من نفسي، وأقول لها ولهاثي يسبقني:

- آسف آسف، أنا واخدها جري والله من المدرسة لحد هنا.

- دول كلهم عشر دقايق تأخير، ارتاح ارتاح بس وخد نفسك.

obeikandl.com

وتبدأ هي بوضع كفها على يدي أو تمسح بمنديلها حبات العرق التي على جبهتي، أتأملها بعيني وقلبي يزداد تعلقاً بها.

تبادرني قائلة:

- عامل إيه في المذاكرة؟

- الحمد لله، من ساعة لما بقيت أشوفك بقى حالي حال، باكل الكتب أكل، نفسي أجيب مجموع كبير تمانين في المية ولا أكتر، آه لو أدخل كلية الطب.

- وهو انت مبتحبش الكليات العسكرية؟ الجيش يعني ولا الشرطة.

- إنتي عارفة إن الناس اللي زيي لا بيرضوا يدخلوهم الجيش ولا حتى الشرطة، الناس اللي أمهاتهم.

ولم أكمل.

احتوتني بعينيها، وأردفت أنا:

- أنا مش عارف ذنبي إيه! ولا أنا أقل من أي واحد في إيه! أنا مصري زيك وزي أي واحد ماشي في الشارع ويمكن أكتر كمان.

يبدو أن الانفعال قد أخذني فارتفع صوتي قليلا، إذ قطع رجلان يقفان على مقربة منا حديثهما والتفتا نحونا، وانتقلت امرأة عجوز من دكة مجاورة إلى حيث نجلس وهي تنظر إلينا وتقول:

- فيه إيه يا ولاد! زعلانين من بعض ولا إيه!!

ردت عليها نادية بجفاء:

- مفيش حاجة يا ماما!! مفيش مفيش.

وأخذتني من يدي كي نترك المحطة، والمرأة تلاحقنا قائلة:

- يوه! أنا بس بسأل، هو السؤال حُرم! بنات الأيام دي معندهمش طولة بال كده ليه! دا أنا في زماني ...

والتفتت نحو امرأة إلى جوارها تحمل طفلا على صدرها وآخر يمسك
بذيل فستانها، تحكي لها عما كان يحدث في زمانها، والمرأة ضجرة وتشيح عنها بوجهها.

قلت بعد برهة صمت:

- إنتي عارفة إن بابا مات شهيد.

- عارفه، وكل الشارع عارف ..

- وأهل بابا في البلد نفسي الظروف تسمح وتيجي معايا مرة وتشوفيهم، دول أصل مصر، دول اللي بيزرعوا الأرض ويأكلونا ويشربونا.

وأضفت وأنا أكثر انفعالا:

- وجدي، جدي لوالدتي آه لو شفتي حاله وهو مسافر.

- مصدقاك يا جلال، تلاقي كان صعبان عليه البيت وهو مسافر؟

- صعبان عليه! صعبان عليه دا إيه! دا كان بيموت! بيتقطع حتت وهو مسافر!

قالت وعيناها تتساءلان معها:

- طب وإيه اللي خلاه يسافر ويسيب مصر ما دام مكنش عايز؟!

- منهم لله بقى، مقدرش عليهم، غلبوه، جدتي وخالي جبروه على السفر، العيلة، العيلة كلها اتكاترت عليه.

- طب الحمد لله إنهم مخدوكش معاهم.

- لو كانت جدتي تقدر كانت عملتها، أصل أنا كنت تحت وصاية عمي ساعتها ولسه لغاية دلوقتي، وهو مرضيش يوافق على سفري، ولا حتى إنهم يطلعوا ليه جواز سفر من أصله، وتعرفي؟

ثم تبسمت، فرنا وجهها إليَّ بابتسامة أكبر:

- أصل ماما قالت لي مرة إن عمي من خوفه لياخدوني من وراه فضل مراقب الشقة سنة بحالها، بعت شوية رجالة من البلد على الشارع بتاعنا، مرة يتمشوا رايحين جايين أو يقفوا بالساعات قدام محل العصير بتاع المعلم حبيب ومبطلوش قعاد على دكة عم إدريس ويفضلوا يقرروه عني. ولا اللي كانوا بيخبطوا علينا ويعملوا نفسهم تايهين وغلطانين في العنوان! دا مرة واحد خايب منهم خبط علينا مرتين في يوم واحد! في الأولانية قال: هو الأستاذ زناتي موجود؟ فماما قالت له: لأه ومع السلامة وهي طبعاً فاهمة، وفي التانية قال: هو الأستاذ عوف ساكن هنا؟ ماما قالت له: عيب عليك وإنت راجل كبير كده وشنبك قد فردة الشبشب وتبقى كداب وتِقلق الناس في بيوتها، إنت عايز الأستاذ عوف؟ الأستاذ عوف قاعد جوه، وقعدت تنادي بصوت عالي: يا أستاذ عوف، قصدي يا جلال .. يا جلال .. ومسكتني من إيدي وقالت له: الأستاذ عوف أهه، عايز منه إيه؟! وقعدت ماما تضحك وتقولي إن الراجل اتخض ومعرفش يعمل إيه، وفي الآخر قال لها: أنا مش قصدي على عوف ده، عوف اللي أنا بسأل عليه متجوز وعنده عيال، ونزل جري على السلم وماما من على البسطة تقول له: أوعى تطب هنا تاني يا راجل يا خايب إنت وقول للي باعتك ميصحش كده!!

كنت أحكي لها وأنا أضحك، وهي تبادلني الضحك.

- أيوه كده انبسط يا دكتور جلال.

تأملتها.

- أيوه أنا عايزاك تبقى دكتور، دكتور قد الدنيا، عندك عيادة كبيرة في شارع الجيش، وواحدة تانية في العباسية قدام مدرستي.

وانزلق لسانها:

- ويقولوا عليه ...
ثم وضعت يدها على فمها، وهي تميل برأسها خجلة.
أكملت أنا وعيناي تأكلانها أكلا:
- حرم الدكتور جلال ..
قرصتني في يدي.
- عيب!! أحسن عم إدريس يسمعنا ..
- لا دا انكشف من ساعة المرة اللي فاتت، عينيه شيش بيش وتلاقي كمان ودنه مفوتة ومبيسمعش.
وأخذنا الحديث في الكلام عن عم إدريس، عن طيبة قلبه ونوادره التي لا تنقطع، وعن سعيد الابن البكري للحاج محمود الذي اشترى سيارة فيات قديمة من أحد أصحابه بشارع أحمد سعيد وأخذ يتباهى بها أمام العمارة، وبعدها بأسبوع تبين أنه أخذ مقلباً والسيارة مسروقة.
- دا عم الحاج محمود كان هيتجنن، من غيظه طلع من المحل بالمغرفة الحديد اللي بيكيل بها البضاعة وراسه وألف سيف ليفتح نافوخ ابنه سعيد.
- لا وإيه كمان! دي ماما بتقول: إن تانت أم حسن صوتت في وشه ورمته بكوز مية كان في إيديها أول ما دخل عليها الشقة.
نظرت في ساعتها فعرفت أنها تود العودة، استوقفتها قائلا:
- نادية، تفتكري مامتك توافق لو اتقدمت لخطبتك؟
نظرت إليَّ بدهشة.
- تخطبني! دلوقتي! طب أصبر شوية لغاية لما تدخل الجامعة.
انتابني الضيق مما قالت، فسألتها جاداً:
- أنا بقول هتوافق.
- يعني، مش متأكدة.

ازددت ضيقاً.
- أنا بتكلم جد.
أمسكت بيدي.
- طبعاً هتوافق، دا أنا بنتها الوحيدة وملهاش غيري، وعمرها ما هتقف في وش سعادتي.
وأردفت وعلى وجهها ضحكة ماكرة:
- انت مستعجل قوي كده ليه!

* * *

انقطعت لقاءاتنا بعدها عدة أسابيع ..
أذهب إلى المحطة كل يوم ثلاثاء ولا أراها، فأقول لنفسي ربما تكون مريضة، ربما أمر آخر، ولم أعرف ما الذي أفعله. فكرت أن أسأل أمي بطريق خفي، أو أصعد بنفسي إليها، أو يكون عم إدريس مرسالا بيننا، غير أني لم أقدم على فعل أي شيء من كل هذا.
وفي يوم لقيتها مصادفة على السلم، كانت صاعدة وأنا في طريقي إلى الشارع.
تلفتت حولها، وبدا وجهها خائفاً حزيناً.
- مالك، أنا قلقت عليكي!
- روح دلوقتي يا جلال.
أقتربت منها فرجعت إلى الوراء، حتى كادت تلتصق بجدار السلم.
- بقولك روح، روح والنبي علشان خاطري.
- نادية فيه إيه؟!
- مش عارفة ماما متغيره معايا ليه ومدققه عليه في الخروج، وزعيق على أي حاجة.
- تفتكري لاحظت حاجة؟

- مش عارفه، واللي قالقني كمان إن خالي الشيخ محمد راح المدرسة وسأل عني، دا عمره ما عملها قبل كده.
- يمكن كل دا أوهام.
- تفتكر؟ ياريت..
ولم أشعر إلا وهي بين أحضاني، وأقبلها قبلات محمومة على خديها وفوق
شفتيها، وهي تدفعني عنها دفعات خفيفة.
- كفاية كفاية، إبعد يا مجنون، إبعد أحسن حد يشوفنا.
أفقنا على صياح عم إدريس:
- بس بس! إيه ده يا قطة يا قليل الأدب.
كان أمامنا وجهاً لوجه، وأكيد رآنا. هبط قلب نادية ومن الخوف لم تعرف ما الذي تفعله، اتكأت عليَّ، تأملتني بنظرة خاطفة وصعدت لتتركني مع هذا الرجل السوسة .. لا أعرف من أين أتى؟! أكان صاعداً أو نازلا!! أم هبط علينا من أي سماء؟ كان عاري الرأس .. شعره كله " مفلفل " ومساحة على جنب في حجم ثمرة البلح صلعاء تماماً وليس بها شعرة واحدة، وجلبابه الأبيض يتدلى إلى ما بعد ركبتيه بقليل وفي يده عصا.
قال وعيناه الماكرتان تجوسان في وجهي الشاحب:
- قطة يا سي جلال، قطة ملعون مجنني خالص، أسود وديله مقطوع وكل يوم يتسحب ويقلب صفايح الزبالة بتاع السكان.
لم أنطق بحرف.
- شفته يا سي جلال؟ أنا غلبت فيه القطة المجرم ده! عايز أضربه واحد عصاية على راسه علشان يحرم .. أمال .. يستاهل ..
- لأه يا عم إدريس أنا لا شفت قطة ولا فار، ما أنت شايفني نازل في أمان الله أشتري حاجه من تحت، وبعدين إنت ماشي

opeikandi.com

حافي كده ليه؟ مش خايف حاجة تدخل في رجلك وتعورك وانت عضمة كبيرة.

- أمال .. أنا خالع المركوب من رجلي وطالع واحدة واحدة علشان أظبط القطة قليل الأدب ده ..

تركته وهممت بالصعود ثانية إلى الشقة، وأنا أقول لنفسي " قصر يا جلال في الكلام مع الراجل ده أحسن يعملك فضيحة ".

إلا أنه نادى عليَّ:

- إنـــتي راجعة ليه يا سي جلال؟ مش بتقولي إنك نازلة تجيبي حاجة من
تحت .. سبحان الله!

التفت إليه.

- والنبي تسيبني في حالي يا عم إدريس.

ودخلت إلى الشقة وتركته يصعد إلى أعلى، وقلبي يخفق ويقول " ربنا يستر، دا لو عملها الراجل القرد ده وقال لمدام السبكي يبقى خلص علينا ".

* * *

obeikandl.com

(٢٩)

لم أذهب إلى المدرسة في اليوم التالي.

مررت أولا على عم إدريس، أردت أن أسأله، أفتح معه الكلام، أفعل أي شيء كي أرتاح.

زوجته الست شوق هي التي كانت تجلس مكانه على الدكة، وأمامها صينية عليها كومة لا بأس بها من الأرز.

قالت وأصابعها ما تزال تروح وتجيء على الأرز:

- آهو عندك نايم جوه يا سي جلال.

- لسه نايم لحد دلوقتي!

رفعت رأسها نحوي، وهي تنكت حبة أرز علقت بين أصابعها.

- وهيفضل على كده يا ابني لحد صلاة الضهر ويمكن أكتر كمان، أصل بعيد عنك عمك إدريس لما بينام محدش مننا بيعرف هيصحى تاني إمتى؟ لا أنا ولا العيال، عايزه في حاجة مهمة وأنا أنده عليه وانت وبختك.

أشرت لها بيدي بألا داعي، ووضعت الحقيبة إلى جوارها ولفة الساندوتشات، وفرخ ورق مقوى ومعقود بأستك كنت قد رسمت عليه لوحة تعبيرية عن حرب أكتوبر نويت أن أدخل بها المسابقة التي أعلنت عنها مديرية التربية والتعليم.

تركت لها هذه الأشياء ومشيت.

obeikandi.com

قلت: أقف عند أحد النواصي القريبة لعلي أرى نادية وهي خارجة فألحق بها، وأعرف إن كان قد حدث شيء بعدما تركتني.

كنت مضطرباً وكأن قلبي مسحوباً مني، وكلما رأيت أحداً ممن أعرفهم قادماً تجاهي أتوارى عنه في شارع جانبي. لم تكن بي طاقة للكلام مع أحد، أو حتى أن أرفع يدي له مسلماً. ولم أكف عن سؤال نفسي عن الذي حدث بالأمس؟! كنت أهبط على السلم مصادفة وليس في بالي شيء .. حدث ما حدث رغماً عني وعنها .. لماذا أقول عنها؟! لماذا أزج بها في أمر أنا الذي أقدمت عليه؟! أنا الذي بدأت .. أنا أصل الحكاية .. أولها وآخرها .. أنا الذي عرضتها لنظرات عم إدريس، وأنا الذي سوف أجعلها مضغة للقيل والقال لو كان رآنا أحدُ غيره؟! ويلوح أمامي طيفها فأزداد ألماً وإشفاقاً ..

طال انتظاري حتى انقضى ميعاد نزولها فعاودت السير، ولا تبارح خيالي اللحظة التي تشبثت فيها بي وقت أن فوجئنا بعم (سخام) .. ارتج جسدها من الخوف .. أحسست بيديها تضغطان على كتفي وعلى ذراعي من أعلى .. كانت تحتمي بي .. أخذت تحدق في بعدها وهي ترجع بظهرها إلى الوراء وتستند إلى حافة الدرابزين، وأنا كالأبله لا أعرف ما الذي أفعله؟ لن أنسى أبداً وجهها الذي تقلصت ملامحه، ولا عينيها اللتين كادتا أن تتكلسا، أو النظرة التي ألقتها عليَّ بعد أن صعدت بضع درجات على السلم. لم أقو عليها فنزلت ببصري إلى الأرض، ولم يدر بخاطري مطلقاً أني لن أراها ثانية إلا بعد زمن طويل وأحداثٍ جسيمة تمر بي وبها!!

* * *

مضيت من شارع إلى آخر حتى سمعت أذان الظهر ..

لم أدخل مسجداً من قبل، ولا انحنيت للصلاة إلا في المناسبات، أو إذا شجر خلاف بيني وبين أمي وأردت أن أريها أني لا أزال مسلماً. خاطر ألح عليَّ بأن أصلي. عبرت الشارع بالفعل متجهاً إلى الزاوية التي ينبعث منها الأذان. كانت مجرد زاوية صغيرة والمؤذن يقف بالباب، كفه مشدود ويدور برأسه إلى اليمين واليسار. ينادي عليَّ بأعلى صوته أن اقترب. أن آتي. أن أثني ركبتي وأخلع حذائي وأدخل، غير أني لم أجب. ظلت قدماي على حالها، ثقيلتان وتسيران بغير هدى ..

وبعد أن جبت أغلب شوارع حي الظاهر ووصلت إلى شارع رمسيس عدت ثانية إلى البيت، لم تكن أمي موجودة لا في غرفتها أو في المطبخ فتمددت على السرير، ومن شدة التعب غفوت غفوة هببت منها على صرير باب الشقة. كانت هي، قمت إليها فسبقتني بالكلام ووجهها تعلوه الدهشة:

- إيه ده اللي انت هببته على السلم؟!

قلت مرتبكاً:

- وهو إنتي عرفتي؟

- أيوه عرفت يا فالح، والخبر شاع في العمارة كلها، والأهم من دا كله إن صاحبة الشأن عرفت.

خبطت بكفي على جبهتي وعدت ثانية إلى السرير، وأنا أقول لها:

- مين! مدام السبكي! آه يا عم زبالة يا راجل يا خباص، أنا عارف من الأول إنك هتخربها.

نظرت إليَّ باستغراب.

- زبالة مين! قصدك إدريس، وهو راخر شافكم؟ يا دي الخيبة!

- أنا بحسب هو اللي قال.

- لأه يا فالح، الخدامة بتاعة أبو السعد أفندي هيه اللي شافتكم من شراعة الباب، وعلى طول كان الخبر عند مدام السبكي.

ثم تأملتني وهي تدق بظفر إصبع الإبهام على شفتيها دقات متلاحقة

وعيناها سارحتان.

- طب إدارى يا ولة، إدارى! خدها وروح أي حتة بعيدة وأعمل اللي إنت عايز تعمله، مش هنا يا أهبل علشان الناس تشوفك وتفضحك.

- أدارى! أدارى على إيه! لا لا يا ماما دا إنتي بقى فاهمة الحكاية غلط!

- والنبي؟!

رددت عليها بحنق:

- إيه الكلام ده اللي انتي بتقوليه، انتي فاكرها إيه، دي نادية يا ماما، نادية نادية المحترمة بنت الناس ..

لم تبال بما أقول ..

تركتني وخرجت من الغرفة لتعود بعد برهة وتجلس على السرير إلى جواري، بعد أن وضعت كوب الشاي الذي كان في يدها على منضدة قريبة.

ظللنا صامتين لعدة دقائق، إلى أن قالت بنغمة لينة:

- أنا عارفة إن البنت حلوة ومدورة، ودلوقتي أنا بسألك بالهداوة إنت عايز تضيع وقت معاها وبس، يعني بوسة وفسحة وحاجات زي دي، ولا الحكاية بجد وبتفكر مثلا ترتبط بيها؟!

قلت، وأنا أضرب بيدي على عارضة السرير:

- تاني يا ماما! تاني!

وهببت واقفاً لأترك لها المكان، إلا أنها أمسكت بذراعي.

- بس قبل ما أقعد لازم تعرفي إني بحبها، بحبها، بحبها.

ثم أردفت، بعد أن جففت حبة عرق تنسال خلف أذني.

obeikandi.com

- واللي حصل ده عايز أشوف له حل، أنا مكسوف من نفسي ومش عارف هقابل الناس بعد كده إزاي. تانت أم حسن ولا عم الحاج محمود ولا ولا، والأهم من دول كلهم مدام السبكي هشوفها بأني عين .. ونادية!

وعضضت على شفتي، فقاطعتني بإشارة من يدها:

- طيب بس خلينا خطوة خطوة، إنت عارف الأول أهلها مين؟!

- أعرف إن لها خال اسمه الشيخ محمد.

- أيوه عليك نور، وبيلبس عمة وكاكولة وبييجي يزور أخته مرة كل شهر وأول ما يدخل من باب العمارة يفضل يقول: يا ساتر يارب يا ساتر يارب، وعينه متترفعش من على الأرض طول ما هو طالع على السلم. وخالها التاني الشيخ مصطفى. جنبنا هنا. إمام جامع الشعراني. وبيقولوا إنه ألعن منه، لا بيخلي أهل بيته يتكشفوا لا على رجاله ولا حتى على ستات، وأمها زي مانت شايف الايشارب على راسها ليل نهار ومبتعرفش تقول إلا قال الله وقال الرسول، تفتكر دول يوافقوا عليك؟ على واحد أمه يهودية؟ وياريت كده وبس جده وجدته وخلانه وخالته كلهم يهود! تفتكر يا حبيبي؟!

- جدي وجدتي! وأنا مالي بيهم، دول في دنيا وأنا دلوقتي في دنيا تانية.

- عيب عليك يا جلال، دول اللي ربوك.

- عارف يا ماما عارف، أنا بقول إنهم فاتونا خلاص..

- وهو أنا إيه وهما إيه، أنا إيه وجدك زكي إيه! إنت نسيته يا جلال؟!

وأضافت بصوت بدا أوله متحشرجاً:

- أنا لسه راجعة من عند مدام السبكي، ومش عايزه أسمعك الكلام اللي قالته، كلام عيب ومفيش واحدة تقبله على نفسها،

مش عارفة دول مسلمين إزاي! ولا شيوخ إزاي! ويقولوا أهل الكتاب ومش أهل الكتاب! أهل الكتاب إيه بقى! نهايته يا ابني الست بتقول: إنها لا عايزة شوشرة على بنتها ولا سيرة تطلع عليها، إنما لو قربت منها تاني يبقى إنت ناوي على شر وساعتها هتقول لاخواتها على طول وهما يتصرفوا معاك.

ظللت ساكتاً وهي تتابع ما يدور على وجهي، ثم قالت:

- دي كمان بتقول إنه بعد البنت ما تخلص من المدرسة هيعزلوا من هنا.

- يعزلوا!

سرحت بعينيي، وهي ما تزال تقول بصوت خافت مؤثر:

- إنتوا شباب والكلام ده يا ابني بيحصل في كل حتة، والبنت كويسة مقلناش حاجة، لكن حكاية الدين لزومها إيه! دي زي ما تكون بتعايرني!

بقيت على صمتي.

- نصيحتي لك يا ابني انك تبعد عنها، أنا واحدة ملياش حد ومش قد المشاكل، ولا حد يقولي صنفك إيه ولا ملتك إيه! أنا يا ابني اللي فيه مكفيني.

أحسست بالدم يثور في عروقي، ويضرب في رأسي كالنافورة.

- ومين ده اللي يعايرك يا ماما!! طب هتشوف مدام السبكي ولا الشيخ محمد ده إيه اللي هيحصل بعدين، إن مكنتش أتجوز نادية غصب عنهم، بس أنا أتخرج من الجامعة.

- لما تتخرج! وهو انت فاكر إني هعيش لك هنا على طول!!

لاح جدي بمخيلتي، فقلت:

- أمال هتروحي فين؟ عند جدي؟

- أيوه، ورايحة على طول.

قلت بجزع:

- وتسيبيني؟!
- أسيبك إزاي! رجلك على رجلي، شد حيلك إنت بس وخد الثانوية العامة واحنا على باريس على طول.
قلت وعيناي تتوهجان:
- باريس!
- أيوه باريس، وكل حاجة مترتبة، والوظيفة كمان مستنياك، هتشتغل مع خالك شمعون.
ثم تأملتني.
- مفاجأة مش كده؟!
سحبت مخدة السرير واضعاً إياها على حجري، وعيناي تحدقان فيها وهي
تكمل الكلام:
- لا وإيه، سوسو ابن الأستاذ شولح.
تتقلص تقاطيع وجهي قليلا، وتمتد رأسي همسة إلى الأمام:
- لا. لا. دا واحد من قرايبنا متعرفوش.
ثم تكمل:
- كنت بقول إيه .. آه .. الواد سوسو كان عندي هنا من شهرين وبيقول: إن راشيل كبرت واحلوت والفلوس بتجري في ايديها، تعرف بتشتغل إيه؟
أزداد إنصاتاً ..
- مع السواح العرب، إنت عارف انهم ميعرفوش يتكلموا فرنساوي، تاخدهم هي بقى من المطار تفسحهم وتلف بيهم على المحلات وتفضل معاهم لغاية لما ترجعهم المطار تاني، وبيطلع لها من الحكاية دي سبعة ولا تمن تلاف فرنك في الشهر، دا بالميت!
- وأنا بقى لو رحت أشتغل إيه مع راشيل؟ ولا شيال زي خالي!

obeikandl.com

- بس إنت تنوي، وهتلاقي كل السكك متسهلة.
- لا ياست ماما، يفتح الله، أنا مرتاح هنا.
ردت بعصبية:
- وهو انت فاكر إنك هتطول نادية دي طول عمرك، دا بعدك، شوف مصلحتك فين وتعالى معايا.
قلت بأسى:
- مش بس نادية، أنا حابب العيشة هنا، الشارع بتاعنا وعم إدريس ومحل العصير والمدرسة والجامعة اللي هدخلها وشارع الجيش، أسيب دا كله واروح بلد غريبة! لا ناس ولا صحاب وإن لقيت شغلانة تبقى بالكتير شيال ولا زبال ولا كناس في شارع!
بدا وجه أمي كئيباً.
- ماما مقدرش أعيش هناك، نروح زيارة شهر، اتنين، تلاتة، وبعدها نرجع، لكن على طول مستحيل.
- اتكلم عن نفسك لأني هستنى هناك على طول، أنا عملت اللي عليه، اترملت عليك، وفارقت أهلي علشان خاطرك.
- بس يا ماما ..
- بس إيه، إنت عارف إن جدتك قعدت تزن على وداني علشان أسيبك عند أهل أبوك في البلد وأسافر معاهم. أنا اللي قلت لأه، مرضتش وقلت مسبش ابني لوحده وهربيه ولو حتى أشتغل خدامة في البيوت ولا أشحت عليه، وجدك كمان ياما اتخانق مع جدتك علشان كلامها ده.
- عارف.
- وعارف كمان إن جدك ساب لك ألف جنيه في دفتر التوفير، نص تحويشة عمره. سابهم من ورا جدتك علشان يساعدوا في تربيتك، ملوش حق عليك هو كمان.

كنت أتأمل شفتيها وهي تتكلم، غير أن عقلي كان مشوشاً ولا أعرف ما الذي أقوله أو أفعله ..

* * *

obeikandl.com

(٣٠)

قالوا الشيخ خلف مات ..

كنت جالساً في الصالة أراجع دروسي وفرغت للتو من حل أحد الامتحانات التجريبية في مادة الرياضة، ثم قارنتها بالإجابة النموذجية في كتاب (المرشد) فوجدت نفسي أستحق الدرجة النهائية.

تمطيت منتشياً واتجهت نحو الشرفة وأنا أقول لنفسي، كلية الطب إن شاء الله يا جلال، ولسوف تفوز بنادية في النهاية رغم أنف الشيخ محمد وكل الشيوخ الذين في الدنيا.

تطلعت من أعلى إلى الشارع، فبدا لي مضطرباً بعض الشيء وليس كعادته!

عم الحاج محمود وبعد أن خطا عدة خطوات بعيداً عن المحل يعود ويلتفت منادياً بصوت متوتر على صبيانه كي يأتوه بالكوفية وعلبة السجائر من على البنك، ويتحسس السيالة وجيب الصديري فلا يجد حافظة نقوده، يشيح بيده نحو الأرض متأففاً، ويزعق على من بالمحل كي يبحثوا عنها هي الأخرى في أحد الأدراج أو أسفل البنك، ثم يتجه مسرعاً صوب العمارة حيث أبو السعد أفندي والكابتن فريد الساكن الجديد كانا في انتظاره. وألمح حسن يمرق خارجاً من باب العمارة، يسر شيئاً في أذن أبيه ويتطلع إلى أعلى فيراني، يشير لي بأن أنزل ويدخل هو

ثانية إلى العمارة. وعلى رصيف العمارة المقابلة كان يقف رجلان أو ثلاثة من السكان ومعهم عم محمد بائع الفول ولا تزال مربوطة على صدره مريلته التي اكتسحتها بقع الزيت والفول اكتساحاً، ولم تبق فيها بوصة واحدة تخبرنا عن لونها الأصلي. انتظروا برهة حتى أتى لهم المعلم حبيب وشرعوا جميعاً في السير، وأقبل عليهم المعلم زينهم الجزار من الناحية المقابلة ومعه الحاج شلبي صاحب محمصة البن.

سأل أبو السعد أفندي الست شوق عن عم إدريس، فأبلغته بأن الخبر جاءه بعد صلاة الفجر ومن وقتها لم تره.

قال لها بحدة، وهو يقلب كفه:

- يعني هو فين دلوقتي؟

- يوه! هيكون فين يعني! راح الزاوية من ساعتها زيه زي الخلق.

- طب ما تقولي كده من الأول!

واستدار إلى الواقفين.

- كلمتهم في الشغل وأخدت أجازة عارضة لما البت ضحى الشغالة قالت لي وهيه راجعة من عند بتاع العيش.

رد عليه الحاج محمود:

- الله يرحمة، فين! من سنين طويلة، واحنا عايشين احنا وولادنا على أدانه، كنا بنستبشر بيه ونحب نصلي وراه. دي الزاوية كانت بتشغي ناس في صلاة العشا وخصوصاً في رمضان، وآه على صلاة الفجر مع الشيخ خلف! ولا صلاة التهجد! كانت الناس بتتهنه وراه ومنهم اللي بيبكي بالدموع. كانت أيام حلوة وتنعاش يا كابتن فريد، والخلق جايه منين! اللي من شارع الخليج واللي من نواحينا هنا من الضاهر، واللي من باب الشعرية وعندك فوق لحد ميدان الجيش .. أي والله!!

ويلتقط أنفاسه:

- وإيه! الناس مش لاقيه حتة تقعد فيها، ويجيبوا حصيرة من هنا وحصيرة من هناك، وعمك زناتي صاحب الفراشة اللي ورانا يبعت له كام سجادة، وأفرش يا عم هنا وفي الحتة دي وفي الحتة اللي هناك لحد ما الشارع يتقفل.

ويركز بصره على الكابتن فريد.

- وتعرف؟! الجامع اللي ورانا. جامع الاوقاف. كان بينش وتلاقي صفين تلاته واقفين ورا الإمام ودمتم، الناس المستعجلة هيه بس اللي بتصلي فيه، راجل مبروك وولي بصحيح مش القحف اللي اسمه أبو جاموس!

يقاطعه أبو السعد أفندي:

- آه بحق هو راح فين الراجل العرة ده؟ اللي ما عاد حد بيشوفه يتسنكح في الشارع رايح جاي زي الأول!

- آهو عندك متلقح في السجن، قال إيه! واحدة بتاعة خضار، من اللي بيقعدوا دول على الرصيف! غلبانة والغلب قاطع قلبها. فاكراه بني آدم بصحيح وهيصالح بنتها على جوزها، راحت له الخايبة، والمصيبة إنها عورة وولية لا مؤاخذة كبيرة في السن وشكلها يقرف الكلب، إنما هتعمل إيه في اللي ديله نجس، وقال إيه ابن الكلب ده خادها في الخرابة اللي ورا الزاوية والناس أمسك حلق حوش ونزلت على راسه وراسها بالجزم والشباشب!! بقولكم إيه ربنا حليم ستار وآهو مرمي على البرش دلوقتي أديله بيجي شهرين. يللا بينا، يللا يللا، الضهر وجب وزمانهم طالعين بالراجل.

وبدأوا في السير، وسمعت أنا طرقاً على باب شقتنا، كان حسن.

- طبعاً جاي معاك، بس ثانية واحدة لحد ما أغير هدومي.

ولما أخبرت أمي، تلقت الخبر بكآبة أدهشتني.

obeikandl.com

- مــــين! الشيخ خلف! ربنا يسامحه. كان راجل صالح وقلبه كبير. دا أنا
عارفاه وياما شفته. تعرف إنه حضر كتب كتابي أنا والبابا هنا في الشقة، وكان قاعد في الحتة دي.

وأشارت إلى أحد المقاعد، ثم أردفت:

- دا ياما جدك زكي شكر فيه، وكان يقول آدي الناس المسلمة صحيح، وتعرف إني ...

استعجلتها، مشيراً إلى حسن الواقف بالباب.

- خلاص خلاص روح يا حبيبي، بس ما تتأخرش إنت عارف الامتحان بعد أسبوعين، دي الثانوية العامة يا جلال.

* * *

يبدو أن الخبر شاع في حي الظاهر بأكمله.

كانت الزاوية أشبه بخلية النحل، والخلق من حولها أمم أمم ومن كل الأعمار ..

عيال وكبار صبيان وبنات، والشارع مغلق من شدة الزحام. وعلى النواصي وفي مداخل الشوارع القريبة والحارات، تصطف عربات نصف نقل وباص قديم وعربات أجرة بعضها آت من الأرياف، وأخرتان ملاكي من طراز حديث تحمل إحداهن لوحة محافظة أسوان. والسائقون إما واقفين إلى جوار المركبات، أو خلف عجلات القيادة في انتظار الانطلاق إلى المدافن بالناس.

كنت أنا وحسن على أول الشارع وتصادف أن وقفنا إلى جوار عددٍ من الرجال، بشرتهم سمراء ونحاف وجلابيبهم زاهية البياض. عرفناهم من العمامات التي على رؤوسهم، كانت كبيرة ومعقودة على غرار عمامة عم إدريس.

قلنا: أكيد أنهم من النوبة مثله، والغريب أننا لم نسمع واحداً منهم

obeikandi.com

ينطق بكلمة أو يهمس في أذن الآخر، يعطون الموت حقه ويهابون جلال الموقف،
ظلت أياديهم معقودة أسفل صدورهم وبقوا كلهم صامتين.

لم نغامر أنا وحسن بالتقدم إلى الأمام، أحببنا الوقوف مع هؤلاء الناس الطيبين، وإذا أخذت دفقة الناس واحد منا خطوتين أو ثلاثة إلى الأمام أو الوراء كان الآخر يشده إليه مخافة أن يضيع منه في الزحام.

وفجأة عم السكون، ورأينا الجثمان يخرج من الزاوية .

وانجذبت أنا إلى الرجل الذي يحمل مقدمة المحفة من الأمام، كأني أعرفه! يا سبحان الله! إنه عم إدريس. خدعني البصر أول الأمر لما رأيته وقد شاخ في العمر مرة واحدة وبدا وكأنه في الثمانين. ربما من قلة النوم أو الإجهاد، أو لعله الحزن وصفرة اللون عندما تكتسيان السمار، فقد سمعت أنه لم يكن يفارق الشيخ، وحتى بعدما لزم بيته كان يعوده بلا انقطاع. وحامت في بالي لحظتها الرهبة التي كانت تتغشانا أنا وحسن، عندما كنا نرى الشيخ خلف وهو يتأهب للأذان.

لم يدم السكون سوى لحظة حتى انطلقت زغرودة من إحدى الشرفات، تلتها الزغاريد من كل مكان. ووجدنا مصاحف صغيرة وأيادي عالية في السماء وأصحابها بملء أفواههم يصيحون " لا إله إلا الله محمد رسول الله "، " لا إله إلا الله الشيخ خلف حبيب الله ".

كان حسن يتابع ما يجري باستغراق، ويلكزني كل ثانية كي أنتبه لهذا أو أنظر إلى ما يفعله ذاك. وأنا لا أكاد أشعر به .. تأتيني كلماته مشوشة كأنها قادمة من بعيد .. من عالم آخر غير العالم الذي أنا فيه الآن .. وتخبو صور الناس في عيني .. تبدو كالظلال .. والأصوات .. لا أعي منها إلا كلمة لا إله إلا الله .. وكأن قدميَّ قد خفتا وأطير في الهواء .. وأدخل دفعة واحدة في

بكاء ونشيج ولا أكف عن الصياح بأعلى صوتي " لا إله إلا الله محمد رسول الله ". وحسن المصعوق بما أفعل يحيطني بذراعيه، ويرجوني أن أهدأ ويتلفت حوله كالمشدوه. وانشقت الأرض عن الحاج محمود، أخذني في أحضانه وأخذ يقرأ على رأسي الفاتحة وقصار السور وبعض الأذكار، فأستكين بين يديه برهة قليلة، ثم ما تلبث أن تبدأ شهقاتي وأهم ثانية بالبكاء.

أخذاني هو وحسن إلى البيت، أذكر أني ظللت نائماً حتى منتصف الليل، وعندما سمعت أذان الفجر نزلت إلى الجامع أصلي مع الناس.

* * *

obeikandl.com

(٣١)

عزيزي جلال ..

أكتب لك هذا الخطاب صباح اليوم الذي سوف نترك فيه البيت، ومن أول الليل وأنا لا أعرف بأي وجه سوف تهل علينا شمس الصباح، ولا كيف سوف أترك هذه الدنيا التي ولدت وتربيت فيها، غرفتي التي لا أذكر أني نمت مرة واحدة بعيداً عنها، والشارع الذي لا أعرف سواه ..

ظللت أتقلب طوال الليل في الفراش .. أتألم تارة لفراقك .. وتارة أخرى خوفاً من الحياة التي أنا مقدمة عليها .. ووجدت نفسي أتأسى على حالي وأدخل في نوبة بكاء ..

وإعلم يا حبيبي أنك من الآن سوف تكون بمأمن، سوف أخبئك في قلبي .. في أعمق مكان فيه .. وأغلق عليك .. ولن يعرف أحدُ غيري بمكانك .. لا أمي ولا أمك ولا أحدُ آخر. قد يرونني جالسة أطالع كتاباً، أو مستلقية على الفراش أتهيأ للنوم، أو هنا وهناك، لكن لو كانت لهم قلوب لعرفوا أني لست وحدي .. وإنما معك .. أكلمك وتكلمني .. أخفض عيني خجلا وأنت تربت عليَّ أو تجري أصابعك على شعري ..

قد لا تصدق إذا قلت لك أني لا أعرف عنوان السكن الجديد الذي نحن في طريقنا إليه الآن، فقد حرصت أمي سامحها الله

على ألا تبوح به لأحد حتى لا يتسرب إلى أهل العمارة، فأخفته حتى عني، وعن صديقتها الحميمة زوجة أبو السعد أفندي.

جلال ..

أنا يتيمة الأب كما تعلم وأهل أمي هم الذين تكفلوا بتربيتي، والقرار قرارهم في كل شيء يتعلق بي. ويبدو أن أمي تسرعت وأخبرتهم بالذي بيننا، وها أنا أجني ثمار ما فعلت. والأدهى من ذلك أنها قالت لي من يومين: إن خالي الشيخ مصطفى كلمها في أمر خطبتي لابنه الكبير الضابط بالجيش، وقبل أن أنطق بكلمة قالت لي أنني لو أكثرت في الجدال لن يكتفوا فقط بنقلنا من السكن القديم، وإنما سوف يخرجونني من المدرسة وأجلس معها في البيت.

والذي أود أن تعرفه أيضاً أن هذا الحال الذي انتهينا إليه جاء على هوى تانت كاميليا، هذا ما فهمته من أمي!

إهتم بنفسك وبدروسك يا جلال ..

واستحلفك بالله ألا تمني نفسك بشيء تستكثره علينا الظروف والأيام، لأنك لو أقدمت على شيء ولو كان حتى مجرد السؤال عن عنواني فسوف توقع بي الأذى، فمازال لأمي عيون في العمارة تنقل لها الأخبار.

نادية

٥ يونيو ١٩٧٤

كنت عائداً من صلاة الظهر فوجدت الست شوق في انتظاري أمام باب العمارة، تلفتت حولها وقالت: إن معها أمانة لي.

وعندما لمحت الدهشة التي تكسو وجهي، أردفت:

- أيوه أمانة! جواب من الست نادية.

رفعت بصري إلى أعلى صوب شرفتها.

- بتبص على إيه يا ابني مفيش حد فوق! دول عزلوا خلاص، مشيوا من
إمبارح الضهر.

- عزلوا! سابوا البيت خلاص! نهائي نهائي!

- إنت لسه بتبص فوق! يا دي الخيبة، يا ابني خليك معايا!

وأخرجت الخطاب من صدرها، وسلمته لي.

- أوعى يا سي جلال يقع في أيد حد كده ولا كده، أوعى، دا يبقى فيها خراب بيوت، وبالخصوص الست والدتك.

- بتقولي إيه؟

- أيوه الست والدتك، دي وصية نادية، وقالت لي: إنها كانت عايزه تقولك كده في الجواب بس انكسفت.

* * *

وعندما صعدت إلى الشقة وجدت أمي جالسة على الأرض في غرفتها، وإلى جوارها حقيبتان من الخشب حجمها كبير وكل واحدة منهما مبطنة بصدغ من الحديد، وفي المنتصف من أعلى (رزة) بمسامير كالتي تستخدم في غلق الأبواب، وقفل يزيد وزنه عن ربع كيلو. الحقيبتان اللتان كانتا أسفل سرير جدي ولا أذكر منذ أن وعيت على الدنيا أنهما تحركتا بوصة واحدة من مكانهما، وكان الدولاب مفتوحاً على آخره ومحتوياته متناثرة في كل مكان. بلوزات .. فساتين .. شماعات .. مفارش وبلاطي قديمة .. أرواب وقمصان نوم .. زجاجات عطور فارغة أو بالكاد فيها نقطة أو نقطتين .. وشباشب بيتي وخروج بعضها مقلوب على وجهه.

رفعت رأسها نحوي متبسمة، وعيناها تلمعان من أعلى النظارة المتدلية على أنفها.

- إنت فين يا جلال! مش كنت تقف معايا وأنا بعمل بروفة للحاجات اللي هناخدها معانا! كنت فين واتأخرت كده ليه مش قلت لي دقيقة وراجع؟

- كنت في الجامع.

قالت وهي تحك بأظافرها في صدغها:

- آه .. الجامع .. طيب ما كنت تقفل أوضتك عليك وتصلي فيها، ولا ضروري يعني تصلي في الجامع.

لم أجب، وظلت عيناي تطوفان على الهدوم والكراكيب التي تملأ الغرفة.

- تعرف يا جلال ولا حاجة من كل ده هتنفع هناك! هبقى زي اللي جاية من الفلاحين! يمكن الفستانين التلاتة دول، والكام جزمة وشوية الغيارات دي.

وأشارت إلى كومة من الملابس، وعلب للأحذية مرصوصة فوق بعضها بجوار السرير.

- آه والباقي أشحته، طب أشحته لمين؟ لمين؟ لمين؟ أشحته دا إيه!! واد يا جلال إلا هو عمك يونس بتاع الروبابيكيا لسه بييجي زي زمان وأنا أبيعهم له.

ونظرت إليَّ مكملة الكلام:

- طب وطربوش جدك أعمل فيه إيه، دا مزيت وميساويش مليم ولا هينفعك بحاجة هناك يا عم زكي، ولا حتى هنا، دا لا يتباع ولا يتشرى.

وحدقت في غاضبة.

- ولد مالك واقف ساكت ومطرشم كده ليه؟!

ثم أخذت تقلب طربوش جدي في يدها، وكأنها تتكلم معه " وإنت يا عم زكي كلها شهر بالكتير وأكون عندك، إلا قولي إنت بتلبس إيه على راسك دلوقتي، تلاقيك بتلبس برنيطة وبقيت خواجة، وإنتي يا ست ماما عاملة إيه دلوقتي ... ".

لم أسمع بقية الكلام، تركتها وعدت إلى غرفتي.

* * *

obeikandl.com

(٣٢)

كانـت أعجوبـة مـن الأعاجيـب التـي تسـتحق الإدراج فـي موسـوعة (جينـيس)، أن يحصـل طالـب فـي فصـل ثالثـة عاشـر على سبعة وثمانين في المئة بامتحان الثانوية العامة، بل وحدث يجب أن تتناقله وسائل الإعلام، كما قال الأستاذ مرقص معاون المدرسة.

كان الرجل يمسك بكشف الدرجات في يده، ويتفحصني من أول الفرق الذي في شعري حتى ربطة الحذاء. يدقق في الكشف ثانية، ويعاود التأمل في من أعلى نظارة القراءة وحدقتا عينيه تتسعان من الدهشة، وكأنما شيئ يقول له إنه في حلم وليس في علم. معذور - ورب الكعبة - فأنا الآخر مثله، ولم أستوعب بعد هذا الذي حدث.

يُحدث جلبة وهو يقوم من على كرسيه، ويمد يده إليَّ مسلماً.

- واد يا جلال يخرب بيتك، إيه ده اللي إنت عملته، الأول! وعلى المنطقة كمان! أنا بقالي تلاتين سنة في المخروبة دي ومشفتش كده. الأول على المنطقة من مدرستنا، دي حكاية لوحدها، ومنين!! من تالتة عاشر!! دي بقى اللي تفوت في النافوخ وتخلص عليه، من تالتة عاشر!!

وينظر ناحية الأستاذ سُمعة، الذي كان جالساً على مقعد يطل منه على

حوش المدرسة.

- ولا إيه رأيك يا أستاذ سُمعة، مش والنبي الحكاية دي تنفع حدوتة تنحكي للعيال في الليل زي حدوتة الشاطر حسن والزير سالم وأبو رجل مسلوخة.

يتأملني الأستاذ سُمعة، وعيناه تقولان إنه يفتش عن صاحب هذه السحنة في الجانب غير السار من مخزون ذكرياته..

وأتحول أنا إلى الأستاذ مرقص مستفسراً:

- والباقيين يا أستاذ عملوا إيه؟

- باقيين! هو عاد فيه باقيين يا ابني، كله على الشارع، كله كله ولا واحد نجح طبعاً.

- والليثي كمان؟

- ليثي! ليثي مين!! وهو الوسخ ده بتاع علم! قال إيه جاي من الصبح بدري يسأل على النتيجة، تعرف جاي بأيه؟! النطع ده لابس جلابية بلدي وعلى راسه لاسة وماسك في ايده خرزانة، يكونش احنا هنا سوق خضار ولا شادر سمك، تعرف جاب كام؟!

تطلعت إليه ..

- جاب تسعة في المية في المجموع الكلي، أي والله!!! وخد عندك في الكيميا والطبيعة والرياضة، صفر صفر صفر. قلت له: سبع سنين يا ليثي في الثانوية العامة! روح شوف لك حته بعيد عننا، إنت لا ينفع لك تعليم ولا مدارس، دا حتى حكاية المدرسة دي بقت مش لايقة عليك ولا تناسب سنك، دا يا ابني مدرس الرياضة اللي عينته القوى العاملة(٣) عندنا السنة اللي فاتت من دورك، إنتوا الاتنين مواليد سنه واحدة!

* * *

(٣) يقصد الأستاذ مرقص وزارة القوى العاملة، التي أنشئت في العهد الناصري وعُهِدَ إليها بتعيين كافة خريجي المدارس والجامعات في وظائف حكومية.

obeikandi.com

واستدعاني حضرة الناظر إلى مكتبه ..

شد على يدي بحرارة، وهو يقول: إني رفعت رأسه ورأس المدرسة عالياً بعد أن يأس من فصل ثالثة عاشر ووضع يده في الشق.

واحتضنني الأستاذ البصراطي، ثم التفت إلى حضرة الناظر:

- دا فصل ملعون يا سعادة البيه، دا كان ناقص إن الواحد يرخص بندقية آلي ويعلقها على كتفه وهو داخل من باب الفصل ويضربلوا عيارين تلاتة في الهوا على سبيل التهديد قبل ما يشرح الدرس، إنما الولد ده!!

وأشار إليَّ:

- ولد محترم، ابن ناس طيبين، وأنا طول عمري أتنبأ له بمستقبل زاهر، مش بعيد يبقى زي الدكتور مشرفة ولا الدكتور أنور المفتي، أما من حيث الأخلاق، ذوق ومؤدب ومطيع، حاجة تفرح.

هز حضرة الناظر رأسه طرباً، فاستمر الأستاذ البصراطي:

- دا تربيتي، وكنت كده زي أبوه الروحي، أقول له: شد حيلك يا جلال، يقول لي: حاضر، عايزك ترفع راس حضرة الناظر في الامتحان، يقول لي: حاضر، وعلى كده على طول حاضر حاضر.

ويلتف إليَّ:

- مش كده يا جلال؟

فأجبته وأنا ما بين الضحك والخجل:

- طبعاً طبعاً يا سيادة الرائد العام، ربنا يخليك لينا.

* * *

وفي البيت استقبلتني أم حسن بالزغاريد على سلم العمارة، وصعدت إلينا بدستة شربات وثلاثة أقماع كبيرة من السكر. وأرسل المعلم حبيب صندوقين إسباتس وكوكا كولا، وأتى

الحاج محمود وأبو السعد أفندي والكابتن فريد وباقي سكان العمارة مع زوجاتهم وأولادهم، ودارت الست شوق بأكواب الشربات وكلما همت بإلقاء زغرودة، كان الجالسون يسارعون بحماية رؤوسهم خوفًا من أن تسقط عليها صينية الأكواب التي ترتعش في يدها الثانية. مسكينة! باءت محاولاتها بالفشل، كانت الزغرودة غالباً ما تنحاش في زورها وإن خرجت تبدو كمواء قط عجوز حنجرته معطوبة ..

وفي المساء أخذني حسن إلى سينما مصر.

شاهدنا فيلم (أطول يوم في التاريخ)، ثم فيلم (الخطايا)، ظللت أتابع عبد الحليم حافظ طول الفيلم وهو حائر ضائع، وتبدو لي نادية لطفي وكأنها نادية حبيبتي..

وعندما تمددت على الفراش في آخر اليوم حام طيف جدي لأبي في خيالي، وحال بيني وبين النوم.

لم أكن قد تذكرته منذ أشهر وربما سنة بطولها، أحاول الإفلات منه فيستمر في الإلحاح، أفكر في شيء آخر، أضع مخدة على رأسي ولا جدوى، وهببت فجأة من النوم على أذان الفجر. يبدو أني غفوت غفوة قصيرة، وأكاد أجزم أنه جاءني في المنام .. هي العمامة .. ونفس العصا التي يتوكأ عليها .. وهو هو الوجه إلا أنه أكثر شباباً ..

* * *

o3eikanda.com

(٣٣)

- إسمع يا جلال أنا لحد كده عملت اللي عليه، خلفتك وربيتك واتحملت كتير علشانك، ودلوقتي عايزاك تريحني.

كانت هذه هي أول الكلمات التي نطقت بها أمي، ونحن نتناول الإفطار في اليوم التالي.

تسارعت دقات قلبي، وقلت في نفسي " أكيد هتفتح موضوع السفر، أستر يا رب ".

أزحت كوب الشاي جانباً وأنا أنظر إليها خلسة، عيناها شاخصتان نحوي وتقاطيع وجهها متوترة قليلا، فعرفت أنها شحذت كل طاقتها ومعركة من النوع الثقيل تلوح في الأفق إن لم أتجاوب معها.

قلت أراوغ ..

نظرت إليها وعلى شفتي ابتسامة كاذبة، فلم تعبأ وبدا وجهها وكأنما ينتظر مني رداً على الفور ..

قلت:

- صباح الخير ياست ماما، إيه رأيك نتفسح النهارده بمناسبة نجاحي، نروح الهرم، هرم إيه الدنيا حر! نروح جنينة الحيوانات.

- ولد!! أنا مش فايقة وبتكلم جد.

obeikandl.com

- نشوف الحمار المخطط، ونلاعب القرود أو نركب الفيل أبو زلومة.

صاحت في وجهي:

- بطل الكلام الخايب ده واسمعني كويس، أنا خلاص ناوية على السفر، هروح أعيش مع الماما والبابا، ألحق أقعد معاهم لحسن حد يجرالة حاجة منهم وأفضل ندمانة العمر كله.

- طيب نأجل الكلام في الحكاية دي لبعدين.

- لا بعدين ولا قبلين، وكلامي دا نهائي.

- يا ماما!

- لا ماما ولا بابا، إنت خلاص كبرت وريني كده هتصرف أمورك إزاي؟

توترت أنا الآخر، وقلت بضجر:

- وإيه المطلوب مني؟

- نصفي حاجتنا هنا، الشقة نشوف هنسيبها لمين ولا هناخد فيها خلو رجل كام، ومن الصبح تروح لعمك في البلد تحايله تخانقه تلاطفه أعمل اللي تقدر عليه علشان تعرف اللي لك وتاخده.

- إسمعي يا ماما أنا بالعربي كده مقدرش أسيب هنا، معرفش أعيش هناك، أموت، أفطس.

ردت بأسى:

- تفطس!!

ومضت برهة طويلة تحاشا كلا منا النظر فيها إلى الآخر .. لم يكن يُسمع إلا صوت الرشفة أو الرشفتين اللتين تناولتهما أمي من كوب الشاي، وتطاير أوراق النتيجة الورقية المعلقة على الحائط بفعل نسمة هواء هبت علينا. وكانت الحركة في الخارج هادئة على غير العادة، والشارع ساكت لا يأتي منه صوت.

obeikandl.com

- طيب تعالى وجرب، تعالى وصل الماما، تعالى شوف جدك، ولا كتير علينا

دا يا سي جلال! كتير على الماما اللي علشانك مشافتش يوم حلو في دنيتها ولا جدك الراجل الغلبان اللي نفسه يشوفك.

- ماما ..

- ماما إيه بقى!

قالتها على نحو حرك قلبي، فعاودت جدالها ولكن بصوت خافت وقلب مرغم:

- بس حكاية نصفي حاجتنا دي! أصل يعني! طيب إزاي بس نسيب شقتنا هنا! أمال لما أرجع هنا أقعد فين؟ وبعدين أنا لسه ما بلغتش سن الرشد ومش هقدر آخد حاجتي وأرضي من عمي دلوقتي، لسه فين! سنتين ولا تلاته على الأقل.

- يعني هتيجي معايا؟

- آجي بس أرجع آخر الصيف.

- خلاص.

- وترجعي معايا؟

ردت بانفعال:

- بتقول إيه! أرجع، أرجع دا إيه! دا أنا بحسب السنين سنة بسنة والأيام ساعة بساعة، وبتقول أرجع! أرجع لمين؟ للست شوق وأم حسن والكام جارة اللي عايزين الحرق، دا أنا مبنمش الليل، ليلي طويل ونهاري زي ليلي، إسكت إسكت.

- ومالها أم حسن يا ماما؟

- أم حسن دا إيه! أنا عايزة ناس تانية، عايزه أهلي، ناسي، أعيش بينهم وأروح وآجي معاهم.

- يا ماما مش كده، إنتي فاهمه الدنيا غلط.

- غلط! خلي الصح لك إنت يا جلال.

ظللت ساكتاً وهي تكمل كلامها:

obeikandl.com

- تروح لعمك وتحاسبه، تشوف إيه اللي لك، واللي تعرف تجيبه منه هاته.
- حاضر.
- تروح بعد يوم ولا اتنين.
- حاضر.
- يعني على آخر الأسبوع تكون رجعت وجبت الفلوس معاك.
- حاضر.

* * *

obeikandl.com

(٣٤)

لاحت البلدة من بعيد، عندما انحرف بنا الباص ناحية اليسار ثم عبر الترعة.

شجر الكافور، مدخنة وابور الطحين، بيوت من طابق وطابقين أنشئت حديثاً على أطراف الحقول، وحوائط من الطوب الأحمر وسقوف وأعمدة من الحديد المسلح في وسط الزرع، تبرز منها أسياخ نالها الصدأ ومربوط بأطرافها خرق من الخيش تتطاير في الهواء. ورجل سبق الجميع وفتح دكان بقالة في الخلاء، مركون بجوار بابه برميل زيت يلطخ السواد حافته، وبرميل أكبر للجاز له صنبور صغير وفي أعلاه طست صغير به فوارغ من كل المقاسات.

وكنت أرى الحمير على طول السكة الزراعية وهي تنوء بأحمال الذرة، ومع ذلك كانت تزفر برضا وبين الحين والحين ترفع رؤوسها وتنظر بألفة إلى الزرائب والشون التي تلوح مع البيوت من بعيد. وتسرع في خطاها، كأنما تطمح في أن تريح ظهورها بعد هذا المشوار الطويل، وتحظى بشربة ماء أو تستلقي في الظل كسائر خلق الله.

ومن نافذة الباص، طفقت أتابع الفلاحين الذين يملأون الحقول.

obeikandi.com

كانوا بملابس العمل، الفانلات ذات الأكمام الطويلة والسراويل، وأسمع
الصخب الذي يحدثونه والنداءات. وألمح الذين يجلسون منهم في دوائر حول
براد كبير للشاي مدسوس بين جمرات النار، والذين يتمددون في ظل شجرة أو بين أعواد الغاب وأبدانهم المتعبة راحت في سبات عميق، والبنات اللائي كن يحملن كيزان الذرة في حجورهن ويلقين بها في أكوام وضحكاتهن ترن في السماء.

كنا في أول الحصاد، والفَرحَ مولود لتوه، وريحه تسري في كل مكان.

* * *

وعندما بدأ الباص في الإبطاء من سيره، اقترب مني المحصل.

قال وهو يريح كف يده على حافة المقعد الذي أجلس عليه:

- أظن الأستاذ قاطع لحد المنصورية؟

هززت رأسي بالإيجاب، فطلب مني أن أتجهز.

نزلت.

تلفت حولي بروية وبشيء من الثقة كي لا أبدو غريباً أو أثير أي فضول، وإن كنت في الحقيقة مشدوداً وكأن رجفة تسري في بدني. شتان ما بين هذه المرة والمرة السابقة، كنت في الأولى وثاباً وعيناي ملهوفتان على أي شيء تراه.

الحال الآن غير الحال، والحمد لله أن بيني وبين عمي إبراهيم مرسال والعلاقة من بعيد لبعيد، ترى سوف يعرفني بعد أن صرت في طول جدي، وأصبحت لي لحية خشنة وطلعة كطلعة الرجال؟ وما هي الهيئة التي يبدو عليها العم الآن؟

ظللت واقفاً أتطلع حولي، إلى أن لفت نظري مقهى صغير على بعد ياردات من الطريق فاتجهت إليه.

ليس مقهى كالمقاهي التي في شارعنا، مجرد عشة كبيرة يحيط بها سياج قصير من الغاب المضفور، وجزء منها مسقوف بلوحين من الأبلكاش والباقي بالخيش وأعواد الجريد، والسقف كله يرتكز على أربعة جذوع من النخيل. لم تكن متساوية الطول، الجذعان الأماميان هما الأقل طولا، ولذا بدا السقف مائلا ناحية الواجهة وكأنما على وشك السقوط.

أما المقاعد الخشبية فكانت من طراز فريد ..

استحالة أن تكون صنعت في ورشة، أو ساهم في صنعها نجار ولو حتى كان جديداً في الكار. صاحب المقهى هو الذي صنعها بيده! أكيد هذا الرجل السمين المتكوم على البنك الذي في أول المقهى، وعشر ذبابات على الأقل تلهو على شال عمته. فما هذا يا أولاد الحلال؟! مقعد بخمسة قوائم وآخر بثلاثة ومقعد بمسند مخلوع، والغريب أنها ترتفع عن الأرض ارتفاعاً غير مسبوق في عالم النجارة، ولو جازف أحد وجلس على أي منها مرة واحدة بلا حذر أو أية احتياطات لكان هو المقصر في حق نفسه والمسئول عما يجري له. وطاولات قصيرة كأنما أعدت لزبائن قصار القامة، ويفضل لو كانوا أقزاماً. والرعشة والتزييق إذا لمستها ولو بحنان، ناهيك عن المسامير التي تطل برؤوسها في كل مكان ولو لم تضع عينيك في رأسك لصار أي ثوب ترتديه (ضبة ومفتاح) في الحال!

آثرت ألا أجلس في الواجهة، توقياً للغبار الآتي من جرارات الحرث والدواب التي تعبر الطريق. اتجهت صوب الجانب الأيمن المحاذي لبوابة وابور الطحين، تخيرت مقعداً أتسلى منه برؤية الداخلين والخارجين من البوابة، وكانت الريح تهب خفيفاً، فأتاني غبار من نوع آخر وفعمتني رائحته. رائحة الدقيق. وكنت أرى ذراته وهي تسبح في أشعة الشمس المتسللة من بين أعواد الغاب، وأتابعها وهي تدور حول نفسها دورات

obeikandi.com

متعاقبة إلى الأسفل لتستقر أخيراً على بنطالي خاصة في موضع الركبتين.

وتذكرت الميزان القباني الذي كان موجوداً بجوار البوابة، غير أني لم أجده.

يبدو أنهم وضعوه في مكان آخر خلف الوابور، إذ كنت أرى النسوة اللائي
يحملن قفف الحب متجهات صوب الحائط الغربي للوابور، ليظهرن بعدها من الجانب الآخر ويمرقن من البوابة وفي يد كل واحدة منهن الورقة المسجل عليها مقدار الوزن والمبلغ المدفوع، أما الحمير المحملة بالأجولة فكانت لها سكة أخرى ذات التواءات، وتفضي في النهاية إلى الوابور من الخلف حيث الميزان.

وانداح بصري نحو المدخنة ..

لم تعد عالية، جاورها بيتان من ثلاثة طوابق لا يزالان تحت الإنشاء، ودهنوا الوابور كله بلون أزرق فاقع، فبدا كعجوز يقول إنه ابن اليوم والناس لا تعطي لقوله اعتباراً، والمساحة الواسعة التي كانت تربض فيها الحمير ضاقت، أقاموا فيها أربعة دكاكين تطل على الطريق.

لم يعد الوابور مهيباً مثلما رأيته وأنا صغير..

ورغم أني أطلت النظر فيه هذه المرة، إلا أنه كلما ورد على خاطري لا أتذكر إلا الحال الذي كان عليها يوم أن رأيته وأنا صغير.

لم يطل بي المقام في المقهى، غادرته ومشيت نحو بيت جدي، قادتني الذاكرة من شارع إلى آخر. كنت متوتراً بالطبع وأعمل ألف حساب للسحنة التي سوف يلقاني بها العم، وشيئاً فشيئاً بدأت تومض أشياءً لم أكن أحسب أنها لا تزال في بالي، وكأن قلبي يألف لها وتخف ضرباته، وبدا لي الأمر وكأن

البيوت تتطلع إليَّ بعد غياب، والرجل الآتي في مواجهتي الآن كأنه أحد صاحبي جدي اللذان أتيا إليه وجلسا يسامرانه على الحصيرة وأنا موجود، والمرأة العجوز التي تقعى على عتبة بيتها في الظل النحيل للجدار، وجهها يقول إنه الخالق الناطق وجه جدتي. وهذه الدكاكين .. وهنا .. في هذا المكان .. عند هذا المنعطف بالتمام، رأيت رجلا بصديري وقميص طويل من الدمور وجلبابه مطوياً على كتفه. شاهدنا أنا وأمي فهرع إلينا وظل يدفع الأولاد عنا بعود من الحطب التقطه من الأرض وهم يتقافزون أمامه، وأمام هذا البيت صادفتنا المرأة ذات الشعر المنكوش والحزام التيل الذي تلف به خاصرتها، أخافتني نظراتها فأمسكت بيد أمي مستنجداً، فشددت قبضتها على يدي وفي عينيها خوفاً أكثر مما بي.

* * *

لم أكن أحسب أن كل هذا محفور في رأسي، وأن الأمر ليس كما ظننت مجرد مشوار عمل وتسوية حسابات.

وعندما وصلت إلى مفرق لعدة حارات، سألت فقالوا: إن البيت القديم لم يعد موجوداً، هدموه بعد أن مات الجد عبد الحميد، وأشاروا إلى بناية من الطوب الأحمر أقيمت مكانه. ورأيت أولاداً كباراً يقفون أمام بوابتها التي صفحوها بالحديد الأسود، وركبوا عليها قضباناً ملتوية لها سنون كسنون الحراب. كان ولد منهم يعبث في مقبضها الفولاذي، الذي اتخذ هيئة رأس أسد منكوش الشعر وأنيابه تلوح.

وقفت على مقربة منهم وخفقان دافق يلاحق صدري، وقلبي يهيم في البوابة القديمة .. البوابة الخشبية التي دلفت منها خلف جدي أول يوم جئت فيه .. والجدار الغربي .. والدهليز .. وغرفة الخزين التي كنا ننام فيها أنا وأمي .. حتى شجرتا التوت ليستا موجودتان، اقتلعهما أصحاب البيت الجديد وأقاموا مكانها

obeikandi.com

صفاً من أشجار الزينة التي تنبت أزهاراً نارية لونها الأحمر لا يريح العين.

تريثت برهة لأضبط مشاعري، ثم أقبلت على الأولاد الذين كانوا يرمقونني بدهشة ويتهامسون. عرفتهم من أكون. لم يبدُ عليهم أي انفعال. لا بالخير أو بالشر. سلموا عليَّ بتحفظ كما يسلمون على عابر سبيل، وقادني أكبرهم إلى غرفة فسيحة، أجلسني وخرج دون أن يحكم إغلاق الباب فظل مواربا.

الغرفة طويلة وأقرب لأن تكون مضيفة لاستقبال الغرباء وليس للاستعمال الدارج لأهل البيت، ومليئة بكنب بلدي تعلوه بياضات بألوان غبية تخلو من الإنسجام، وفي الزاوية ثلاثة أرائك مذهبة أمامها منضدة عليها دفاتر وأوراق، وكان بمواجهتي ثلاثة شبابيك ذات مقاسات كبيرة تطل على الشارع.

لفت نظري أن الأولاد الذين لقيتهم على الباب قد اتخذوا أماكن يرمقونني منها جيداً، وأنهم يزدادون. بلغوا عشرة في حين لم يكونوا سوى أربعة لحظة دخولي. أحببت أن أناورهم فانتقلت إلى الناحية المقابلة. جلست وظهري للحائط ورأسي ويداي وباقي أجزائي مختبئة بين ضلفتي شباكين متجاورين. انكمشت تماماً مضيعاً عليهم أي منفذ لمراقبتي اللهم إلا إذا ابتدعوا حيلة جديدة، وهم في هذا ـ والحق ـ لا يبارون. وكانت المفاجأة أن أرى صورة جدي معلقة على الجدار المقابل لي. لم أرها من قبل. لعلها الرهبة التي أخذتني عندما دخلت. فم جدي كان مزموماً وتقطيبة تعلو جبهته، ورغم ذلك بدت قسمات وجهه طيبة ورخية.

* * *

وشاع الخبر في البيت..

أحسست بحركة خفيفة وهمهمات، وعيون تتطلع من فتحة الباب الموارب. أولاد وبنات يتزاحمون على الفتحة، ومن

تدافعهم كانت تنفرج منهم، لكن يداً كانت تسرع بشكل تلقائي وتعيدها إلى حالها الأول للمحافظة على المساحة الصحيحة بيني وبينهم حيث يرونني ولا أراهم. وبعد برهة سمعت صوتاً أنثوياً يهش هذا الجمع ويدفع الباب، وتدخل فتاة شعرها ملموم بمنديل أبيض به خطوط سوداء. قدمت لي الشاي في كوب من الحجم الكبير، سألتها عن الأكواب الصغيرة والشاي ذي الرائحة النفاذة الذي كنت أشربه مع جدي.

لم تجب.

مددت يدي لها مسلماً، فسلمت عليَّ دون أن تغطي يدها بكم الجلباب

كما يفعل أهل الريف عندما يسلمون على رجل غريب، ولما سألتها عن اسمها قالت : ليلى، وأسرعت خارجة تتعثر في خطواتها، أظنها أختي التي كانت تقعى في حجر أمها يوم أن أتينا هنا أول مرة وأنا ابن سنوات ..

وأتى إمام ..

دخل على عجل ووجهه يتألق بضحكة كبيرة.

- سي جلال. أهلا أهلا أهلا.

وأخذني بالأحضان.

لم أره من سنين طويلة، جف وجهه وضمر واستغربت أكثر من اللحية التي رباها في منطقة الذقن حتى التحمت بشاربه، والشعر الذي برز من حواف الطاقية صار أشيباً ومجعداً وأشبه بقطن التنجيد. بان عليه الهزال، أحسست بذلك لما احتضنته، شعرت بأنه ضئيل في يدي وأني قادر على حمله.

سألته عن جدتي، فقال: إنها قضت من سنة أو يزيد، واندهش من أني لا أعرف ذلك، وأردف: بأنه جاء لأمي في اليوم الثالث لوفاة جدتي خلسة من وراء عمي إبراهيم، وطلب منها إبلاغي وأن نأتي معاً للعزاء فيكفي أنها قصرت في عزاء جدي، بل

obeikandi.com

وسألها بعدها أكثر من مرة، فقالت: إنها مريضة ولا تقدر على السفر إلى الأرياف، وأن ابني مشغول بالمذاكرة الآن وعندما تنتهي الامتحانات سوف أحضر للعزاء.

والتفت إليَّ وهو يزيح طاقيته للخلف كاشفاً عن جبهته المبللة بالعرق، مسحها بمنديل كان في حجره، وقال وعيناه تبرقان بعلامة استنكار: ألم تبلغك؟!

صمت.

ربت على يدي وقال بصوت هامس: إن جاءت السيرة مع عمك فلا تقل أنك تعرف أو أني أبلغتكم.

وصفق عمي إبراهيم علينا الباب ونظرة معتمة تلوح في عينيه، بدا

أطول وأعرض مني بكثير، وبعينيه اليسرى حول خفيف يبدو أني لم ألحظه عندما كنت صغيراً، وازداد مهابة لما استبدل الطاقية بالعمامة.

تأملني لحظة وعلامة رضا تلوح في وجهه ويقول:

- ما شاء الله! ما شاء الله! والله كبرت يا جلال.

ثم قطب ما بين عينيه، وهو يسوي قبة الجلباب.

- مش كان واجب عليك يا جلال تعزي في الحاجة الكبيرة، مش هي برضه جدتك، طيب ساعة لما مات جدك كت صغير ومعلكش حساب.

وسكت برهة، ثم أردف والضيق على وجهه:

- إنما دلوقتي، أقول إيه عاق ومفيكش خير!

انعقد لساني، وأسرع إمام قائلا:

- وهو كان يعرف منين يا سي إبراهيم! الغلط غلطي أنا، أنا اللي كان واجب عليَّه أروح وأبلغه بنفسي.

هز رأسه هازئاً، وحل علينا صمت قاتم لا تخدشه إلا السعلات المتبادلة ورشفات أكواب الشاي. وكان كل شيء في

obeikandl.com

الغرفة، ينظر إلينا مثلما ننظر إليه.. الأرائك والكنب والحيطان.. وبدا الصمت ذاته كالكلام له صوت وطنين ثقيل على الآذان.

قلت بعد برهة سأم طويلة:

- أنا ناوي أسافر مع والدتي وكنت محتاج موافقة حضرتك.

- موافقتي! موافقتي على إيه! على السفر والغيبة والبعاد ولا على إنك تطلع جواز سفر زي ما بتقول الحكومة.

باغتني فتطلعت إليه مرتبكاً، وأردف هو وعيناه تحدقان في وجهي:

- مش إنت برضة لسه قاصر ومحتاج لموافقتي قدام بتوع الجوازات، هو ده اللي إنت عايزه ولا جاي تسلم علينا وتستأذن مني، مش أنا برضه في مقام الله يرحمه أبوك ؟!

وتدخل إمام، فأشاح له العم بيده كي يسكت.

قلت متلعثماً:

- هو ده اللي أنا اقصده.

- تقصد أي واحدة فيهم؟

ازداد ارتباكي ..

- هوه فيه فرق بينهم يا عمي؟

- أيوه فيه فرق، وكل واحدة لها حسابها وتمنها.

قلت في نفسي إنه يناور، وأكيد يود الاستفادة من الوضع الذي أنا فيه، فنظرت إليه بنصف عين.

- مش فاهم يا عمي، حساب وتمن إزاي؟!

تأملني، ثم قال:

- إسمع يا ابني، إذا كنت عايز موافقتي على جواز السفر يبقى تتنازل عن اللي ليك عندنا، مبقولش تتنازل كده ببلاش. يعني ناخده بيع وشرا ومع السلامة بعد كده، ترجع من بره ما ترجعش إنت حر، وكل حي بعدها في حاله. وإن كنت جاي

obeikandl.com

تزور تربة أبوك وجدك وجدتك وتترحم عليهم، وتقعد معانا يوم واتنين وتلاتة، وبدال ما تقعد معايا دلوقتي لوحدك تيجي عماتك وأختك ليلى وكلنا نقعد مع بعض، وآخر قعدتنا تستأذن مني في السفر والغيبة وعلى شرط إنك ترجع تاني وميضحكوش عليك بره، كده .. أقولك أرضك محفوظة، ومش كده وبس واسمك كمان محفوظ في قلوبنا، وكل الفلوس اللي انت عايزها علشان السفر لك ولوالدتك وأكتر منها كمان جاهزة.

هب إمام قائماً ويصيح:

- براوة عليك يا سي إبراهيم.

وانسابت دموعي وأنا أقول:

- معاك حق يا عمي.

غير أني عاودت التفكير فيما قاله العم إبراهيم، ولا أعرف لماذا ثار هاجس في نفسي بأنه غير صادق ويود أن أذهب مع أمي ولا أعود!

هل هو الشك والكره اللذان زرعتهما أمي في قلبي تجاه أهل أبي؟! أم الضآلة والضعف اللذان كانا يعتريانني وجعلاني أتحسس وأتحسب من أناس جبابرة قياساً عليَّ ويمثلون لي المجهول؟!

أختي ليلى هي التي ران قلبي إليها، ولا زلت أذكر قولها بأنها كانت تعد الأيام لتراني، وأن صورتي وهيكلي هما اللذان سوف يلوحان أمامها كلما جاء أبي في خاطرها.

* * *

obeikandi.com

(٣٥)

حطت بنا الطائرة في مطار أورلي.

ووطأت أقدامنا الأنبوب الطويل الذي يصل بين باب الطائرة وأرض المطار، والحال بين الركاب ما بين فرحة على الوجوه وثرثرة وضحك أو تعليقات ساخرة على وجبة الغداء التي تناولناها في الجو قبل قليل، وعلى طاقم الضيافة خاصة الرجل القصير أبو شارب مثل شارب هتلر.

كان وحق الله أعجوبة في شكله وفعله ..

لم يستجب هذا (الزلنطحي) ولا مرة لنداءات الركاب، طلب منه أحدهم كوباً من الشاي، وناشدته امرأة أن يأتي لها بقرص مسكن، وراكب آخر توسم فيه الخير وطلب منه جريدة الأهرام.

قال للجميع: حاضر حاضر حاضر، ثم اختفى عن الأنظار.

وعندما طال الوقت قام أحدهم مغتاظاً لتحري الأمر، فوجده مسترخياً على مقعد في مؤخرة الطائرة (وهات يا نوم) ومخدة صغيرة موضوعة على رأسه حتى لا يوقظه ضجيج الطائرة أو يقلقه أحد. ولما أيقظه أحد الركاب معاتباً هب غاضباً وشمر عن ساعديه استعداداً للشجار، كان الراكب هو الآخر رجلا لا يستهان به ومن النوع الذي يضرب بالرأس، ولولا لطف الله وتدخل أولاد الحلال لتطور الأمر ووجدنا سيارة إسعاف في انتظارنا الآن على

ممر الهبوط.

* * *

كنا نسير أنا وأمي في ذيل الناس، ملهيان بأنفسنا ونعمل ألف حساب لما يمكن أن يحدث لنا لو لم نجد أحداً في انتظارنا على باب المطار، ولم يكف قلبينا عن الدق وجلا من هذه الدنيا التي نحن مقبلان عليها.

توقفنا فجأة في نهاية الأنبوب ..

لا أعرف لماذا؟!

ربما لأن رجلا كان يسير أمامنا انتحى جانباً وتوقف ليشعل سيجارته ففعلنا مثله، والغريب أنه مضى إلى حال سبيله، إلا أننا استمررنا واقفين حتى أغلقوا باب الطائرة وبدأ طاقم الضيافة في الانصراف وفي مقدمتهم أبو شارب. وعندما طال بنا الوقوف واختلط بنا ركاب طائرات أخرى أخذنا أنا وأمي نتلفت إلى بعضنا ولا ندري ما الذي نفعله، وأحسست بكف يدها بارداً وهو يلتف حول رسغ يدي فربت عليها مطمئناً.

قلت في نفسي، أنا الرجل ولا بد أن أتصرف وآخذ زمام المبادرة، وتصادف أن لمحت جمعاً من المسافرين ممن كانوا معنا على الطائرة، يقفون عن بعد ويدققون النظر في إحدى اللوحات المعلقة على جدار أحد الممرات. أخذت بيد أمي وأسرعت تجاههم وأنا ما أزال أحاكي نفسي وأقول، لا خيار لي سوى السير خلفهم فهم من قومنا ولن يضيعونا.

كانوا ثلاثة رجال لا يكفون عن الضحك بصوت عال أو الكلام المصحوب بإشارات اليد، ومعهم امرأة مسنة وأخرى يافعة تحمل طفلا صغيراً يتململ على صدرها وكانت مشدوهة مثلنا بما تراه من إعلانات براقة عن سجائر الكنت والجلواز والجيتان أو أصناف الخمور والعطور، وبفتيات شقراوات كن

يمرقن عكس اتجاهنا وهن يثرثرن بكلمات سريعة ذات إيقاع ونغم.

قلت: آه .. هذه إذن اللغة الفرنسية، وتبسمت على اللغة المضحكة التي كنا
نتعلمها على يد الأستاذ تادرس.

وكنا نرى رجال الشرطة بقاماتهم الفارعة وملابسهم الزرقاء الداكنة وقبعاتهم المستطيلة، التي طالما رأيتها عندما شاهدت فيلم (إيرما لادوس) لشيرلي ماكلين نجمة هوليود وفيلم جميلة بوحريد لفنانتنا الكبيرة ماجدة.

ائتنسنا بهذه الصحبة التي من طرف واحد، وأومأت لأمي كي نستمر في السير وراء هؤلاء المصريين الذين يبدون وكأنهم محنكون في الأسفار وقلوبهم ليست في أرجلهم مثلنا، فكانوا إذا سلكوا أحد الاتجاهات نسلكها معهم، وإذا توقفوا فجأة وعادوا من حيث أتوا فأيضاً وراءهم، أما إن توقفوا لشراء شيء أو لمساندة المرأة الصغيرة عندما يتلوى منها الطفل ويصرخ عالياً، فكنا ننزوي على مقربة منهم ونظل نتطلع إليهم حتى يفرغوا ويعاودوا السير فنقتفي أثرهم.

وبعد جولة من المشي الممتع اللذيذ وجدنا أنفسنا قبالة موظف الجوازات، ثم السير الكهربائي حيث قمنا بأخذ حقائبنا التي كانت ـ وبحق ـ تحفة بين الحقائب، وأكيد ذكرت الناس حولنا بموديلات الحقائب في منتصف الأربعينيات.

ترتب على انشغالنا بمسألة الحقائب، أن ضاعت منا الصحبة التي كنا نسير خلفها. انتابني الارتباك وأنا أتلفت بحثاً عنهم كي نمضي وراءهم كالمعتاد، ولا فائدة. ضاعوا منا. تلاشوا. وأحسست ببعض المرارة وكأني تعرضت لخديعة، وأنه كان من الواجب عليهم انتظارنا، وأخذنا طوفان الناس حتى وجدنا

obeikandi.com

أنفسنا نتجه معهم صوب الباب الزجاجي للمطار ونخرج أنا وأمي.

* * *

لفحتنا لسعة برد خفيفة رغم أننا لا نزال في أواخر الصيف، ووقفنا ننظر إلى بعضنا البعض وقد أسلمنا أمرنا لله إلى أن انشقت الأرض عن غادة حسناء

ذات شعر متهدل ترتدي بنطالا من الجينز وبلوزة تشف عما ورائها.

وقفت تحدق فينا، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

- تانت! تانت كاميليا مش عارفاني ولا إيه، أنا راشيل! راشيل!

- مين! راشيل!

وارتمتا في أحضان بعضهما، تتبادلان القبل وكلمات الاشتياق ودمعهما ينساب.

- وبتتكلمي عربي كمان! كنت فاكراكي نسيتيه.

- أنساه إزاي يا تانت! دا احنا كلامنا مع بعضنا على طول بالعربي.

والتفتت نحوي.

- جلال!!

واحتضنتني وقبلة هنا وقبلة هناك، ولم أتوان أنا الآخر عن معاملتها بالمثل ما دامت هذه هي عادة أهل باريس.

اصطحبتنا في سيارة رينو إسبور، عرفنا أنها تملكها، وأنها تعيش وحدها الآن في غرفة كبيرة بمنافعها حمام ومطبخ صغير ومدخل خاص في شارع (سان ميشيل) بالحي اللاتيني، بعد أن ملت من العيش مع أمها وأباها اللذان يقطنان في حي (بلفيل) الملئ بالمهاجرين والفقراء.

سألناها عن جدي وجدتي؟

قالت: إنهما شاخا لكن لا يزالا قادران على الحركة والخروج وقضاء طلباتهما بنفسيهما، ويسكنان بحي (بارباس) وهو حي فقير ويمتلئ هو الآخر بالمهاجرين خاصة الأفارقة وأبناء المغرب العربي.

- ولسه بابا بيشتغل؟

- شغل إيه يا تانت! دا ساب الشغل بقاله سنتين.

- وعايش إزاي!

- لأه دا من الناحية دي هو مرتاح، أنا بديله ألف فرنك في الشهر وكمان
ألفين مساعدة من الضمان الاجتماعي بتاع البطالة، دا بقى غير اللي بيبعته
خالي إيزاك.

- إيزاك!

نطقت أمي اسم خالي بوجدِ شديد، وأردفت وعيناها سارحتان:

- وأزيه دلوقتي؟ عامل إيه؟ بتشوفوه؟

- طبعاً يا تانت طبعاً، دا بييجي يزورنا مرة كل سنة، والفلوس جريت في إيده بعد ما فتح سوبر ماركت كبير في حيفا.

أخرجت أمي منديلا صغيراً من حقيبتها تجفف به دمعة أفلتت من عينيها، وهي تقول بصوت باكي:

- كده برضه يا إيزاك! سنين وسنين وسنين، آه يا وحش .. آه ..

تركت راشيل يدها اليسرى على المقود، ووضعت اليد الأخرى على كتف أمي مواسية.

- وإنتي كمان واحشانا يا تانت وعمالين نعدلك بالأيام ونقول إمتى هتيجي؟ وامتى القرد ده هياخد الثانوية العامة؟

واستدارت ضاحكة إلى المقعد الخلفي حيث أجلس، وأنا أنظر إلى الشقاوة التي تطل من عينيها وشعرها المتطاير بفعل الهواء الآتي من النافذة.

قالت أمي وعلى وجهها ابتسامة رضا، وإن كانت عيناها لا تزال تلوح فيها نذر بكاء.

- نفسي أشوفه يا راشيل؟!

- يا خسارة دا لسه راجع إسرائيل بقاله أسبوع، فضل قاعد شهر بحاله في شقة جدي هو وحنة مراته وبنته إستر.

هزت أمي رأسها بأسى، فأردفت راشيل:

- الأيام جاية يا تانت وياما هتشوفيه بدال المرة عشرة، وإن كنتي مشتاقة

له قوي أرتب لك سفرية لإسرائيل أنتي وجلال.

ملت برأسي نحو نافذة السيارة متأملا الشوارع الواسعة التي نمضي فيها، والبنايات الدسمة التي تحفها من الجانبين. ذكرتني بالبنايات القديمة ذات التماثيل الصغيرة التي تتخلل البناء والجداريات المنحوتة والأعمدة النحيلة القصيرة التي في الشرفات، كنت أراها خطفاً في شارع شريف أو شارعي عدلي وعبد الخالق ثروت وعند تقاطع شارع فؤاد بشارع رمسيس، ولم أحسب أنها محفورة في مخيلتي على هذا النحو.

يبدو أن أمي فطنت إلى ما ألم بي، فغيرت مجرى الحديث سائلة عن خالي شمعون، فقالت راشيل: إنه سيء الحظ ولا يستقر في عمل واحد أكثر من سنة.

- وساكن فين دلوقتي؟ جنب جدك ولا بعيد؟

قالت: إنه يسكن في المنطقة (العشرين)، وهي منطقة موبوءة وتعتبر وكراً للعصابات والعاطلين وتـُدبر فيها مختلف أنواع الجرائم، وتـُباع فيها كل الأشياء الممنوعة وأولها المخدرات.

- وشمعون مش خايف على نفسه؟

ضحكت راشيل.

- وهو عنده حاجه علشان يسرقوه ولا حتى حد يبص له، وكمان كل الشارع عارف إنه كناس في البلديه ومحلتوش أي حاجة.

- كناس!!

قالتها أمي بدهشة كبيرة رغم أنها تعرف من خطابات جدي وجدتي أنه كان مجرد حمالْ، وما الفرق بين الكناس والحمالْ يا أمي حتى تندهشي هكذا!!

واستطردت راشيل:

- أيوه كناس، ولولا إني بساعده كان مات من الجوع، منفعش يا تانت

في أي شغلة هنا! اشتغل بياع في كشك بتاع واحد جزائري لحد ما لخبط له

الدنيا فكرشه، وبعدها شيال وبرضة منفعش. كل ما يشيل شنطة على كتفه تقع منه ويتكسر اللي فيها! وفضل حضرته ييجي سنة من غير شغل لحد ما طلبوا كناسين في البلدية فاشتغل هناك. آهو بقاله شوية ولسه محدش اشتكى منه لحد دلوقتي، لكن عن قريب هنلاقيه عامل له فضيحة ولا مشكلة ومطرود.

واستمرت متأففة:

- تعرفي يا تانت أنا ساعات وأنا معديه بالعربية قدام الأوبرا ولا شارع (أوسمان) ألاقيه واقف بالمقشة، أشاور له وتبقى عينه في عيني وما يردش عليه، مرة والتانية لحد ما قلت يتفلق ومعتش بعبره.

- شمعون! الطيب! العاقل! إيه اللي جراله؟

- ومش كده وبس دا بيتحسر على أيام مصر، ولو كان الأمر بأيده زي ما بيقول كان رجع من زمان.

قالت أمي والدهشة على وجهها:

obeikandi.com

- عايز يرجع!!
لم يفرغا من الحديث إلا بعد أن توقفت بنا السيارة أمام عمارة متواضعة بزقاق ضيق، لا تفترق كثيراً عن عمارتنا بحي الظاهر. وفي عقار مجاور لها محل للجزارة مكتوب أعلاه باللغة العربية وبخط كبير " الشيخ منجي - اللحم الحلال "، شدني إليه رجلان يقفان أمامه ويثرثران بلغة تمتزج فيها الكلمات العربية بكلمات فرنسية.

وبمجر أن دلفنا من باب العمارة، سمعت من أعلى صوت جدي وهو يصيح علينا.

- جلال، كاميليا، حمد لله على السلامة.

وإذا هو في أعلى الدرابزين ..

وقفت أتطلع إليه ورغم ما بيننا من مسافة، إلا أني لمحت على الفور التغير
الذي طرأ عليه. وعندما دفعتني راشيل كي أبدأ بالصعود، اندفعت على السلم مسرعاً كما كنت أفعل على سلالم عمارتنا وقلبي يرنو إليه ..

* * *

obeikandi.com

(٣٦)

شقتنا في حي الظاهر كانت ـ والله ـ جنة، إذا قارناها بالشقة التي يسكنها جدي الآن.

غرفتان: الصغيرة والتي خصصوها لنا تحتوي على سرير ودولاب يتسع بالكاد لحاجات فرد واحد، وشماعة معلقة على الحائط، وكنبتين أفرنجي من عمر جدي كل واحدة منهما تتحول إلى سرير وقت اللزوم.

لكن كيف؟ فهذه هي المشكلة!

فقد حاول جدي مرتين إجراء تجربة على واحدة منهما أمامنا وفشل، فانحنيت لمساعدته مسترشداً بتعليمات جدتي التي تقف على رأسي وبوز حذائها ينغز ساقي. نسمع تزييقاً من النوع الثقيل وينبعث في وجوهنا غبار مشبع برائحة الأبلكاش فيبدأ جدي في السعال. نتوقف برهة ونفتح الباب على آخره حتى يصلنا الهواء الآتي من شباك المطبخ ويطرد هذه الرائحة، فالغرفة لم تكن بها نوافذ، مجرد طاقة صغيرة تطل على المنور وهواءها راكد.

نعيد المحاولة من جديد ولكن في كل مرة وفي آخر لحظة بالضبط تحرن منا الكنبة وترفض استكمال دورتها، فنعيدها إلى حالها الأول ونحن نلعن أباها وأبا النجار الذي صنعها. وتفاقمت المشكلة أكثر وأكثر في المحاولة .. لا أدري بالضبط!! ربما

obeikandi.com

المحاولة العاشرة .. تحركت معنا الكنبة في أول الأمر بسلاسة ولين ثم توقفت فجأة في منتصف الطريق، لا خطوة للأمام أو حتى للخلف. وحرنا في أمرها، فلا هي صارت سريراً أو عادت كنبة كخلقتها الأولى.

اغتاظ جدي وركلها بقدمه ثم غادرنا إلى الحمام ليجفف عرقه، أما جدتي فرأت الأمر عادياً وقالت من طرف لسانها:

- نو بروبلم (مفيش مشكلة)، شوية كده وأنا أنده على الكونسيرج (البواب) وهو يشوف أي حل معاها.

لم أندهش من عوجة لسان جدتي، فهي إن لم تفعل ذلك لن تكون مدام إيفون أم منقار كما كانوا يسمونها في مصر.

***

الغرفة الكبيرة، هي غرفة جدي وجدتي.

أول ما دخلناها لاحظنا أنها رطبة ومعتمة، لدرجة أنك لا تستطيع أن ترى أي شيء فيها حتى ولو كنت في عز النهار ونظرك ستة على ستة، إلا إذا ضغطت على زر الكهرباء واشتعلت اللمبات الثلاث المتدلية من السقف. والأساس ما شاء الله! تشعر من أول نظرة أنه من أيام (ماري إنطوانيت) آخر ملكات فرنسا، وكله - بالطبع - خروم وسوس وخرابيش، ولا أعتقد أن أي شخص مهما كان رشيقاً يستطيع حفظ توازنه إذا جلس على كرسي التسريحة، وإن فعلها فمن المستحيل النهوض من عليه بدون مساعدة لوجستية. والمرآة تناسب الأعمى والبصير على السواء، أما السرير والدولاب فحدث ولا حرج.

قالت جدتي: إنها أخذت كل هذه الأشياء (شروة) بثلاثمائة فرنك من سوق اسمه سوق (البراغيث)، تباع فيه الأشياء القديمة مثل سوق الكانتو عندنا.

والشقة بمجملها بينها وبين نور ربنا عداوة، فكل نوافذها على منور تهيم

فيه فرقة من القطط لا يقل إجرامها وقلة أدبها عن القطط التي كان يطاردها عم إدريس بعصاه.

سألت جدتي، فقالت:

- نعمل إيه في الجزار الوسخ اللي فاتح تحت، هو السبب، القطة من دول تخطف حتة اللحمة منه وجرى على المنور ووراها خمسين قطة ويدور الخناق عندنا.

يصعب عليك معرفة النهار من الليل في هذه الشقة إلا إذا خرجت إلى الشارع، أو شببت على أطراف أصابعك ونظرت من نافذة المطبخ ذات العصيان الحديدية فهي وحدها التي تطل على الشارع. لكن والحق كان المطبخ كبيراً، ويتسع لطاولة من الحجم المتوسط لتناول الطعام. ولا توجد صالة تقريباً، مجرد ممر طويل ومتسع قليلا وضُعتّ به عدة مقاعد متقابلة كأننا في معزى، والجزء الأخير من هذا الممر أخلوه لأنابيب الغاز المتصلة بالجدار وتشع منها الحرارة لتدفئة الشقة.

* * *

مكثت يومين كاملين لا أخرج من هذه الشقة اللعينة، أمي وجدتي في المطبخ أغلب الوقت، ولا يكفان عن الكلام الذي ينقلب إلى وشوشة إذا شعرا بأن أحداً يقترب من المطبخ، وأنا وجدي قبالة بعضنا على مقعدين في الصالة.

ذقنه غير حليقة، ووجهه ليس نحيلا وشاحباً فقط من أثر الشيخوخة، وإنما تشعر بأن مرضاً يسري في جسده.

يدقق النظر في وجهي وأحسب أنه سوف يتكلم إلا أنه يظل صامتاً، وساعات كان يرفع حاجبيه قليلا ثم أراهما يتهدلان منه، وينحني برأسه داخلا في غفوة. لم تكن تستمر طويلا. دقيقة أو دقيقتين ويفتح عينيه بعدهما متبسماً لي، وهو يمسح اللعاب الذي ظن أنه يسيل من شفتيه، ففي غفوات كثيرة لم يكن يخرج من فمه أي لعاب، غير أنه كان يفعل ذلك

بحكم العادة.

ويتركني ويقوم ليأتي بعلبة سجائره، يسير متحاملا على نفسه بسبب الدوالي التي تعشش بساقيه وتبدو رأسه منكفئة على عنقه. تلحظ أمي ذلك وهي واقفة في المطبخ، فتسأل جدتي.

أسمعها وهي تجيب:

- من كتر الهم اللي معيش نفسه فيه، صاحي زعلان ونايم زعلان، أقول له: أخرج فك نفسك، تعالى نروح هنا ولا هناك، ابنك إيزاك ياما اتحايل عليك علشان تزوره، دي كلها أربع ساعات بالطيارة ويلاقينا داخلين عليه ومفرحينه ومفيش فايدة يا بنتي!

لا أعرف ما الذي دفعني إلى الاعتقاد بأن نظر جدي هو الآخر أصبح ضعيفاً وأن سمعه صار ثقيلا، وأتأمل باب الغرفة الذي دخل منه ولا يزال مواربا. لا ألحظ أي حركة بالداخل، وأخشى أن أسمع صرخة خافتة وصوت شيء يرتطم بالأرض، ونهرع إلى جدي فنجده قد راح في غيبوبة.

يفاجئني بخروجه وهو يعقد على وسطه حزام الروب البني الذي ارتداه للتو، يبدو أكثر مهابة من الأول، أتطلع إليه وهو يقف أمام المطبخ صائحاً في جدتي:

- وإيه اللي جاب الهم والغم دلوقتي يا إيفون، مش كنتي معايا عند الدكتور وسمعتيه وهو بيقول إن كل اللي عندي شوية دوالي في رجلي على حبة خشونة في الرقبة، مفيش فايدة فيكي! مش هتبطلي تأليف وكذب! واللي في بالك ده عمري ما هعمله حتى ولو انطبقت السما على الأرض.

وينقطع الصوت في المطبخ.

أكيد يتوشوشان عن هذا الذي في بال جدتي، ويرفض جدي الإقدام عليه.

obeikandl.com

وكنت ألاحظ أن بال جدتي أصبح طويلا، ولم تعد تدخل في مشاجرات
معه وسمعتها مرة تقول لأمي: إنه لا يكف عن لومها وتوبيخها بسبب وبلا سبب وأحياناً أمام الغرباء وأنها تعمل بأصلها وتتحمله.

تربت عليها أمي وتقول:

- وهو من إمتى على الحالة دي؟!

- السنتين تلاتة الأخرنيين.

تصمت أمي.

- وقال إيه! بيقول إنه كان نفسه يقضي اللي باقي من عمره في مصر ويندفن هناك، شوفي الراجل الخرفان!

- يا حبيبي يا بابا.

يعود جدي إلى الجلوس معي.

يخرج سيجارة (جولواز) من العلبة الملقاة بحجره، السيجارة قصيرة ومدكوكة وبلا فلتر. يشعلها وينفخ الدخان في وجهي. لم يكن يفعلها في مصر. كان يدخن سجائره دائماً إما في الحمام أو في الشرفة، وعندما تنادي عليه جدتي كان يقول لها: إنه يخاف أن يؤذيني برائحة الدخان.

دخان السيجارة كثيف ورائحته أشبه بالرائحة المنبعثة من تبغ السيجار، وجدي مشغول باللعب في أسنانه الأمامية بطرف إصبعه الصغير.

أداعبه فيهز رأسه وتبدو ابتسامة على وجهه، أذكره بأيام حي الظاهر، يسترخى للوراء ويمد ساقيه إلى الأمام وهو يتمطى.

- وأزي المعلم حبيب؟

- الحمد لله، بيسلم عليك يا جدي.

- والحاج محمود العطار أبو حسن؟

أتمهل برهة قليلة وأقول:

- يا سلام يا جدي دا أنت واحشه خالص وباعت لك ألف سلام.

لا يعرف جدي إننا اقتدينا به وسافرنا خلسة دون أن نخبر أحداً وكل هذه السلامات من عندي، منها لله أمي حرمتني من توديع أحب الناس إليَّ وتركنا شقتنا فجأة كما اللصوص أو المطاردين.

- ولبيب الصرماتي؟

أقول له: إن دكانه مغلق من سنوات ولا أعلم عنه شيئاً.

يندهش.

- ملكش حق يا جلال، مش كنت تسأل عليه وتعرف إيه اللي حايشه عن فتح الدكان؟

- والشيخ خلف؟

- مات، تعيش أنت يا جدي.

- بتقول مات!! الله يرحمه، ويعني الماما مقلتليش في جوابها الأخراني أما ملهاش حق، جواباتها كلها كلام فاضي والحاجات المهمة مبتقولش عليها.

ويستدير ناحية المطبخ منادياً على أمي بصوت يشوبه الضيق، لا تسمع، فيعود إليَّ.

- وتلاقيك على كده مبترحش شارع الأزهر.

- أزاي يا جدي! رحت كام مرة.

- مبصيتش على محل الحاج دسوقي؟

أحدق فيه.

- الحاج دسوقي تاجر المانيفاتورة اللي أخدتك معايا في العزا بتاع الست والدته.

أهز رأسي، ويبدو عليَّ كأنني أتذكر.

obeikandl.com

- ياواد الحاج دسوقي اللي انت فضحتنا وقعدت تعيط لما سمعت الشيخ عبدالباسط وهو بيقرا قرآن.
أحاول التجاوب معه.
- آه. آه. افتكرت يا جدي.
- ويا ترى بترينة الساعات لسه واقفة قدام المحل بتاعه؟
أصمت.
- وعباس الصبي بتاعي هو برضة اللي واقف عليها؟
أتطلع ببصري ناحية الجدار ..
أرى صورة حديثة لجدي وجدتي معلقة في برواز كبير، ملصق به من أسفل وعلى ناحية صورتين صغيرتين وقديمتين لي أنا وراشيل، وفي الناحية الأخرى صورتين حديثتين لطفلين آخرين. لا أعرفهما. ربما كانا أولاد خالي إيزاك أو خالي شمعون.
- دا واد مظبوط، لما ساعتك تتعطل يا جلال روح صلحها عنده، فكره بنفسك قوله أنا ابن المعلم زكي وهو يحط الساعة في عنيه ومش هيرضى ياخد منك فلوس.
أنتبه إليه مومئاً برأسي. يطرق صامتاً وتبدو نظرة مرتعشة في عينيه، وهو يضم أطراف الروب ليغطي ركبتيه.
- تفتكر أقدر أرجع مصر تاني؟
أحدق فيه صامتاً.
تخرج جدتي من المطبخ متوجهة إلى غرفتها فيتوقف عن الكلام، وبعدما تغلق الباب عليها يقول:
- تعرف إنها كانت عايزانا نروح نعيش هناك مع إيزاك!
أشعر بالدماء تسري في وجهي ولا أجيب.
- إسرائيل دي مش بلدي، يمكن تكون بلد إيزاك ولا البت راشيل أو حتى شمعون، إنما أنا!!
أتطلع إليه، فيقول وعيناه تهبطان إلى أسفل:

- منهم لله اللي كانوا السبب.
أصمت وأهبط ببصري إلى الأرض.
يتأملني ثم يدخل في غفوة جديدة.
* * *

obeikandl.com

(٣٧)

أتت راشيل بعد أسبوع ..

البنطلون كتان لونه رمادي فاتح ومعقود برباط عند سمانة الرجل، والبلوزة شفافة وتصل بالكاد إلى حافة البنطلون. ويبدو أنها لم تكن تضع حمالة للصدر أو ربما كانت الحمالة من النوع الرقيق، فقد كان صدرها غير محكوماً وثدياها يهتزان لأقل حركة.

ولأول مرة أعرف أن كلمة (بارفا) هذه ليست كلمة هينة.

كانت أنفي تعيش في الحضيض من قبل، ولا تفهم إلا في زجاجات الكولونيا أم جنيه ونصف التي كنت أشتريها من عم زوزو. والغريب أنني إذا سألته مرة أن يخفض ربع جنيه في الزجاجة، كان يشمخ بأنفه إلى أعلى ويقول: إن أسعاره محددة وبضاعته " برفكس ".

أتطلع إليه، فيضيف:

- يعني أصلية يا سي جلال! أصلية! بتيجي من المصنع على طول على عندي ومفيش فيها فصال.

أستمر في الجدال مصمماً على التخفيض، فيلوح الغضب على وجهه.

obeikandl.com

- إسمع يا ابني، أنا هنا ببيع شغل مضمون وماركات مسجلة، اللي عاجبه السعر أهلا وسهلا، واللي مش عاجبه أحسن له بقى يروح يدور له على بصلة
ويقعد يشم فيها.

- يا عم زوزو!

- زوزو مين وبتاع مين يللا يللا زق عجلك، أمال ياخويا لو شممتك أسانس الورد ولا الفل البلدي أبو أربعة جنيه تقول إيه؟!

- طيب وريني كده.

- مينفعكش يا حبيبي، أنا مخليه للزبون التقيل.

أين أنت الآن يا عم زوزو؟ أين أنت يا صاحب (الشرز) المتهدل على كتفيك والبيريه الأجرب الذي تخفي به صلعتك! والله لو اتبعت كلامك لأصبحت أنفي في خبر كان، ولو كنت معي الآن وشممت العطر الذي يفوح من راشيل لعرفت أن الدنيا لاتزال بخير، وعدت في أول طائرة إلى مصر وأضرمت النار في هذه الكناسة التي تبيعها. صدقني يا عم زوزو، فهذه أول مرة في حياتي أعرف فيها أن حاسة الشم هذه حاسة جهنمية، وقادرة على أن تجعل الدم يغلي في العروق.

يبدو أني تبسمت أو لاح شيء على وجهي، إذ لمحت أمي وهي ترمقني وعلى وجهها استفسار باسم. وأقبلت راشيل نحوي، جلست على يد (الفوتي) الذي أجلس عليه وهي تضرب بإصبعها على شحمة أذني مداعبة، وجذعها وجانباً من مؤخرتها يلتصقان بكتفي. أفلتت عيناي رغماً عني تجاه أمي، فوجدتها تتابعنا ووجهها يكسوه الراحة.

وضعت راشيل حقيبة يدها على الأرض، وكورت البلوفر الأبيض الخفيف الذي كان في يدها وألقت به في حجري، ووراءه الايشارب النبيتي الذي كان يحيط بعنقها.

obeikandi.com

تحسسته - أكيد حرير - ورأيت على طرفه رمزاً يشير إلى الصانع .. مودموازيل (كوكو شانيل).

اعتذرت لنا عن غيابها.

قالت: إنـــــها انشغلت مع ضيف من أبي ظبي وصل فجأة مع أسرته، وكان يرغب في لف باريس من شرقها لغربها في أسرع وقت قبل أن يطير إلى لندن.

قالت لها جدتي، وهي تختلس النظر إلى جدي:

- يعني على كده جيبك عمران يا بت؟

- كان راجل طيب وكريم يا نينة، اداني مبلغ محترم ولو طلبت أكتر مكنش هيمانع.

- طيب إيدك بقى على ألفين فرنك، وتفوتي عليه بكره نشتري الخاتم اللي قلت لك عليه.

نظر جدي إليها غاضباً.

- عيب كده يا إيفون، البنت تقول عليكي إيه!

قامت راشيل نصف قومة، وهي تقول عاتبة:

- جدي! كده برضة.

- كده ونص كمان، أنا منبه عليها ميت مرة متبصش لحاجة العيال، اللي معانا مكفينا، خاتم إيه ده اللي هي عايزاه! عندها في الدولاب جوه عشرين خاتم.

وأخرجت جدتي منديلا صغيراً من صدرها تمسح به عينيها، وهي تقول بصوت مخنوق:

- كده برضة يا زكي وبتغلط فيه قدام العيال، هو أنا لسه هتعلم الصح من الغلط على كبر، اللي بكلمها وبتعشم فيها دي بنتي وأنا مربياها وليه حق عليها.

***

وشاطت النار في البيت.

فشلنا جميعاً في السيطرة على جدي الذي انفتح على آخره في الكلام والزعيق، ولم يكتف بتقريع جدتي وإنما استدار إلى راشيل يلعنها ويلعن أباها وأمها والدنيا والعيشة وكل شيء، فتركوه كلهم ودخلوا إلى غرفة جدتي. بقيت أنا وهو وحدنا.

ساعة كاملة وثلاث أو أربع سجائر حتى هدأ، سألني بعدها وهو يتثاءب:

- هو انت مجبتش جرايد معاك ولا مجلات أو أي حاجة تنقري؟

- جرايد!

- أيوه جرايد!

- والله يا جدي ..

قاطعني:

- يعني مجبتش. طيب.

ثم قام يرفع وسادة المقعد الذي يجلس عليه، وأخرج مجلة قديمة اسمها (الجيل) كانت تصدر في مصر أيام الستينيات، ورفع ساقيه متربعاً على المقعد وبدأ في القراءة.

هما دقيقتان فقط وأعادها ثانية إلى مكانها، وأخذت عيناه تتنقل بين السقف والجدار والمقاعد واحداً تلو الآخر، وتبدو صفحة وجهه يابسة لا حياة فيها.

وكان صوت الجالسين في غرفة جدتي يعلو أحياناً فيمد رأسه إلى الأمام مرهفاً السمع، وعندما يخفت الصوت يستدير ببصره ناحيتي. أقول في نفسي، سوف يتكلم الآن، وأتطلع إليه مشجعاً غير أنه لا يفعل، يتركني ويعود إلى التحديق في الأشياء مرة ثانية.

يلتفت إليَّ فجأة، أسأله:

- بتضيع وقتك أزاي يا جدي؟

يرد بفتور:

obeikandl.com

- زي ما انت شايف ياعلى الكرسي ده، يا نايم في السرير.
- مش تخرج شوية يا جدي؟
- أخرج!!
- أيوه يا جدي، تمشي رجليك، تتسلى، تعمل أي حاجة.
- أعمل أي حاجة. آه. طيب.

ودخل في نوبة تثاؤب من النوع الذي له صوت ويأتي من أعماق القرار، وبعد أن هدأ مدد ساقيه إلى الأمام وأرخى جفنيه.

حشرة صغيرة أكبر قليلا من حجم النملة، كانت تقف على حافة المقعد الذي يجلس عليه. ألاحظها منذ مدة وهي على هذا السكون. من المؤكد أنها من سكان الخروم والخرابيش التي بسرير جدي وتاهت في الشقة، وتنتظره الآن لتعود معه إلى بيتها.

لا أعرف ما الذي استهوى هذه الملعونة في أذنه بالذات؟! تحركت حتى صعدت على كم البيجامة، وسارت في خط مستقيم بحذاء الخياطة حتى بلغت الياقة وبقفزة أصبحت أسفل العنق. لم أدعها تفلت مني في هذه المنطقة المليئة بالشعر، ظللت معها حتى شقت طريقها بثقة ودخلت في صيوان أذنه وهو لا يشعر.

يرجع بساقيه إلى الوراء، وعلى وجهه ابتسامة كئيبة.

- بقى عايزني أخرج يا سي جلال! أروح فين؟ لا هنا محل المعلم حبيب ولا شارع كلوت بيه ولا ميدان العتبة، أنزل الشوارع هنا أعمل إيه؟ أتبصص على الخنافس ولا النسوان الملط!

وتركني متجهاً إلى الحمام.

كانت إحدى فردتي بنطال البيجامة مشمورة شمرتين والأخرى مفرودة، والجزء العلوي واسعاً يخب فيه والأكمام قصيرة قليلا.

ظللت أرمقه وهو يمشي حتى واراه باب الحمام.

obeikandl.com

* * *

obeikandl.com

(٣٨)

قالـت راشـيل وأنـا أهـم بـالجلوس إلـى جوارهـا فـي المقعـد الأمامي للسيارة:

- معلش هنفوت الأول على شـارع الشـانزليزيه، عنـدي معـاد شغل هناك وبعدين نكمل.

هززت رأسي فأردفت:

- وكمان الشانزليزيه من ضمن برنـامج فسحتنا، آهو نبتـدي بيه.

وانطلقت بنا السيارة من شارع إلى آخر وأنا أتأمل الـدنيا مـن حـولي، وكـأني أركـب سـفينة فضـاء أتـابع منهـا مـا يجـري فـي كوكـب آخـر. النـاس الـذين فـي عجلـة مـن أمـرهم، القبعـات، المظلات التي في الأيدي تحوطـاً لمفاجآت الغمـام، الكلاب التـي تتجول برفقة أصحابها كأنما هو حق لها وفرض من الفروض، الحمرة التي تعلو الخدود، خصلات الشعر المتدلية من الأغطيـة الصوفية التي على الرؤوس، القطط المحمولة في سلال صغيرة وحول أعناقها شرائط بكل الألوان، والسيارات الستروين بشكلها غير المألوف.

كنت أشبه بالقروي الذي أسقطوه بمظلـة وتركـوه، أحـاول أن أقرأ المكتوب على لافتة أو في إعلان فأفشل، وأنـدهش مـن فتـى وفتـاة يتعانقـان أمـام النـاس بـلا حيـاء أو وازع مـن ضـمير، أو

يشدني بصري إلى سلالم تتدلى في باطن الأرض ورجال يصعدون منها أو ينزلون، فلم أكن سمعت من قبل عن مترو الأنفاق إلا من وسائل الإعلام.

ومن شدة توهاني، لم أنتبه إلى أن راشيل تنادي عليَّ:

دفعتني بإصبعها في كتفي فاستدرت نحوها.

الدلال الذي طغى على نغمة صوتها وهي تقول: " إنت يا واد، رحت مني فين؟ "، والنظرة الماكرة الشقية التي تلوح في عينيها، أطاحا برأسي وشعرت بدم مجنون ينطلق في كل عروقي.

تماسكت وأنا أقول ورعشة تسري في بدني:

- آه. آه. صح، دي باريس فعلا زي ما بيقولوا عليها.

- وهو انت لسه شفت حاجة! يا واد انت، أمال لما ألففك في الحتت اللي تستاهل وأسهرك في الليدو[٤] هتقول إيه؟! وبعدين أخدك على غابة (بولونيا) وأفرجك على اللي بيجرا فيها، أنا ناويه أجننك هنا.

أريح رأسي على ظهر المقعد مستمتعاً بحلاوة اللحظة، ترمقني منتشية وأصابعها الطويلة تزيح شعرها إلى الوراء.

أقول:

- والله أنا صعبان عليّه جدي، حابس نفسه في الجحر ده ليه! مش ييجي يسكن في الدنيا الحلوة دي.

- جدك!

وتضحك ضحكة عالية وهي تستدير نحوي، يفلت صليب ذهبي صغير كان مخفياً وراء فتحة البلوزة، هو وجزء من السلسلة المتدلية من عنقها.

أنظر إليه مستغرباً!

---

[٤] ملهي ليلي شهير بشارع الشانزليزيه.

تقبض عليه بأصابعها ووجنتاها تتضرجان بالدماء، وبحركة خاطفة تفك زرار البلوزة وتداريه في حمالة صدرها فينكشف جزء ليس بالهين من ثديها. لم يكن لونه خمرياً كما توقعت وإنما شديد البياض وكأن حمرة خفيفة تضرب فيه، وفي الأعلى من الناحية المتجهة إلى الإبط ألمح شيئاً غامقاً أشبه بالوحمة وحوله شعيرات قليلة صفراء اللون.

تسرع قائلة:

- دا شغل، متخليش دماغك تروح لبعيد.

أزداد انتباهاً، فتكمل:

- إنت عارف إني بشتغل في السياحة ولحسابي الخاص لا تبع شركة ولا تبع أي حد. تبع نفسي. وشغلي كله على العرب، وهما زي ما انت فاهم عندهم حساسية من اليهود.

وتصمت لحظة:

- أصل واحد ابن كلب طلع إشاعة في قهوة الفوكيت اللي شغلي فيها إني يهودية، فضلت أكدب فيها لما لساني وجعني وتلاقيني أول ما أروح هناك أكون مجهزاه معايا، وقبل ما أدخل القهوة أبينه على صدري.

أقول مبتسماً:

- طب ما كنتي تعلقي مصحف دهب أحسن؟!

- إنت بتقول فيها! جه في بالي بس لقيتها هتبقى زايدة حبتين ويمكن تنكشف، وإنت عارف إن سمعتي هي رأسمالي.

أتشاغل بالنظر إلى الطريق، وبقايا الابتسامة لا تزال على وجهي.

- مش مصدق إياك؟!

- وجدي عارف كده؟

- بتقول جدك! جدك ده معدش له لزوم في دنيتنا وأحسن له يدور على تربة ويدخل فيها من دلوقتي.

- جدي!

- أيوه يا خويا جدك! دا من مخلفات الماضي، يا ريتنا كنا سبناه في مصر وفضل عايش في الحي اللي اسمه إيه ده؟

أقول وأنا أرمقها مغتاظاً:

- قصدك حي الضاهر!

- أيوه أيوه حي الضاهر، وأنت بقى مشروعاتك إيه هنا؟

أجيب وعيناي تتأملان أنفها الذي لم ألحظ من قبل تقوسه إلى هذا الحد:

- مشروعات إيه! وبتاع إيه! أنا كلها شهر وراجع مصر.

- مصر!

أجيب بإصرار:

- أيوه مصر.

- أمال تانت ...

وتتوقف، ولما أسألها تراوغ وتقول كلاماً آخر، فيبدو عليَّ الضيق:

- متاخدش في بالك يا جلال، أصل تانت كاميليا كانت فاكراك قاعد شوية، فقالت لي: أدبر لك حاجه تتسلى فيها، قلت: نبتدي الأول بجمع العنب، لسه فاضل شوية على الموسم وأقدر أشوف لك شغل هناك.

- عنب! عنب إيه؟!

- بقول لك مؤقتاً.

وتتوقف بنا السيارة قرب ميدان الأوبرا..

* * *

سرنا على الأقدام حتى شارع (أوسمان)، ثم دلفت بي إلى محل كبير للملابس اسمه (لافايت)، وبعدها إلى محل آخر لا يقل عنه فخامة اسمه (البرانتون). اشترت عدة قمصان وبنطالين وحذاء كوتشي وسويتر للمطر له غطاء على الرأس،

obeikandl.com

حتى الملابس الداخلية اشترت منها دستة من كل نوع وكله على مقاسي، ولما بدت الدهشة على وجهي قالت:

- دول لأندريه، أندريه صاحبي، أصل مقاسك على مقاسه بالظبط.

وألقينا بأكثر من سبعة أكياس كبيرة على المقعد الخلفي، واتجهنا
صوب شارع الشانزليزيه.

ليس شارعًا كباقي الشوراع وإنما غادة حسناء تغويك بقدها الممشوق وعينيها التي تناديك، وإذا ضحك عليك وسحبك إلى داخله فقل على نفسك السلام. صفوف متوازية من أشجار المارون والبلانتين أو الكستناء، وبريق، ووسع، ومحلات لا تمل حتى ولو وقفت أمامها نصف نهار، ومطاعم، وبوتيكات، ومسرح الليدو بمدخله الذي تعلوه لوحة كبيرة عن عرض المساء، وصالة (إسباس كاردان) التي يؤمها الرسامون والنحاتون وأعلام الموسيقى والغناء، وقوس النصر ببنائه المتين الذي يلوح من بعيد، والمسلة المصرية التي تقف غريبة في آخره عند ساحة (الكونكور)، والمقاهي ذات المداخل والفتحات التي تعلوها تندات من الحديد مغطاة بقماش سميك لونه برتقالي أو أزرق داكن، بروادها الذين ينعمون بالموسيقى وفي يد كل منهم جريدة أو كتاب أو يثرثرون إلا إذا كانوا من العرب فالثرثرة عندها تكون بصوت عال وإشارات الأيدي في كل الاتجاهات.

والغريب أنك تفاجأ أحياناً بأن أصواتهم المرتفعة هذه تسكن مرة واحدة وتقترب رؤوسهم من بعضها البعض، ويبدو الحديث خافتاً والوجوه تشي بأنها حيال أمر جلل. أعتقد أنهم يلمحون في هذه اللحظة عميلا من عملاء استخبارات بلادهم يمضي في الطريق، أو ربما امرأة يخططون لاصطيادها.

مشيت إلى جوار راشيل حتى منتصف الشارع حيث مقهى (الفوكيت)، لم نكن قد وصلنا إلى منتصف النهار بعد، ومع ذلك كانت أغلب الطاولات مشغولةً. عرب من الخليج، شوام، سواح من بلاد العم سام ومن اليابان، واثنان من الأفارقة، رجل وامرأة، الرجل ببدلة سفاري غامقة وعلى رأسه غطاء داكن وسحنته نفسها مكفهرة وأشد قتامة من البن الأسود، أما المرأة فكانت شديدة المرح وتتألق بملابسها الوطنية المزركشة، وذراعاها العاريان تماماً يلمعان تحت شعاع الشمس الآتي من النافذة ويبدوان بلون الباذنجان الأسود الخارج لتوه من الحقل، ولم يكن موجوداً من الفرنسيين أهل البلد سوى رجلين وامرأة والثلاثة تخطوا السبعين.

أجلستني راشيل إلى طاولة في جوف المقهى وطلبت لي آيس كريم، ثم اتجهت إلى طاولة يجلس عليها رجلان من الخليج أحدهما قصير وسمين وياقة قميصه الواسعة تكشف عن لغد مترجرج وواضح أنه محنك وذو خبرة، أما الآخر فكان أنحف منه وأصغر سناً ويبدو أنه لايزال تحت التدريب.

سلما عليها بحفاوة فهمست لهما بشيء، التفتا إليَّ مرة واحدة لفتة خاطفة وبلا اكتراث. ربما قالت لهم إني السائق الذي يقود سيارتها، أو قريب فقير ومن بعيد. الجونلة التي كانت ترتديها قصيرة، تصل بالكاد إلى منتصف الفخذ، ومع ذلك وضعت ساقاً على ساق. كان منظرها مثيراً، والحركات التي تبدو منها وإنثنائة نصفها العلوي بين الحين والحين قادرة على قصم ظهر أي مقاومة، لكن والحق كان الرجل الكبير عاقلا وعيناه اللتان يغطيهما جفنان دسمان تحدقان بلا انفعال أو نوايا ظاهرة.

المشكلة كانت في الخليجي الصغير، فلم تكن هناك أية قوة أو نفحة من ضمير ولا أدوية أو مهدئات قادرة على كبح جماحه. كان المقعد يهتز أسفل منه، وقدماه تتقلقلان بلا انقطاع كالطفل

الـذي سـوف يفعلهـا علـى نفسـه إن لـم يـدخلوه علـى الفـور إلـى الحمـام. والغريـب أنـه أدخلنـي طرفـاً فـي الموضـوع، وكـان بـين لحظة وأخرى يرمقني بضجر، كأنه يقول لي إذهب من هنـا، مـا الذي تفعله معنا يا ابن الكلب؟!

وجـرى الـدم فـي رأسـي أنـا الآخـر ووددت أن أتجـه إليهـا، أزجرها بكلمتين وآخذها من وجه هذا الولد التلفان.

وعندما غادرنا المقهى قالت: سوف آخذك الآن لتـرى الحـي اللاتيني وكاتدرائية نـوتردام، تعللـت بالصـداع وبـأني أود العـودة إلى البيت لأنام.

* * *

obeikandl.com

(٣٩)

- تاني يا جلال، تاني!

ويعلو الصوت:

- هترجعنا لأيام مصر تاني، للزعيق والخبط على ضهر السرير علشان تصحى!

كان صوت أمي تشوبه مسحة غضب، وكأنه آتياً من مكان بعيد وأنا ونادية في دنيا أخرى.

كنا في غرفة نوم جدي القديمة! في حي الظاهر! على بعد خطوة من دولابه العتيق ذي المرآة العجوز التي تبدو فيه الأشياء على غير وضعها الحقيقي، ولفت نظري شباك كبير له ضلفتان من الألوميتال ومغلق بمزلاج صدئ! فلم يكن الشباك الذي بغرفة جدي كبيراً على هذا النحو وضلفتاه الخشبيتان مفتوحتين دائماً، كما لم تكن الغرفة التي أحلم بها لها باب، كانت مصمتة إلا من كوة في أعلى الجدار، تأتي منها نسمة هواء لاسعة مصحوبة بنداءات الباعة الذين في الشارع. ونادية بين يدي، ألملم شعرها فأرى ندبة عميقة على صفحة عنقها. لم تكن قد اندملت بعد وشكلها يؤلم، جال في خاطري لحظتها أنها ربما حدثت بفعل مخلب أو شيء حاد. هممت بسؤالها إلا أن لساني لم يطاوعني، كان ثقيلا، وكلما تكلمت بدا الصوت كما لو كان خارجاً من فم رجل أبكم فسكت. وعندما أحسست بأنه لا حركة

obeikandl.com

تأتي منها حسبت أنها غفت على صدري، وجلت أنا بعينيَّ في المرآة التي أمامي. الشعر الأسود المنسدل على كتفيها اختلطت به عدة شعيرات بيضاء وتقصف عند الأطراف، وفي الأسفل سمانتا قدميها مترهلتان وعليهما تشققات بلون الجلد، وقدماها اللتان كالقالب المنحوت أصبحتا مثيرتان للشفقة. ضممتها إلى صدري فلم أشعر بأية حرارة في بدنها. هززتها. لا نبض ولا حركة. ولونها هو الآخر كان شاحباً ويداها اللتان تلتفان حول عنقي واهنتان لا وزن لهما.

تنفرج عيناي.

الدنيا التي أمامي كأنما تعلوها مسحة ضباب، وأمي واقفة بالقرب من السرير تتأملني وشفتاها انطبقتا للتو. يبدو أنها كانت تنادي عليَّ، وتوقفت لما فتحت عينيَّ. أتابعها بعينين نصف مغلقتين وهي تتجه صوب النافذة المفتوحة، وبحركة تلقائية أشد الغطاء على صدري إتقاءً لصاروخ الهواء الآتي منها. تنشغل بإغلاق ضلفتي النافذة، ويأتيني أنا ما سبق من الحلم.

الأستاذ فوزي مدرس الألعاب في مدرستنا ..

الوسيم صاحب الشعر الناعم والعينين العسليتين، الأستاذ الذي لم ارتح له يوماً وطالما بادلني نفوراً بنفور. كنا على وشك العراك بالأيدي بسبب نادية. يقول: إنها خليلته وأنجب منها ولداً وجهه كطلعة القمر، وأنا أصيح فيه. يسخر من صياحي فتبدو أسنانه الأمامية مطلية بالذهب وحجمها أكبر من المعتاد، أندهش لأني لم أره من قبل على هذه الهيئة. وأسنانه، أسنانه عرفتها سليمة لا كسر فيها أو خدش. تموت رغبتي في العراك وينتابني الخوف. يقترب مني بخطوات عدائية وأفقد أنا السيطرة على أعضائي. تتيبس مني. أعجز عن تحريك قدمي طلباً للفرار، وحلقي تخرج منه شهقات كتلك التي تحدث للغرقى في الماء.

أنظر إلى أمي، فتقول:

- يللا قوم، يللا يللا، دي راشيل جت من بدري ومستنياك في الصالة.
أنتبه إليها ..
تمسك بيدها كيساً من الأكياس التي اشترتها راشيل عندما كنا معاً بالأمس ..
تخرج قميصاً وبنطالا، تطلب مني ارتداءهما. باقي الأكياس على مقعد مجاور. ألتفت نحوها. تقول وبريق رضا يلمع في عينيها: إنها كلها لي وأن راشيل لم تشأ إخباري بذلك ساعتها، أحبت أن تكون مفاجأة لي. وتلوح ابتسامة على وجهها، وهي تضيف: إنه ليس في الدنيا مثل راشيل، حلوة وابنة حلال وبارة بأهلها.
تتأملني متوقعة أن أجاريها في الكلام ..
أشيح بوجهي ..
وخز يمتد من أول الرسغ حتى الكوع، إبر لا حصر لها تعمل بدأب في مجرى العصب، يعقبها ثقل في اليد وتنميل.
وعندما يزداد صمتي، تردف أمي:
- وكمان يا جلال يا ابني القرش بيجري في إيديها، معارف وشغل هنا وهناك، إيه الشطارة دي!
وبنظرة من عينيها أفهم أنها قالت ما عندها، والباقي عليَّ.
أشعر بالغثيان ..
شيء لزج قبيح عالق بأمعائي. عصارة حمضية تصل إلى حلقي. طعمها حارق. كريه. أدفع بالكيس بعيداً وأقول لأمي: إني مريض، وأضع الغطاء على وجهي قبل أن أسمع ردها.
يأتون كلهم. جدي وجدتي وراشيل. يلتفون حولي وأنا أزداد إصراراً على أني مريض. أرى الجزع على وجه جدي وأمي يساورها القلق، لكن شيئاً آخر لم أتبينه لحظتها لاح على وجهها.

تربت راشيل على كتفي مشجعة، تقول لتستحثني على النهوض:

- يللا يا جلجل بلاش كسل، دا أنا النهارده محضرالك حتة برنامج ومش
هنرجع إلا آخر الليل.

تقترب أهدابي من بعضها، وتبدو عيناي شبه مغمضتين.

- في الأول هنركب (الباتوموش)(٥) وأفرجك على نهر السين، وبعدها نتغدى في مطعم يوناني تحفة في الحي اللاتيني، محشي ورق عنب وكباب وكل اللي قلبك يحبه.

أفتح عينيَّ.

- ومعايا تذكرتين في (المولان روج)(٦)، دا فيها عرض يجنن، وبالمرة أوريك حي (بيجال).

تذهب عيناي إلى الأستاذ في فوزي..

لم يكن هذا النذل ضمن اهتماماتي في أي يوم، أو حدث أن كلمته سوى مرة أو مرتين أيام المدرسة، ولا يعرف نادية أو سمع بها.

ويجيئني هكذا! في الحلم! ومع نادية!!

- قوم بقى قوم، دا إنت لو منزلتش معايا النهارده هيفوتك نص عمرك.

لا أجيب ..

تشعر بثقل دمي وينتاب الملل جدتي فيتركاني، ووراءهما أمي تبحث لي عن حبة أسبرين، جدي هو الذي بقي جالساً على حافة السرير.

وددت أن أبوح له بالحقيقة ..

أقول له: أني مكتئب من الدنيا كلها.

---

(٥) مراكب سياحية يستقلها السياح وأهل باريس، ويجوبون بها نهر السين جيئة وذهاباً.

(٦) ملهى ليلي كبير بحي بيجال.

obeikandl.com

غير أنـي لم أفعل.

* * *

(٤٠)

أربعة أسابيع وأنا أصلي الجمعة بمسجد باريس الكبير.

أقوم إلى الحمام وأتحمم كما يفعل المسلمون صباح هذا اليوم، وأصلي الصبح والسنة وأختم الصلاة على أصابعي وأنا جالس على سجادة الصلاة، ثم أضع المسبحة في جيب القميص تاركاً شرابتها الخضراء مدلاة من فتحة الجيب، وأضع الطاقية البيضاء على رأسي وأنزل إلى الشارع. يكون عم الشيخ منجي العياري وهو رجل تونسي مستوطن في فرنسا ويمتلك محلا للجزارة بعقار مجاور، قد أغلق المحل ويقف في انتظاري، نتجه معاً صوب محطة المترو.

عندما كنت في مصر لم تكن تشغلني هذه الطقوس، وساعات كثيرة كنت أسمع أذان الجمعة وأنا في الشارع فأتجه إلى أي صنبور أو آخذ جردل ماء من الست شوق زوجة البواب وأتوضأ، وإلى الجامع بلا مسبحة أو طاقية على الرأس.

لا أعرف ما الذي جعلني أتمسك بهذه الطقوس هنا في باريس؟! الحمد لله أنهم اعتادوا عليها، واكتفت جدتي بمصمصة شفتيها إذا رأتني أو الاحتجاب في غرفتها فترة الصباح حتى (أنكشح) من البيت.

المشكلة كانت في أول مرة.

يبدو أن جدتي كانت محصورة في البول يومها، فقد اندفعت من باب
غرفتها وطيران نحو الحمام وفي قدمها فردة شبشب واحدة، لمحتني بالطبع وأنا
جالس على مقعد في الصالة أتلو القرآن من مصحف صغير في حجري.

كان صوتي ساعتها متسارعاً وبنغمة خافتة تحاكي أزيز النحل، ورأسي تهتز هزات متواترة إلى أسفل وعيناي شبه مغمضتين. وعندما سمعت تكة ترباس الحمام ورأيتها خارجة منه توقفت عن التلاوة، إلا أني ظللت منحنياً على الكتاب الكريم وعيناي تختلس النظر إليها.

كان شعرها منكوشاً وقطرات ماء تسيل خلف أذنها وأكيد عرفت ما الذي أفعله، مشت خطوتين على أطراف أصابعها ثم توقفت والتحفز يأكلها أكلا، وبدأ قلبي هو الآخر في الدق. لم تتحمل أم منقار! لم تتحمل الملعونة ويبدو أن غدد الشر والقتال التي تسبح في دمها واتتها فرصة لا تعوض، فانتفضت للعمل وبأقصى طاقتها..

باغتتني...

باغتتني بنت (الإيه)!! وفي غمضة عين كانت مطفأة سجائر تطير فوق رأسي وتصطدم بالحائط، وعندما تزحزحت مذعوراً عاجلتني بشريط كاسيت كان ملقياً على مقعد مجاور، أصابتني به إصابة مباشرة بطرف أنفي ثم استقر تحت أقدامي.

فعلت كل ذلك هذه الحيزبون ثم وقفت واضعة يديها في خاصرتها تتحداني، وأنا أحملق فيها غير مصدق. نعم فعلتها! ولو كانت صحتها تساعدها لكانت قفزت عليَّ كما الهرة وأطبقت على عنقي مثلما كانت تفعل أيام زمان.

قمت ثائراً بالطبع وكف يدي اليمنى تقبض على أنفي التي تنزف، ودارت بيننا معركة كلامية أتى جدي على أثرها مسرعاً وهو نصف نائم ويتثاءب ووراءه أمي.

وجدتي تصيح بأعلى صوتها: " خلي بالك. آه .. إحنا مش في جامع السيدة
ولا الحسين "، وأنا أرد عليها بكلام ثقيل فتزداد هياجاً وأمي تكتم الدم
بمنديلها وتزيحها بعيداً عني، وجدي الحائر بيننا يقول كلمة هنا وكلمة هناك.

لم يحسم الأمر إلا لما قالت:

- لما تكون عايز تقرأ قرآن إبقى روح أقرا عند الشيخ منجي اللي ساكن في الدور التحتاني، آهو راجل ناقص ووسخ زيك.

فعندها ثارت ثائرة جدي.

كانت الأمور سوف تمضي حتى لو قالت لي جدتي لفظاً أقذع من ذلك، فأنا في النهاية حفيدها ـ كما قال ـ وكل ما يبدر عنها من وراء قلبها.

المشكلة في الشيخ منجي ..

فقد كان للرجل تاريخ طويل مع جدتي، وعندما نطقت باسمه خاف جدي أن يتجدد الماضي فأوقفها عند حدها منهياً الموضوع لصالحي، وكانت المرة الأولى في حياتها التي تربت فيها على كتفي معتذرة.

فالشيخ منجي من سكان العمارة الأوائل، وعندما جاء جدي للسكن فيها كان كل واحد منهما يبادل الآخر مشاعر حيادية، فلم يكن بينهما ود ولا خصام، لكن مع جدتي كان هناك كلام آخر.

تبادل الاثنان المشاعر العدائية من اللحظة الأولى، ولم يستسغ أي منهما الآخر.

obeikandi.com

الرجل ما شاء الله.. جسد من فولاذ ولحية جبارة، ويدخل ويخرج من الباب وفي خاصرته نطاق ملىء بالسكاكين، ومبدأه في الحياة: عدوك هو عدو دينك ولا مهادنة أبداً مع الظالمين. ولذا لم تقترب منه، قصرت نشاطها على زوجته الست (زهيرة بوصاف) ضئيلة الجسم السهتانة البهتانة أم رجل مثل أرجل المعيز كما تقول الجدة.

استفزازات وشتائم خفيفة، وفي مرة كانت جدتي تصعد على السلم
فألقوا عليها ثمرة قلقاس، وكانت هذه نقطة تحول في الخلاف بين العائلتين واستخدام الأيدي في حسمه.

اقتحمت جدتي الشقة وعاثت فيها فساداً، ضربت زوجته وطفلين أحدهما لا يزال يحبو ناهيك عن التلفيات التي قدرت وقتها بمئتي فرنك، ولم ينته الأمر إلا في مخفر الشرطة!

ثلاث سنوات من المعارك وقفت فيهما جدتي مرتين أمام المحاكم متهمة بالضرب والاتلاف، حكم عليها في الأولى بالغرامة، وفي الثانية بالحبس شهراً مع وقف التنفيذ فضلا عن تعويض التلفيات، والشيخ منجي هو الآخر صدر عليه حكم بالغرامة لأنه كسر نظارة جدي.

انقضت المشاكل الآن، وكل واحد من الفريقين أصبح في حاله لا يحتك بالآخر أو حتى يتكلم معه. غير أن جدي بنفسه السمحة لم يجد أية غضاضة في العلاقة التي نشأت بيني وبين الشيخ منجي، وربما قال في نفسه ما المانع من هذه العلاقة؟ ألا يجوز أن تكسر حالة اللاسلم واللا حرب الدائرة بين العائلتين؟

* * *

openkand.com

(٤١)

نقصد أنا والشيخ منجي العياري محطة مترو (بارباس) ..

يشتري لي جريدة باللغة العربية من الكشك الملاصق للمحطة أو قالب شيكولاتة، فتأخذني الحمية وأمد يدي لأدفع أو أشتري له شيئاً بالمقابل. يمسك بيدي غاضباً. كان ينظر إليَّ على أني أخ أصغر له أو ربما ابن، وكنت أشعر بالراحة وأمشي إلى جواره وديعاً ممتناً.

يتقدمني داخلا من باب المحطة، ونظل نهبط على السلالم الكهربائية حتى نصل إلى الرصيف الخاص بالمترو المتجه إلى محطة (جوسي).

يكون الجو هادئاً في ذلك الوقت، وربما نجد بعض السياح الذين فرغوا لتوهم من زيارة كنيسة (الساكركير) والتجول على تلة (مونمارتر) القريبة من المحطة، وفي طريقهم الآن إلى

obeikandi.com

فنادقهم. وعلى طول الرصيف يقف فرنسيون وفرنسيات بالطبع، لكنهم غالباً ما يكونوا قليلين وكباراً في السن وفي أيديهم أكياس أو كتب صغيرة يقرأون فيها، وكما هي العادة هنا لا صوت يصدر عنهم وكل واحد في حاله.

الجلبة تحدث عندما يستيقظ الكلوشار من نومهم ..

الكلوشار هؤلاء جماعة من الناس تستحق الرثاء، منهم الرجال والنساء،
والعجائز والشباب. هزمتهم الدنيا التي على سطح الأرض، فنبذوها ونزلوا إلى
الجحور. أقاموا مستعمرات لهم تحت الأرض، على الأرصفة وفي زوايا وأركان محطات شاتليه وسان دوني وبيجال وبارباس وسان لازار وغيرها من المحطات. منهم العاطل، والمصاب بعقدة نفسية، أو سياسي من الدرجة الرابعة مهزوم للمرة العاشرة في الانتخابات المحلية واتخذ الحزب قراراً نهائياً بطرده، ومن اكتشف أنه أهدر عمره سدى فنزل إلى باطن الأرض حيث الدنيا الحقيقية، وقد تجد فيهم محاربين قدماء، وأصحاب مبادئ نبيلة، وفنانين كانوا ملء السمع والبصر.

يتمددون أغلب الوقت (بالهلاهيل) التي على أبدانهم وبروائحهم الكريهة وإلى جوارهم زجاجات الخمر الرديئة، ولا مانع من أن يقوم أحدهم من عز النوم ليأخذ رشفتين من زجاجته أو يلقي بشتمتين في وجه الناس ويعود للنوم في نفس اللحظة ويبدأ في الشخير. كنت أقف مشدوهاً ساعتها ولو كانت معي ساعة (استوب ووتش) لحسبتها بالثواني، هي دقيقة، وربما أقل، التي يستيقظ فيها الكلوشار ويفعل فعلته ثم ينام ثانية بل ويشخر أيضاً. نعم يشخر! وياليته شخير خافت مؤدب وإنما شخير من النوع الذي يوتر أعصابك ويلفت نظرك ولو كنت على مسافة،

وأقول في نفسي من يدلني على أستاذ في علم النوم كي يفسر لي هذا اللغز.

نومهم - والله - رحمة، لأنهم إن استيقظوا يبدأون في الشحاذة، فرنك، ساندوتش، كيس شيبسي، علبة عصير، سيجارة، أي شيء يرونه في يدك، ويبدأون بعدها في تبادل الشتائم مع بعضهم البعض بأقذع الألفاظ وبأصوات عالية. وترى وجوههم محمرة وعروقهم منتفخة ويشيحون بأياديهم في وجه بعضهم البعض، فتحسب أن مشاجرة سوف تقع ولا محالة، وتبتعد عنهم خوفاً من أن يصيبك أذى، لكنهم يخيبون ظنك بسكاتهم فجأة وبلا سبب منطقي وقد يكتفون بالبصق في وجوه بعضهم أو تبادل الإشارات البذيئة ولا
حياء ولا خجل.

والأسباب غالباً ما تكون صراع على مناطق النفوذ، حيث أن لكل كلوشار
منهم قطعة من الرصيف متر في مترين يعتبرها مملكته ينام فيها أو يستقبل ضيوفه أو يضع حاجياته، ومحظور على أي كلوشار آخر الاقتراب منها إلا بإذنه ورضاه، أو قد يكون النزاع على إحدى الكلوشارات والتي عادة ما تكون قد تجاوزت السبعين، أو على كسرة خبز خطفها أحدهم من يد الثاني أو غافله وهو نائم وشرب من زجاجة الخمر التي تخصه. ولو تريثت قليلا على الرصيف لوجدت كلوشاراً عاقلا ومحترماً يخرج من أحد الأركان متقدماً بمبادرة صلح بين الطرفين المتشاجرين، ولا تكل قدماه من المشاوير المكوكية التي يقوم بها من هذا إلى ذاك أو العكس حتى تصفو النفوس ويلتئم الشمل ثانية ويعودون للقهقهة وقلة الأدب.

الجلبة الحقيقية هي التي تحدث عندما يأتي رجال البلدية ليجمعوهم بالقوة ويصعدون بهم إلى سطح الأرض، لإجبارهم على أخذ حمام ساخن في حمامات البلدية.

يكون هذا اليوم يوماً أسوداً على رؤوس الركاب، لأن الكلوشار لا يذعنون أو يستسلمون بسهولة. يفعلون مثلما يفعل الأطفال الصغار في البيوت، عندما تصمم أمهاتهم على ادخالهم الحمام. كانوا يفرون من أمام رجال البلدية ، يجرون هنا وهناك وتنقلب المحطة إلى سيرك أو فصل من مسرحية هزلية.

ونسمع قائد فيلق البلدية، وهو يصيح في أحد رجاله:

- أمسك يا جاك بهذا العجوز المختبئ بين الركاب.

يسرع جاك للإمساك به، فيصرخ فيه القائد:

- لا يا أيها الغبي! ليس هذا! هذا سائح من اليابان، أتود إدخاله الحمام هو الآخر! أمسك بهذا العجوز الأصلع الذي يمسك بقنينة خمر في يده.

ويستشيط القائد غضباً.

- ليس في هذه الناحية أيها الأعمى! هنا هنا، المختبئ وراء المرأة السمينة.

تلتفت المرأة السمينة إلى الخلف منزعجة، ونرى رجلا آخر من رجال البلدية قادماً يلهث من بعيد وهو يمسك برجلين من الكلوشار من أقفيتهم كما الأرانب، وكلوشار يقفز من رصيف إلى رصيف وفي ذيله رجلان والقائد يصيح فيهما مشجعاً:

- أحسنتما أحسنتما، عليكما بإبن اللئيمة هذا ولا تتركاه أبداً.

ويلتفت إلى رجل آخر من رجاله.

- وأنت يا مكسيم هل سوف تبقى واقفاً هكذا بلا عمل؟ عليك بهذا الكلب العجوز الذي يجري بلا سروال. أسرع أسرع، فقد أندس قليل الحياء بين الناس.

obeikandl.com

فيدب الذعر ويتلفت كل واحد حوله محتاطًا من هذا الكلوشار قليل الأدب الذي يجري بينهم عاريًا بلا إكتراث وحتى عورته لم يكلف نفسه بسترها، النساء خاصة كانت تصدر عنهن صيحات استنكار ويلعن (جاك شيراك) نفسه عمدة باريس آنذاك لعجزه عن وضع حل لإجرام ورذالات هؤلاء الملاعين

* * *

كنا أنا والشيخ منجي نتحاشى هؤلاء الكلوشار حتى لا ينقضوا وضوءنا كما يقول، ولم يكن الرصيف في أيام الجمعة يخلو من المسلمين المتجهين للصلاة. كنت أعرفهم من ملابسهم، البدلة السفاري الضيقة عند الإبط، وطاقية الرأس أو المسبحة في اليد، والحذاء الذي تجاوز عمره الافتراضي بسنة على الأقل. كانوا فقراء، بسطاء، والطيبة تعلو وجوههم. يعرفوننا هم الآخرون، ويسلمون علينا بإيمائة أو إشارة يد، أما زبائن الشيخ فقد كانوا يقبلون علينا ويشدون على أيدينا بحرارة. وإذا عاتبه أحدهم على قطعة اللحم التي أشتراها منه آخر مرة لرداءتها وللشغت والدهن الكثير اللذان يملآنها، كان الشيخ يروعه بنظرة من عينه، وإذا أطال في الكلام يقول له الشيخ بحسم: إننا في طريقنا للصلاة والعبادة، ولسنا في مقام لهو أو تجارة.

ويأتي المترو ..

المقاعد شبه خالية، نجلس أنا وهو متقابلين بجوار النافذة.

الشيخ منجي يعرف حكايتي كاملة، ولا يمل أبداً من نصحي بلهجته التونسية:

- اسمع يا وليدي باريس هاذي كيلغول (زي الغول) اللي يعيش فيها

تبلعه! ليش تقعد فيها؟!

أصمت.

obeikandl.com

يمرر أصابعه على لحيته قائلا بنغمة تختلط فيها السخرية بالشفقة:

- ليش تقعد فيها؟ إيش تعمل؟ تخدم عند ززار (جزار) ولا تخدم في حانوت ولا تكنس في الطريق؟! هذا اللي تنجمه! (تريده).

أحملق في وجهه.

- كأنك محتار، استخير ربك، تعرف تستخير ربك ولا متعرفشي؟

يبدو على وجهي أني لا أعرف الاستخارة أو حتى سمعت بها من قبل، فيقول:

- متعرفشي!

أهز رأسي مؤكداً، فيبدأ الشيخ في تعليمي الاستخارة.

أن أتوضأ أولا ثم ...

يتأفف من صوتنا المرتفع رجل فرنسي، كان قد صعد من المحطة السابقة وجلس إلى جانبي. يلحظه الشيخ منجي إلا أنه لا يأبه به، ويستمر في الكلام معي بصوت أعلى وأعلى وبسعلات جبارة مفتعلة تضرب في سقف المترو، وعيناه ولحيته تجوسان في وجه الرجل وكأنه يقول له، ألم تسمع عن الشيخ منجي من قبل؟ هل تود المبارزة حتى تعرف قدري من قدرك؟! يفهم الرجل أنه لا حيلة له مع هذا الشيخ الملتحي، وينسحب من المكان وهو يبرطم بألفاظ فرنسية غاضبة. أعتقد أنها كانت ألفاظاً بذيئة وشتائم في الشيخ، لأن الدم غلى في عروقه وبدا مغتاظاً لكنه تماسك وقال، وهو يشيح بيده:

- سيب عليك منه (سيبك منه) تافه هاذاك، وربي كان مجتش رايح نصلي وخايف نتعطل كنت ندقدقه (نكسر عضمه).

لم يكن الرجل الفرنسي قد ابتعد كثيراً.

يشعر بأن الكلام عليه والشيخ يشتمه باللغة العربية فيقف ويلتفت نحونا مشيحاً بيده، ويقوم الشيخ هو الآخر نصف قومه وهو يقول غاضباً:

- وربي لو ما تركنا في حالنا لنعطيه طريحة (علقة) الآن وندقدقه.

أمسك بيد الشيخ وأهدئ من ثائرته، وهو يصيح بالفرنسية في وجه الرجل:

- مارش لوان، مارش لوان (امشي بعيد، امشي بعيد).

يدرك الفرنسي أن الشيخ غير هازل وأنه عقد العزم بالفعل على الشجار، فيتجه مسرعاً نحو الباب كي ينزل في أول محطة ويترك لنا المترو كله.

وبعد برهة يهدأ الشيخ، ويقول بنغمة قاطعة:

- إرجع لبلادك يا وليدي، ولي (إصبح) طبيب ولا مهندس وأكبر في بلادك، مهما كبرت في باريس ومهما عملت متوصلش حتى حاجة.

أقول:

- طيب وأنت عايش هنا أزاي يا سيدنا الشيخ؟!

- نقولك حاجة يا ولدي، إحنا هنا عايشين وكأننا في تونس، مكلتنا وشرابنا تونسي مياه في الميه، منعرفوش عن بلاد الفرنسيس هاذي غير البسبور.

أزداد إنصاتاً ، فيكمل:

- وكمان إنت حالتك مش كيف حالتي، أنا عايش في وسط توانسة، وأنت
إشكون عندك هنا؟! (وإنت عندك مين هنا؟!).

أقول مندهشاً:

- عندي أمي يا شيخنا!

- أمك يا وليدي اختارت تقعد هنا لأن معندهاش مشكل، أمك عايشه في وسط أهلها، أمها وبوها واخواتها ناس كيف كيف يهود، وإنت معندكش مجتمع كيف مجتمعها.

أصمت.

- وبعد أمك إشكون عندك من ناس؟ تبقى مع الجداه بتاعتك! حد يطيق يعيش معاها العزوزة الشمطة دي (العجوزة)، دي كلبة بنت كلب.

ينتابني الضيق، ورغم ما بيني وبين جدتي من حب ضائع أكتشف فجأة أني لا أقبل أن تهان، إلا أن الشيخ لا ينتبه ويستمر قائلا:

- وبراس أمك فهمني حاجة؟ كيفاش وليِّد كيفك ناس ملاح ويلد أصل يعيش مع جداه مثل هاذي؟! وربي لو كان مجيتش في الدنيا هاذي مسلم ونخاف ربي راني كنت أعطيتها طريحة نباش لقبور (علقة ساخنة) وارتحت من خلقتها المشؤومة.

أزداد كدراً وهو ما يزال يتكلم:

- أما جدك فمسكين وبحبوح، لكنه يا ولدي تافه وشخصيته ضعيفة وكمان كراكوز (أراجوز).

نفترق عدة لحظات، كل منا يدخل تذكرته في الماكينة الحديدية التي بحذاء الرصيف كي تدور عجلاتها وتسمح له بالعبور، وأجده يلحق بي وهو يتكلم بفمه ويده ووجهه مؤكداً وجهة نظره في جدتي:

- عمرك شفت امرأة تهاجم البيوت الآمنة وتعيث فيها فساداً، لا يسلم منها لا كبير ولا صغير ولا اللي يدبي (يحبو) على الحصير، حتى وليدي الصغير المسيكن (تصغير كلمة مسكين) مسلمش منها، ركلته بقدمها. وخالتك زهيرة مرتي كومبلكيه منها (عندها عقدة منها)، تصدق حتى لتو الجداه بتاعتك بتجيها في الكوابيس، مرة شادة موس (ماسكة سكينة)، ومرة جاية

متحزمـة بسـلاح تقـولش عليهـا ماشـيه الحـرب، الله لا يربحهـا الإبليسة هاذي!

نخرج من المحطة ونمشي خطوات قليلة، فيلوح أمامنا مسجد بـاريس الكبيـر بزخرفتـه الإسـلامية ومئذنتـه الشـامخة. يتوقـف الشيخ منجي عن الكلام، وأرى عينيـه منشـغلتين بـالواقفين حـول المسجد. تنفرج أساريره مرة واحدة ويلتفت إلـيَّ مبتسـماً، يكـون قد لمح صديقاً أو أحداً من معارفه، يشب بوجهه وتخرج من فمه صيحة فرح.

يكمل بعدها ملوحاً بيده:

- يا زين العابدين إيجه إيجه (تعالى تعالى).

يرفع زين العابدين ذراعه قائلا، وهو يتجه نحونا:

- آه منجي جيتك، باهي باهي جيتك.

يلتفت الشيخ ويقول:

- باهي جلال بالسلامة تو ونتقابلوا العصر في الحـانوت، ولا اسـمع ايجـا أتعشـى معانـا، خالتـك زهيـرة عاملـة عشـاء قمقـوم (لذيذ)، كسكسي بالعلوش وسلاطة مشوية وكعبات بريك بالتون. ويتركني.

تجمعات المسلمين تلتف بأركان المسجد وعند البـاب، أفارقـه مـن السـنغال وتشـاد وجيبـوتي بملابسـهم الزاهيـة الفضفاضـة، ومغاربة وتوانسة وأبناء الجزائر.

الشـباب مـنهم بملابـس علـى الطـراز الفرنسـي، والكهـول والشـيوخ بـالبرانيس البيضـاء والبـيج والبنـي المحـروق وفـي أقدامهم البلـغ. أصـواتهم عاليـة، كنـت أسـمعها قبـل أن أصـل إلـى المسجد، تنطلق من أفواههم حادة وسـريعة كشـرارات الكهربـاء، وبلكنة أبناء شمال أفريقيا المطعمة بالكلمات الفرنسية.

ويـقف باعة البخور والمسـابح والعطور الشرقية إما علـى طاولات صغيرة أو

يفترشون الرصيف ، ولا يخلو المكان من رجل أو اثنين يبيعان شرائط كاسيت لمقرئي القرآن الكبار عبد الباسط والحصري والشيخ مصطفى إسماعيل، وأحاديث وخطب الجمعة للشيخ كشك والشيخ البدري، وكتب الدين التي تخيف الناس من أهوال يوم القيامة والملائكة التي تحمل عصي غليظة وأسياخ من الحديد تضرب بها تارك الصلاة أو المرأة التي لا تسمع كلام زوجها، ولا مانع من أن تجد في هذا الزحام كتاباً عن أصول المعاشرة الزوجية أو في فن الغزل.

كانت البلدية تتساهل معهم في هذا اليوم، وعلى مقربة تقف سيارة شرطة لمتابعة الأمن والنظام وحولها عساكر طوال على رؤوسهم القبعات المستطيلة.

* * *

بعدما أفرغ من الصلاة كنت أستقل المترو، ومحطة في محطة حتى أصل إلى الحي اللاتيني.

تصادفني مكتبة (جلبير) وربما توجد مكتبة أخرى في الأزقة الداخلية، المكتبتان متخصصتان في بيع الكتب المستعملة، وروادهما من كل الأشكال، المثقف، التافه، الصغير، الكبير، المتسكع. والجاد. والأرفف مليئة بكل ما تشتهي الأنفس، كتب في الجغرافيا وفي التاريخ والفلسفة والقانون والفيزياء وإلى جوارها كتب الجنس والتفاهات والصور الفاضحة، وإذا قلبت جيداً سوف تعثر على كتابا لسيمون دي بوفوار أو جان بول سارتر أو كوكتو أو مختارات من شعر بلزاك أو لمستشرق كبير مثل دوركايم أو مرجليوث، والسعر واحد بالنسبة للجميع عشرون فرنكاً في الغالب.

وعلى طاولة عتيقة ومزوية على جنب كنت أجد كتباً كبيرة ومجلدة، أتصفحها فأجدها قديمة والأوراق صفراء وبها ثقوب وخدوش وبين الثنيات وفي الكعوب حشرات ميتة من زمن

بعيد، والعناوين حسبما قرأت وترجمت لنفسي رأس المال لكارل ماركس ونظرية فائض القيمة لآدم سميث والبؤساء لفيكتور هيجو وقصة مدينتين لتشارلز ديكنز أو الأم لميكائيل شولوكوف أو الغريب لألبير كامي، والسعر مخفض إلى عشرة فرنكات ولا أحد يشتري، الكل منكب على الحداثة والكتب المليئة بالصور وما لا معنى له.

تأخذني قدماي بعدها إلى الأزقة والشوارع القديمة ..

خطوتين وأفاجأ بمهرج صبغ وجهه بالألوان وأنفه أحمر كالدم يأتي في مواجهتي، يداعبني أنا والناس التي تسير إلى جواري فأشيح بوجهي عنه. وساحر يعرض ألاعيبه وخفة يده ويدعوك لمشاركته في العرض الذي يقدمه، أقف دقائق أمامه وأشعر بالملل فأنصرف. وحلوى غريبة لها مذاق خاص تباع في محلات يديرها توانسة ومغاربة، ومأكولات يونانية وتركية وتذكارات لبرج إيفل وقوس النصر.

وحلقة عن بعد أقترب منها فأجد رجلا نصفه العلوي عارياً وفي يده عصا طرفها يشتعل ناراً، يقربها من فمه مخرجاً منه سائلا رشاشاً يشتعل عند تلامسه بالعصا، ولا تعرف بعدها ما إذا كانت النار آتية من فمه أم من هذه العصا. أبتسم متذكراً يوم أن أخذنا جدي زكي إلى جبل الدراسة، ورأينا هذا العرض في سيرك أولاد عاكف. وأمشي غريباً تائهاً فيوقظني من شرودي فنان عجوز، يمسك بآله كمان يعزف عليها ألحاناً من الفولكلور الفرنسي، ألحان كلها شجن يقولون إنهم كانوا يعزفونها في القرون الوسطى عند وداع أبنائهم الراحلين لنهب كنوز الشرق باسم الصليب.

أظل وراء الرجل من شارع إلى شارع وأتوقف بالقرب منه كلما توقف، وتهفو نفسي إلى جدي الذي مات .. وجدتي لأبي .. ونادية التي أكلتها الدنيا .. وأشعر بمرارة في حلقي وشيء

يطبق على صدري، فأترك المكان وأخرج إلى الشوارع الواسعة سان ميشيل وسان جيرمان.

كنا في شهر أكتوبر والغمام كثيفاً، والأشجار الكبيرة التي على جانبي
هذين الشارعين عارية وأوراقها الصفراء ملقاة على الأرض فأزداد كآبة، وصوت أم كلثوم ينساب في أذني رقيقاً أملساً باكياً، وهي تغني وتقول: " على بلد المحبوب وديني .. زاد وجدي والبعد كاويني .. يا مسافر على بحر النيل أنا ليه في مصر خليل .. من حبه مبنام الليل .. على بلد المحبوب وديني..".

* * *

obeikandl.com

obeikandl.com

(٤٢)

ساقتني قدماي إلى كاتدرائية نوتردام ..

كنت قد زرتها مرتين من قبل، ولم ألحظ سوى هذه المرة الأكشاك الخشبية التي يعدونها للاعتراف، فوقفت بالقرب منها.

رجال الدين بالداخل، والنساء والرجال الذين يرغبون في الاعتراف يقبعون مهمومين صامتين على مقاعد خشبية، لا يلتفت أحدُ منهم إلى الآخر، وإذا التقت نظراتهم صدفة كانوا يومئون برؤوسهم ويعود كل منهم إلى حاله. وترى الواحد منهم يخطو بأقدام ثقيلة نحو رجل الدين المكلف بتلقي اعترافه، غير أن كل طرف منهما يظل محجوباً عن الآخر بساتر خشبي به كوة صغيرة تسمح بتبادل الحديث.

أراهم خارجين بعدها أكثر راحة، وكأنهم ألقوا بعبء ثقيل. والغريب أن البعض، ومنهم شباب، كانوا يبكون بالداخل ويخرجون ولايزال الألم مرتسماً على وجوههم. كنت أشعر بالرثاء لهم، وأسأل نفسي عن الرجل الطيب الذي بالداخل، يظل ينصت إلى ما يعذب الناس ويؤلمهم، لكن ما الذي يفعله بكل هذا الكلام؟!

وتمكنت هذه المرة أيضاً، من رؤية المكان الذي توجد به أجراس الكاتدرائية.

obeikandi.com

لم أكن أحسب أنها مهولة بهذا الحجم، وطافت ببالي رواية (أحدب نوتردام) التي اشتريت نسختها المترجمة من على سور الأزبكية. كنت أيامها في المدرسة الإعدادية، وصنعت في مخيلتي صورة (لكوزيمودو) الأحدب العاشق بطل الرواية، محنياً بفعل الحدب لكنه قوي ومتين، خصلات شعره الأشقر المتسخ تطل من غطاء رأس كالح وقديم، قدماه تطرقان الأرض بوقع شديد، وحذائه مليء بالفتحات والثقوب.

لاح المسكين في ذاكرتي وهو يدق الأجراس ويتعلق بها منتشياً، بعدما عطفت عليه محبوبته (أزميرالدا) بنظرة حانية.

وخرجت أمشي على مربعات البازلت التي أمام الكاتدرائية، أرثي الأحدب الذي نصبوا له عموداً وربطوه فيه بالسلاسل بعدما عرفوا أن له قلب يحب كما تحب قلوب الناس.

***

كان الغمام قد وصل إلى منتهاه في هذا اليوم وزخات مطر خفيفة محملة بقطع ثلج في حجم الفراشات وأنا بلا مظلة، لكني لم أعبأ أو أفكر في العودة إلى البيت، تركت نفسي للمترو فحملني إلى محطة الأوبرا.

وعندما صعدت إلى سطح الأرض، كانت زخات المطر أكثر شدة وحبات الثلج صارت في حجم ندف القطن. تهدأ الدنيا فجأة وأشعر بشعاع شمس خجول يتلألأ في السماء، أرفع رأسي بعد برهة فأجد قرص الشمس بأكمله وبزهوته قد شق له طريقاً بين السحابات الثقال والتي سرعان ما تلتحم مع بعضها وتصبح الدنيا بلون الرماد، والناس لا يكترثون، يسيرون هنا وهناك والمظلات والبلاطي الووتربروف تعرف أن هذا هو وقتها فتؤدي عملها وتذود عن الناس.

أسرعت أسفل البواكي التي تغطي الأرصفة إلى أن بلغت أحد الشوارع الجانبية بمدخل إحدى البنايات، وقفت أتأمل ثلة

من طلاب المدارس يمضون أمامي مسرعين، وقد تدثروا من أعلى بملابس صوفية تعلوها سويترات ذات أغطية رأس محكمة، والحقائب مشدودة على ظهورهم بأربطة تعلو أكتافهم، ويلهون ويلعبون، منهم من يدفع زميله مازحاً تجاه سيارة تأتي مسرعة، أو يرشقه بحبات الثلج الناعمة في وجهه، أو يتسلل خلفه بحذر ويزيح ملابسه بغتة ويلقي على ظهره العاري كومة ثلج في حجم كف اليد.

ظللت أتابعهم بملابسي البسيطة ذات الطابع الشرقي، القميص الذي اشتريته من محل (عمر أفندي) بثلاثة جنيهات، والبنطلون التفصيل والشرز الصوفي المفتوح عند الصدر، وأتذكر الطريق الذي كنت أسلكه كل يوم متجهاً إلى المدرسة، والترام، والكمساري الذي كان يطاردنا من عربة إلى عربة، وأقول لنفسي لو عشت هنا العمر كله ما الذي أفعله مع هؤلاء الناس الشقر شديدي البياض، الذين يلبسون الأحذية الطويلة ذات الجلد السميك وعلى رؤوسهم القبعات..

وتمر فتاتان من طالبات المدارس، فأهيم بقلبي ناحية حي الظاهر وشارع عباس ..

* * *

obeikandi.com

obeikandl.com

(٤٣)

لم يمض أسبوع إلا وأنا أوقظ أمي من النوم ..

لم تصدق، وأنا أقف أمامها بملابسي كاملة وفي يدي تذكرة السفر والجواز.

ودخلنا في جدال أشبه بالشجار، واقتحم جدي علينا الباب. حاولوا كلهم إثنائي عن السفر، حتى جدتي بدا عليها الإنزعاج وحاولت خطف الجواز من يدي.

لم يفلح أي شيء معي، لا بكاء أمي، أو عينا جدي المتوسلتان.

وجلست أمي على حافة السرير، تعاتب الدنيا على العمر الذي راح، والزوج الذي مات، وولد كأنه ضاع. وظللت كآبة معتمة، على سيارة الأجرة التي تقلنا إلى المطار.

قال جدي:

- يعني شوية كده وراجع يا جلال؟

تطلعت في وجهه دون أن أتكلم.

- ريحنا يا ابني.

- إن شاء الله يا جدي، إن شاء الله، بس أطمن الأول على مستقبلي.

قالت أمي بصوت عاتب:

- مستقبلك!! وهو مستقبلك هناك بس!

obeikandl.com

قلت وأنا أضغط على معصم يدها:
- متقلقيش يا ماما، وهيكون بينا جوابات.
- جوابات! جوابات إيه يا جلال، بقى هان عليك تعملها وتسيبني، وهتعرف تنام لوحدك إزاي؟!
وقال جدي:
- سيبيه دلوقتي يا كاميليا، جلال ابننا وملوش غيرنا وهيرجع تاني، مش كده يا جلال؟
قلت بصوت خافت:
- كده.
وبعد برهة صمت.
- معاك فلوس يا ابني؟
- الحمد لله يا جدي.
أخرج مظروفاً من جيب الجاكت وقال:
- دول اللي كانوا في البيت. ألفين فرنك. فلوسنا كلها في البنك يا ابني وإنت سافرت على غفلة.
واستدار ناحية أمي.
- إقلعي يا كاميليا السلسلة الدهب اللي على صدرك دي، وإنتي يا إيفون إخلعي الخواتم.
ففعلا، وناولني هو هذه الأشياء، ولما رفضت وضعها عنوة في جيب القميص.

* * *

افترقنا على باب المطار.
سلمت التذكرة ووضعت الحقيبة على الميزان، ثم جلست على مقعد قريب.
هي ساعة وانتهى كل شيء ..

obeikandl.com

أغلقوا الكاونتر وانصرف الحمالون، وبدأوا في النداء على الركاب للتوجه إلى الطائرة.

وعندما اكتشفوا غيابي بدأوا في النداء على اسمي مرة واثنتين وعشراً، وأنا جالس أنظر .. لا أنا قادر على الاستجابة، ولا أنا عارف ما الذي أفعله!

لم أقم، أو أتحرك، أو حتى أحسب الأمور، أو أفعل أي شيء. كنت عاجزاً ورأسي فارغة، وبدوت أمام نفسي كالمهزوم ..

نادوا على اسمي بعد برهة انقطاع، قالوا: إنه النداء الأخير ..

ولم أجب بالطبع ..

فقد كانوا ينادون على شخص ميت ..

***

obeikandl.com

ما صدر للمؤلف

الأعمال الإبداعية.

- قلوب منهكة. رواية. وقد ظفرت طبعتها الأولى بجائزة الدولة التشجيعية عام ٢٠٠٥. دار النيل للنشر، ٢٠٠٤.
- أيام في المنفى. مجموعة قصصية. الكتاب الفضي لنادي القصة، ٢٠٠٥.
- أيام الشتات. رواية. وكالة سفنكس للفنون والآداب، ٢٠٠٨.

الأعمال القانونية.

- السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي. دار النهضة العربية، ١٩٨٧.
- القانون الإداري. مطبوعات جامعية.
- نظم الحكم. مطبوعات جامعية.
- الإدارة العامة. مطبوعات جامعية.
- المدخل إلى العلوم القانونية. مطبوعات جامعية.
- الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع في المواد المخدرة. مطبوعات جامعية.

obeikandl.com